الثناء في الشعر الجاهلي

دراسة موضوعية فنية

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في الأدب العربي القديم

الاسم: الحسين بن علي بن سلمان العجمي

الرقم الجامعي: ١٢٤١٦٣٢٢

إشراف الدكتور: محمد علي دقة

السنة الجامعية: ٢٠١٧/٢٠١٨م

الفهرست

الموضـــوع	الصفحة
﴿إهداء﴾	أ
﴿شكر وامتنان﴾	ب
﴿ملخص باللغة العربية﴾	د
﴿ملخص باللغة الإنجليزية﴾	هـ
﴿المقدمة﴾	١
﴿التمهيد﴾	٥
﴿الفصل الأول الشتاء في البيئة العربية﴾	١٦
المبحث الأول: الشتاء والريح	١٧
المبحث الثاني: الشتاء والسحاب	٢٧
المبحث الثالث: الشتاء والمطر	٣٩
﴿الفصل الثاني الدراسة الموضوعية﴾	٥١
المبحث الأول: الشتاء والكرم	٥٢

المبحث الثاني: الشتاء والمرأة	٦٦
المبحث الثالث: الشتاء والحرب	٧٣
المبحث الرابع: الشتاء والناقة	٨٠
المبحث الخامس الشتاء وثور الوحش	٨٨
﴿الفصل الثالث الدراسة الفنية﴾	٩٧
المبحث الأول الصورة	٩٧
مفهوم الصورة	٩٨
الصورة التشبيهية	١٠٢
الصورة الاستعارية	١٠٩
المبحث الثاني: التشكيل النفسي	١١٦
الصور البصرية	١١٦
الصور السمعية	١٢٨
الصور الشمية	١٣١
الصور الذوقية	١٣٢
المبحث الثالث: الموسيقى الشعرية	١٣٤
الموسيقى الخارجية	١٣٥
الموسيقى الداخلية	١٤٠

المبحث الرابع: اللغة والأسلوب	١٤٧
﴿الخاتمة﴾	١٥٧
﴿قائمة المصادر والمراجع﴾	١٦٣

الإهداء

إلى من جرع الكأس فارغا ليسقيني قطرة حب

إلى من كلّلت أناملها ليقدم لنا لحظة سعادة

إلى من حصد الأشواك عن دربي ليمهد لي طريق العلم

إلى القلب الكبير (والدي العزيز)

إلى من أرضعتني الحب والحنان

إلى رمز الحب وبلسم الشفاء

إلى القلب الناصع بالبياض (والدتي الحبيبة)

إلى القلوب الطاهرة الرقيقة والنفوس البريئة إلى رياحين حياتي (إخوتي وأخواتي)

إلى من تجرعت على مواصلة مسيرتي العلمية رفيقة دربي (زوجتي)

إلى شموع حياتي أولادي (قصي، البتول، علي، الجليلة)

شكر وامتنان

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على معلم البشرية وهادي الإنسانية وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. بعد رحلة بحث، وجد، واجتهاد، أحمد الله سبحانه وتعالى أن من علي بإنجاز هذا البحث، وتشكر جامعتنا الغراء، ممثلة بأساتذتنا في قسم اللغة العربية، على ما قدموه لنا من معارف، وعلوم قيمة، وما غرسوه فينا من حب العمل، والتضحية، والانتماء لهذا الوطن الغالي في ظل الرعاية السامية لمولانا جلالة السلطان قابوس بن سعيد المعظم - حفظه الله - وأمد في عمره. كما أتقدم بخالص الشكر وعظيم الامتنان لمن غمرني بالفضل، واختصني بالنصح، وتفضل علي بقبول الإشراف على رسالتي، الدكتور محمد علي دقة، فله كل الامتنان، والاحترام على ما بذله من جهد طيلة العمل في إنجاز هذا البحث، فلقد كان نعم الناصح الأمين، والمربي الوقور، والأخ الكبير الحليم، أفاض علي بعلمه، وشملني بفضله، وسماحته.

والشكر موصول إلى الأستاذ الدكتور أحمد هاشم السامرائي في دعمه اللامحدود وتواصله الدائم، وكذلك فإن شكري الجزيل موصول للدكتور أحمد حمالو الذي أخذ بيدي منذ بداية الطريق. وأتقدم بشكري الجزيل في هذا اليوم إلى أساتذتي الموقرين في لجنة المناقشة رئاسة وأعضاء لتفضلهم علي بقبول مناقشة هذه الرسالة، فهم أهل لسد خللها وتقويم معوجها وتهذيب نتوآتها والإبانة عن مواطن القصور فيها، سائلا الله الكريم أن يثيبهم عني خيرا.

وأنا إذ أقدم هذا البحث أتمنى من الله جل في علاه أن أحقق الفائدة المرجوة فإن أصبت فهذه أمنيتي وأن أخفقت فقد بذلت ما بوسعي من جهد لتجنب ذلك، فالمرء يخطئ ويصيب وحسبي أني حاولت، وأرجو أن أكون غير مقصر في جهدي هذا، فإن وقع على الحال الذي ارتأيت، وبالمكانة التي أملت فذلك بتوفيق من الله ثم بحسن تأييده، وإن وقع بخلافها فما قصرت في الاجتهاد، وإن حصل فأنا بشر، وهذه أولى صفاته، فهما كتب وأعاد وأكد واستزاد فإنه لو نظر فيه نظرة أخرى لوجده ناقصا.

الباحث

ملخص البحث

تهدف الدراسة إلى وصف الطبيعة في الشتاء ورسم صورة لحياة الشاعر الجاهلي في هذا الفصل، وما يحمله من عادات وأخلاق عربية رسمت ملامحه الخاصة، وتعتمد الدراسة على منهج تكاملي، فالوصف يعنى بدراسة الطبيعة الشتوية والبيئة الاجتماعية التي أبدعت هذا الشعر المتعلق بالشتاء، والدراسة الفنية تتناول هذا الشعر بالتحليل واستخلاص الدلالات والرموز والأبعاد النفسية التي انطبعت في قصائد الشتاء، ومحاولة الكشف عن الرموز والدلالات الأسطورية التي عبر عنها الشعراء .

Search summary

The study aims to describe nature in winter and draw a picture of the old poet's life in this chapter, the Customs and manners of special features painted Arab based study on complementary approach, description means winter nature study and social environment that created this hair on winter, and technical study discusses the hair analysis and interpolation and symbols and psychological dimensions that were required in the winter poems, and attempt to detect symbols and mythological connotations expressed by poets.

المقدمة:

يعد الشعر الجاهلي ديوان العرب ، فقد احتضن بين أبياته حياتهم ، وصور أحوالهم في حلهم وترحالهم ، كما صور مناخ بيئتهم التي تأثر بها الشاعر الجاهلي خاصة فصل الشتاء الذي عانى فيه من شدة البرد والمطر، مع ما يرافق ذلك من الجدب والقحط في كثير من الأحيان ، ومن هنا جاء اختياري لهذا الموضوع تحت عنوان ." صورة الشتاء في الشعر الجاهلي " رغبة مني في الكشف عن صورة هذا الفصل، والكشف كذلك عن حياة الشاعر الجاهلي في هذا الفصل، وما تضمنه من تقاليد، وعادات ، وأخلاق ، كانت تبرز عنده حين تشتد الريح وينهمر المطر.

أهمية الدراسة ومبرراتها:

تكمن أهمية دراسة هذا الموضوع، في أنه يكشف عن جوانب من حياة الإنسان الجاهلي، ألا وهي الجوانب المتعلقة بحياته في فصل الشتاء، وما تضمنته من تقاليد، وعادات، وأخلاق، كانت تبرز عند الشاعر الجاهلي في هذا الفصل.

وقد دعت دواع ومبررات عدة لهذه الدراسة، منها : جدة الموضوع فلم ينل حظا وافرا ، ولم يحظ بدراسة شاملة متخصصة ، وإنما اقتصرت الدراسات السابقة على بعض الجزئيات المبعثرة في ثنايا الكتب القديمة والحديثة.

أهداف الدراسة:

تهدف الدراسة إلى وصف الطبيعة في الشتاء ورسم صورة لحياة الشاعر الجاهلي في هذا الفصل ، وما يحمله من عادات وأخلاق عربية رسمت ملامحه الخاصة ، ويهدف كذلك إلى تتبع تأثير المعتقدات والأساطير بالشتاء في الشعر والرموز والدلالات التي استخدمت فيه ، من خلال دراسة الصورة الفنية.

المنهج:

تعتمد الدراسة على منهج تكاملي، فالوصف يعنى بدراسة الطبيعة الشتوية والبيئة الاجتماعية التي أبدعت هذا الشعر المتعلق بالشتاء ، والدراسة الفنية تتناول هذه الشعر بالتحليل واستخلاص الدلالات والرموز والأبعاد النفسية التي انطبعت في قصائد الشتاء ، ولا يفوتنا محاولة الكشف عن الرموز والدلالات الأسطورية التي عبر عنها الشعراء .

فصول البحث:

لقد أتى البحث في ثلاثة فصول وكل فصل منها يحتوي على عدة مباحث على النحو الآتي:

الفصل الأول الشتاء في البيئة العربية

المبحث الأول: الشتاء والريح

المبحث الثاني: الشتاء والسحاب

المبحث الثالث: الشتاء والمطر

الفصل الثاني الدراسة الموضوعية

المبحث الأول: الشتاء والكرم

المبحث الثاني: الشتاء والمرأة

المبحث الثالث: الشتاء والحرب

المبحث الرابع: الشتاء والناقة

المبحث الخامس الشتاء وثور الوحش

الفصل الثالث الدراسة الفنية

المبحث الأول الصورة

١- مفهوم الصورة

٢- الصورة التشبيهية

٣- الصورة الاستعارية

المبحث الثاني: التشكيل النفسي

١- الصورة البصرية

٢- الصورة السمعية

٣- الصورة الشمية

٤- الصورة الذوقية

المبحث الثالث: الموسيقى الشعرية

١- الموسيقى الخارجية

٢- الموسيقى الداخلية

المبحث الرابع: اللغة والأسلوب

الدراسات السابقة:

لم أعثر على دراسة خصصت لدراسة فصل الشتاء في الشعر الجاهلي ، لكن هناك بعض الدراسات التي تناولت بعض جزئيات صورة الشتاء في الشعر الجاهلي ، وهذه الدراسات، هي:

١. أبو سويلم ، أنور ، المطر في الشعر الجاهلي ، دار عمار . عمان ، ودار الجيل . بيروت، ط١ ، ١٩٨٧.

٢. الرفوع ،خليل عبد سالم ، السحب في الشعر الجاهلي "دراسة في التشكيل والرؤيا" ، وهو بحث منشور في المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها، مجلد (٢)، ع٣، ٢٠٠٦، جامعة مؤتة، الأردن.

٣. الكبكبي ، رداد بن شبير ، المطر في شعر الهذليين " دراسة نقدية بلاغية" ، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة أم القرى ، السعودية ،١٤٣٥. وقد اعتمد فيه الباحث على المنهج التحليلي.

التمهيد

بسم الله الرحمن الرحيم

الجزيرة العربية: إن المتتبع للتراث العربي يجد أنه يحفل بالعديد من الدراسات الجغرافية عن شبه الجزيرة العربية سواء في كتب مستقلة أم ضمن كتب البلدان العربية ومن أهم هذه الكتب التي وصلت إلينا في هذا المجال كتاب (بلاد العرب) للحسن بن عبدالله الأصفهاني وكتاب (صفة جزيرة العرب) للحسن بن أحمد الأصفهاني وهذا الاهتمام جعلهم يضعون الجزيرة العربية بمرتبة الأقليم الأول من ضمن أقاليم العالم الإسلامي ويتجلى ذلك في كتابات عديد من المهتمين مثل الأصطخري وابن حوقل وابن الفقيه والمقدسي الذين تحدثوا عن حدود الجزيرة العربية وأقسامها المختلفة. ولا نغفل أن الشعر الجاهلي مصدر هام من مصادر المعرفة بجزيرة العرب لما ورد فيه من ذكر للأماكن والبلدان والمياه والجبال والوديان.

تقع شبه الجزيرة العربية في الجزء الغربي من أسيا وتبلغ مساحتها ثلاثة ملايين كيلومترا مربعا وهي أكبر شبه جزيرة في العالم ولعل ما دفع العلماء إلى اطلاق اسم جزيرة العرب أمران:

الأول: إحاطة الأنهار والبحار بها من ثلاثة جوانب.

الثاني: أن هذه المنطقة أشبه بجزيرة بشرية يتكلم سكانها لغة واحدة ويجاورها من الشمال أقوام يتحدثون لغات سامية أخرى كما هو حال اللغة العربية(١).

الحدود الجغرافية: وتعد المصادر الفقهية من أقدم المصادر في بيان الحدود الجغرافية للجزيرة العربية وذلك لاهتمام علماء الفقه والحديث بتفسير حديث الرسول ﷺ:

"لا يجتمع في جزيرة العرب دينان"(٢). وسنستعرض أبرز الأقوال في بيان الحدود الجغرافية للجزيرة العربية: ما رواه المغيرة بن عبد الرحمن أن جزيرة العرب (مكة والمدينة واليمن وقرياتها) وفي هذه الرواية لا توجد إشارة لبلاد اليمامة والبحرين ورواية أحمد بن المعذل يرفع إلى مالك

---

(١) انظر تاريخ العرب قبل الإسلام، أ.د محمد سهيل طقوس، الطبعة الأولى، دار النفائس، بيروت، ط ١ ٢٠٠٩، ص ١١ ، ١٢.

(٢) تلخيص الحبير، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني أبو الفضل شهاب الدين، تحقيق: حسن بن عباس بن قطب، مؤسسة قرطبة، ج٤، ١٩٩٥، حديث رقم ١٤٥٦.

ابن أنس أن جزيرة العرب مكة والمدينة واليمن وقرياتها[١] .وما ذكره ابن عباس عند حديثه عن إخراب بخت نصر لبلاد العرب حيث قال "وأرض العرب يومئذ خاوية ليس فيها كثير أحد، لإخراب بخت نصر إياها وإجلاء أهلها"[٢] .وقد اختلف في ضم اليمامة لبلاد العرب في العصرين الأموي والعباسي ففي عهد الأمويين كانت اليمامة تضاف إلى المدينة وأحيانا تكون مستقلة بذاتها واعتمد الفقهاء أن عمر عندما أراد إخراج اليهود والنصارى من جزيرة العرب اقتصر على أعمال مكة والمدينة ولكن عندما أضيفت اليمامة واليمن في العصر العباسي إلى بلاد العرب كان لا بد للفقهاء من تعديل رأيهم الأول[٣]. والمتتبع لآراء العلماء في تحديد جزيرة العرب يجد أن هناك تباينًا واضحًا فالشعبي يرى أن جزيرة العرب ما بين قادسية الكوفة إلى حضرموت [٤]ويذهب الهمداني إلى أن حدودها " من شق الأرض الشمالي إلى الجزيرة الكبرى وهي الجزيرة التي يسميها بطليموس (ما وري) وتقع على أربعة أقاليم من عمران أيله (العقبة) وما طردته من سواحل القزم وفسطاط مصر وشرقها عمان والبحرين وكاظمة والبصرة وموسطها الحجاز وأر ض نجد والعروض[٥] .أما الأصطخرى وابن حوقل فقد استبعدا من تحديد الهمداني شبه جزيرة سينا وكل النطاق الساحلي من بلاد الشام الواقع غربي أخدود وادي عربة ونهر الأردن وامتدادهما شمالا إلى أعالي نهر الفرات ثم كان وصفهما للحد الشمالي الشرقي وصفا تفصيليا[٦] . وأما المقدسي فانفرد بذكر أقليم سماه (بادية العرب) وتخوم هذه البادية من ويلة على مدائن قوم لوط وتصعد إلى مأرب ثم على تخوم عمان وأذرعات ورساتيق دمشق وتدمر وسلمية وأطراف حمص إلى بالس ثم ترجع إلى الفرات وتعطف على الرقة والرحبة والدالية إلى هيت والأنبار ثم إلى الحيرة والقادسية ومغارب البطائح ثم على سواد البصرة إلى عبدان)[٧].

---

(١) معجم ما استعجم، أبو عبيدة البكري، تحقيق مصطفى السقا، ١٩٤٥، ج ١، ص ٥.

(٢) صفة جزيرة العرب ، الحسن بن أحمد الهمداني ، تحقيق محمد الأكوع ، ١٩٧٤ ، بيروت ، ص ٥٦.

(٣) " الأقسام الجغرافية لجزيرة العرب، عبد المحسن الحسيني، مجلة كلية الآداب، ١٩٥٣، م ٦، ص ١٠١-١٠٢.

(٤) معجم ما استعجم ، أبو عبيدة البكري ، ص ٣٩.

(٥) صفة جزيرة العرب ، الهمداني ، ص ٥٧ – ٥٨.

(٦) المسالك والممالك ، إبراهيم بن محمد الأصطخرى ، تحقيق محمد جابر الحيني ، القاهرة ، ١٩٦١ ص٢٠. صورة الأرض ، أبو القاسم النصيبي ، منشورات دار مكتبة الهلال ، بيروت ١٩٧٩م ، ص٢١٠.

(٧) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، محمد بن أحمد المقدسي ، ليدن ، ١٩٠٦ ص ٢٤٨ .

أما الطبيعة الجغرافية لهذه الجزيرة فإن المتتبع للدراسات الجغرافية يجد أن الجزيرة العربية تنقسم من حيث التركيب والبنية إلى عدة أقسام:

النفود: وهو أحد التكوينات الصحراوية و كانت تعرفه العرب قديما ببادية السماوة أو رملة عالج تقع في شمالي الجزيرة العربية بين نجد وبادية الشام وبين نجد والأحساء بامتداد يناهز مائة وأربعين ميلا من شمال الجزيرة إلى جنوبها ومائة وثمانين ميلا من الشرق إلى الغرب وهذا النفود مغطى بكثبان رملية متموجة يبلغ ارتفاع بعضها خمسة عشر مترًا وهذه المنطقة على الرغم من طبيعتها الجافة تتعرض بين الحين والأخر لشتاء ممطر فتنبت في بعض بقاعها النباتات الصحراوية والأزهار الصغيرة وبعض النباتات ذات السيقان القوية يستعملها البدو حطبا ولا تدوم هذه النباتات طويلا فمع حلول فصل الصيف الحارق تجف ويرحل عنها البدو(١).

الدهناء: وهذا التكوين الصحراوي عبارة عن مساحات من الأرض ذات رمال حمراء تمتد من النفود شمالا إلى حضرموت والمهرة جنوبا، وغربا، إلى اليمن، وشرقًا إلى عمان ويسمى القسم الجنوبي من هذا التكوين بالربع الخالي لخلوه من الناس والقسم الغربي منه بالأحقاف أي الكثبان الرملية وتسقط الأمطار الموسمية في هذا القسم فيكون مقصد البدو للرعي حتى دخول فصل الصيف وقد اقترن اسم هذه المنطقة باسم عاد وثمود وقد استوطنها العرب ردحا من الدهر قبل ظهور الإسلام ويدل على ذلك كثرة الخصوبة بفعل الأمطار والينابيع الموجودة وكذلك تقاطع طرق التجارة فيها فقد كانت مقصدًا للقوافل التجارية المتجهة من جنوبي الجزيرة إلى شواطئ الخليج(٢).

يقول الأعشى(٣):

يَمُرُّوْنَ بِالدَّهْنَا خِفَافًا عِيَابُهُـــمْ وَيَرْجِعْنَ مِنْ دَارِيْنَ بجْرَ الحَقَــائِبِ

الحرائر: وهذا التكوين الصخري على امتداد المنطقة الغربية من شرقي حوران وصولا إلى المدينة التي تقع بين حرتين؛ واقم في الشرق ووبرة في الغرب ثم، تمتد إلى الجنوب بقرب

---

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام، أ.د محمد سهيل طقوس، دار النفائس، ط١ ،٢٠٠٩، ص ١٤

(٢) تاريخ العرب قبل الإسلام، أ.د محمد سهيل طقوس، ص ١٥

(٣) ديوان الأعشى، ص ٧٧ ،وعيابهم "العياب: جمع عيبة، وهي وعاء الثياب" دارين " قرية بالبحرين مشهورة بالمسك.

باب المندب كما أن هذه الحرات موجودة في المناطق الوسطى والشرقية والجنوبية من هضبة نجد، وكذلك في المناطق الجنوبية في الربع الخالي مثل حرة تبوك وحرة النار بالقرب من خيبر التي تميزت عن باقي القرى وقيل فيها: خير القرى العربية[١].

الدارات: يقول الاصمعي: الدارة رمل مستدير في وسطه فجوة وهي الدورة، وتجمع الدارة دارات كما قال زهير:

تربَّصْ فإن تُقْوِ المَرَوْرَاتُ منهـــمُ ودارتُها لا تُقْـــوِ مِنْهُمْ إذاً نَخْـــلُ

ويقول ابن الاعرابي: " الدير الدارات في الرمل، والدارة أيضا دارة القمر، وكل موضع يدار به شيء يحجره فاسمه دارة، نحو الدارات التي تتخذ في الطبخ ونحوها ويجعل فيها الخمر وتكثر هذه الدارات في بادية السماوة غربي العراق وبادية الشام شرقي بلاد الشام[٢] وهي أرض سهلية مستديرة قليلا محاطة بالتلال وغنية بالمياه الجوفية وفيها الأعشاب والنباتات الصحراوية وقد ورد ذكر كثير من هذه الدرات في الشعر الجاهلي والإسلامي مثل دارة جلجل التي وردت في شعر امرئ القيس الكندي ودارة الآرام.

الجبال: وهي العمود الفقري للجزيرة العربية من جنوبي بلاد الشام في الشمال وصولا إلى اليمن في الجنوب موازية لساحل البحر الأحمر وبعض قمم هذه الجبال مرتفعة تتساقط فيها الثلوج كجبل دباغ وجبل شيبان كما تمتد سلاسل جبلية قريبة من السواحل الجنوبية متجهه شرقا إلى عمان التي تتميز بالجبل الأخضر المرتفع فيما تفصل هذه السلاسل عن البحر بعض السهول الضيقة في الغالب وهذه السواحل غالبا ما تكون حارة وجافة وتمنع وصول الهواء الرطب من البحر الأحمر إلى الخليج العربي وبالتالي تسقط الأمطار في أواسط الجزيرة العربية وكذلك نجد أن كثيرا من الأودية تسيل فيها مياه الأمطار لتصبح مناطق خصب وزراعة ومن الجبال المعروفة قديما جبل شمر، وتتكون من سلسلتين يقال لأحداهما أجأ والأخرى سلمى[٣] وهي منازل طيىء.

الأنهار والأودية: الجزيرة العربية لا تحتوي على أنهار كبيرة بالمعنى المعروف ولذلك تتصف بأنها إقليم حار وجاف، غير أن هذه الأودية تمتلئ بالمياه عند سقوط الأمطار.

---

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام، أ.د محمد سهيل طقوس، ص ١٦

(٢) معجم البلدان، ياقوت الحموي، ج ٢، ص ٤٢٤.

(٣) تاريخ العرب قبل الإسلام، أ.د محمد سهيل طقوس، ص ١٧

أما الأودية فهي تصب ماءها في البحر الأحمر أو الخليج العربي وهي ذات مجرى أعمق وشديدة الانحدار وبالتالي فإن سير المياه فيها سريع وجارف لمن يعترض تقدمها(١).

وسيتم الحديث عن الأمطار والرياح والسحاب والمياه بشيء من التفصيل في الفصل الأول من هذا البحث.

العرب والأنواء

بعد أن تم التعرف على الطبيعة الجغرافية للجزيرة العربية واهتمام سكان هذه الجزيرة بالبحث عن مصادر العيش كان لا بد للعربي أن يهتم بمواعيد نزول المطر وفترات الخصب والزراعة وأن يهتم بالطرق التجارية البرية والبحرية ولا يتأتى ذلك إلا من معرفته بالأنواء.

والأنواء لغة: الشيء إذا مال إلى السقوط تقول ناء ينوء نوءا بوزن ناء ، وإذا نهض في تثاقل يقال ناء ينوء به نوءا ، إذا أطاقه ودلل على هذا المعنى قائلا " ينوء الحمل الثقيل بالبعير أي يثقله والمرأة تنوء بها عجيزتها تنواء وقول الله تعالى ﴿ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة﴾(٢).

في الاصطلاح: يقول الخليل: " النوء من أنواع النجوم وذلك إذا سقط نجم بالغداة فغاب مع طلوع الفجر وطلع حياله نجم في تلك الساعة على رأس أربعة عشر منزلا من منازل القمر بذلك السقوط والطلوع نوء من أنواء المطر والحر والبرد(٣). والنوء مفرد والجمع أنواء قال ذو الرمة(٤):

أهاضيبُ أنواءٍ وهيفـانُ جرتـــا علـى الدَّارِ أعرافَ الحبالِ الأعافرِ

وقد ربط النوء بسقوط المطر، فيقال " قد صدق النوء إذا كان فيه مطر ولم يخلف"(٥).

---

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، د. جواد علي، جامعة بغداد، ج١ ، ط٢، ١٩٩٣،ص ١٥٨

(٢) سورة القصص، الآية٧٦.

(٣) كتاب العين ، الخليل بن أحمد الفراهيدي ، تحقيق د . مهدي المخزومي و د . إبراهيم السامرائي دار مكتبة الهلال ، ج ٨ ص ٣٩

(٤) ديوان ذي الرمة شرح أبي نصر الباهلي رواية ثعلب ،أبو نصر أحمد بن حاتم الباهلي ، تحقيق عبد القدوس أبو صالح ، مؤسسة الإيمان جدة ،ط ١ ، ١٩٨٢ ، ص ٦٧.

(٥) محيط المحيط ، بطرس البستاني ، ج٢ ، مكتبة لبنان ، بيروت،١٨٧٠ ، ص ٢١٤٠

فقد كانت العرب تنسب سقوط الغيث لنوء معين وكأن هذا النوء هو الذي أنزل المطر وتطالعنا الأحاديث الشريفة أن الإسلام نهى عن ذلك ففي حديث أبي هريرة عن الرسولﷺ قال: " لا عدوى ولا هامة ولا نوء ولا صفر .."[١] وقد تشاءمت العرب من بعض النجوم والكواكب كالبطين والدبران ويسمونها شر الأنواء فيقولون إذا طلع الدبران يبست الغدران [٢].

ويرجع هذا الاهتمام بالأنواء إلى الحاجة التي تتجلى في أن المجتمع العربي مجتمع رعوي يعتمد في حياته على الرعي وتربية الحيوانات، فكان لا بد من معرفة مواعيد سقوط المطر ومناطق الخصب ومواسم الزراعة وكذلك كان لا بد من معرفة طرق التجارة والملاحة والاهتداء بهذه النجوم[٣].

وقد ذكر القرآن الكريم رحلات قريش التجارية إلى الشام واليمن "لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف .."[٤]

كما أننا نجد ذكر الرحلات البحرية في الشعر الجاهلي قال طرفة بن العبد[٥]:

كَـأَنَّ حُـدوجَ المالِكيَّـةِ غُـدوَةً خَلايـا سَفيـنٍ بِالنَواصِـفِ مِن دَدِ

عدوليـةٌ أو من سفيـن ابن يامـنٍ يجـورُ بهـا المَّـلاح طـوراً ويهتـدي

يشـقُّ حبـابَ المـاءِ حيـزومهـا بهـا كمـا قسَـمَ التُّـربَ المُفايِـلُ باليـدِ

وذكر القرآن الكريم أن العرب كانت تهتدي بالنجوم في رحلاتهم يقول الله عزو وجل " وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر"[٦].

والشعر الجاهلي حافل بذكر الاهتداء بالنجوم قال لبيد بن ربيعة[٧]:

---

(١) سنن أبي داؤود ، سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني أبو داود، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرون ، دار الرسالة العالمية، ج٢ ، ٢٠٠٩ ،ص ٣٤٤

(٢) الأنواء، محمد بن مسلم ابن قتيبة، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المطبعة الرحمانية، مصر، ١٣٣٨هـ، ص ٣٩.

(٣) الملاحة وعلوم البحار عند العرب، أنور عبد العليم، سلسلة عالم المعرفة الكويتية، ١٩٧٩، ص ١٥

(٤) سورة قريش، الآية ١

(٥) ديوان طرفة بن العبد، شرح الأعلم الشنتمري تحقيق درية الخطيب وأحمد الصقال، مطبوعات مجمع اللغة العربية ، دمشق ١٩٥٧،ص ٦-٧

(٦) سورة الأنعام، الآية ٩٧

(٧) ديوان لبيد بن ربيعة العامري، دار صادر بيروت، ١٩٦٦، ص ٢٨

وعانٍ فككتُ الكبلَ عنه، وسدفـــةٍ سريــتُ، وأصحابي هديــتُ بكوكبِ

وقد سئلت أعربية فقيل لها أتعرفين النجوم؟ فقالت سبحان الله أما أعرف أشباحا وقوفا علي كل ليلة [١] قال الله عز وجل {هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب} [٢] وقال: {وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاء بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ}[٣]

وقد قسم العرب الأنواء إلى ثمانية وعشرين نوءا في السنة، ولكل نوء ثلاثة عشر يوما ما عدا الجبهة فإن أيامها أربعة عشر يوما . يقول البيروني: وأما العرب فقد قسموها بثمانية وعشرين منزلة [٤]وهذه المنازل هي: الشرطان والبطين والثريا والدبران والهقعة والهنعة والذراع والنثرة والطرف والجبهة والبرة والصرفة والعواء والسماك والغفر والزباني والإكليل والقلب والشولة والنعائم والبلدة وسعد الذابح وسعد بلع وسعد السعود والفرغ الأول والفرغ الثاني والرشاء[٥] .

وقد ميزتها العرب في أسجاعها فاختاروا أسجاعًا تناسب طبيعة هذه المنازل وما يصاحبها من برد وحر وتأثيرهما على الإنسان والحيوانات والنباتات والبيئة .

تقول العرب:"إذا طلع الشرطان، ألقت الإبل أوبارها في الأعطان، ويوشك أن يشتد حر الزمان. و إذا طلع البطين، طلعت الأرض بكل زين، وحسنت في كل عين. وكذلك الثريا وتسمى النجم فيقال إذا طلع النجم، فالبرد في هدم، والعانات في كدم، والفلاحون في ضجم، والقيظ في حذم، والبرد في حطم، والعشب في صلم. و إذا طلع الدبران توقدت الحزان، وأخمدت النيران. وبات الفقير بكل مكان"[٦] . وهكذا لباقي المنازل فلكل منزلة أسجاع تناقلتها العرب من واقع التجربة.

---

(١) الحيوان ، أبو عثمان عمرو الجاحظ ، تحقيق وشرح عبدالسلام هارون ، مكتبة مصطفى البابي الحلبي ، ط١ ، ١٩٥٤ ، ج٦ ، ص ٣٠

(٢) سورة يونس ، الآية ٥

(٣) سورة الحجر ، الآية ١٦

(٤) الأثار الباقية عن القرون الخالية ،أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني ، بعناية إدوارد ساخو ، ١٨٧٨ ص ٣٣٦

(٥) الأنواء في مواسم العرب، أبو محمد بن مسلم الدينوري، تصحيح دار الكتب المصرية ١٩١٩، القاهرة ص١٨ – ٨٤

(٦) نثر الدر ، أبو سعد منصور بن الحسين الآبي ، تحقيق مظهر الحجي ، وزارة الثقافة السورية ١٩٩٧، ج ٤ ، ص١٥٠ إلى ١٥٨ .

هذه المنازل تكون فصول السنة الأربعة المعروفة وهي الربيع والصيف والخريف والشتاء ولكل فصل أنواء خاصة به.

فصول السنة

اختلف العرب في تقسيم السنة فمنهم من قسمها إلى زمنين، ومنهم إلى أربعة أزمنة، ومنهم إلى ستة أزمنة، إلا أن الغالب هو التقسيم إلى أربعة أزمنة، ولكل فصل سبعة أنواء . قال أبو حنيفة " إن العرب تبدأ فتقسم السنة إلى نصفين شتاء وصيف "(١) ، وقال ابن قتيبة " الأزمنة أربعة : الربيع وهو عند الناس الخريف وسمته العرب ربيعا لأن المطر يكون فيه، وسماه الناس خريفا لأن الثمار تخترف فيه ثم الشتاء ثم الصيف وهو عند الناس الربيع ثم القيظ وهو عند الناس الصيف "(٢)، وذكر الألوسي أنّ" الأوائل من الأطباء كانوا يقسمون السنة على أربعة أقسام إلا أنهم يجعلون الصيف والشتاء أطول وكذلك للربيع والخريف فيجعلون للشتاء أربعة أشهر وللصيف كذلك وللربيع والخريف أربعة أشهر لكل منهما شهران "(٣).

ونجد أيضا أن من العرب من قسم السنة إلى ستة أزمنة مثل قطرب فيقول " الأزمنة ستة أزمنة ثلاثة للشتاء وثلاثة للصيف "(٤) .

الربيع: وأنواؤه هي العواء والسماك والغفر والإكليل والقلب والشولة(٥). وفي هذا الفصل يطلع النبات وتزهر الأشجار وتورق وتنبع العيون وتسيل الأودية(٦). وفيه أيضا يطيب الهواء ويهب النسيم وتتكون الحيوانات وتنتج البهائم وتدر الضروع ويطيب العيش على أهل الزمان

---

(١) الأزمنة والأمكنة، أبو علي محمد بن الحسن المرزوقي، تحقيق محمد نايف الدليمي، عالم الكتب، بيروت، ط١، ج ١، ص ١٤٩

(٢) أدب الكاتب، محمد بن مسلم ابن قتيبة، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المطبعة الرحمانية، مصر، ١٣٣٨هـ، ص ٨٦

(٣) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، محمد شكري الألوسي، شرح محمد بهجة الأثري، دار الكتاب العربي المصري، ١٩٨٣، ط٧، ج ٣ ص ٢٤٤

(٤) الأزمنة وتلبية الجاهلية، أبو علي محمد بن المستنيربن أحمد البصري قطرب، تحقيق حنا جميل حداد، مكتبة المنار الأردن، ط١ ،١٩٨٥، ص ٩٨

(٥) الأنواء في مواسم العرب، أبو محمد بن مسلم الدينوري، ص ١١٧

(٦) نهاية الأرب في فنون الأدب، أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم القرشي التيمي البكري، شهاب الدين النويري، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة ، الطبعة الأولى، ج ٣ ص ١٦٩

يقول بقراط "[١] من لم يبتهج لرؤية الربيع وتبسم أنواره فهو عديم حس أو سقيم نفس"[٢] والشعر الجاهلي زاخر بذكر فصل الربيع فنجد أن زهير ذكر الربع وهي منازل الأحبة التي ينزلون فيها بالربيع، فقال[٣] :

فَلَمَّا عَرَفْتُ الدَّارَ قُلْتُ لِرَبْعِهَـــا أَلَا انْعِمْ صَبَاحًا أَيُّهَا الرَّبْعُ وَاسْلَـــمِ

ووصف طرفة بن العبد شدة الأمطار في هذا الفصل على ديار محبوبته فيقول[٤]:

فلا زالَ غَيثٌ مِن رَبيعٍ وصَيّفٍ على دارِها، حيثُ استقرّتْ، له زَجَلْ

ووصف عروة بن الورد الشياه السمن بفعل فصل الربيع وكيف كان هذا الفصل السبب في النتاج من السخال، فقال[٥] :

سَمِنّ على الربيعِ فهُنّ ضُبطٌ لهنّ لَبالـــِبٌ تحـــتَ السِّخـــال

الصيف: وأنواؤه هي النعائم والبلدة وسعد الذابح وسعد بلع وسعد السعود وسعد الأخبية والفرغ الأول[٦]. وفي هذا الفصل يشتد الحر ويسخن الهواء وتدرك الثمار وتجف الحبوب وتسمن البهائم وتشتد قوة الأبدان وتنقص الأنهار وتنضب المياه ويدرك الحصاد[٧]. وعند ذكر الصيف لا بد من التعريج على رياح الجنوب فهي الجالبة للمطر النادر في هذا الفصل وهي الريح التي تهب من جهة اليمن، قال عبيد بن الأبرص [٨] :

سَقَى الرَّبَابَ مُجَلْجِلُ الْـ أكْنَافِ لَمّاحٌ بُرُوقُـــــهْ

---

(١) عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات ، زكريا محمد محمود القزويني، مطبعة التقدم مصر، بدون ، ص ٨٢

(٢) سرور النفس بمدارك الحواس الخمس ، أبو العباس أحمد بن يوسف التيفاشي، تحقيق: إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت–لبنان، ط١ ،١٩٨٠، ص ٢١٩

(٣) ديوان زهير بن أبي سلمى، تحقيق وشرح كرم البستاني ، دار صادر ، بيروت ١٩٦٩، ص٨

(٤) ديوان طرفة بن العبد ، شرح الأعلم الشنتمري ، تحقيق درية الخطيب ولطفي الصقال، مجمع اللغة العربية ١٩٧٥ ص ٩١

(٥) ديوانه ، ص ٢١٦

(٦) الأنواء ، ابن قتيبة ، ص ٨٤

(٧) عجائب المخلوقات ، ص ٨٣

(٨) ديوان عبيد بن الأبرص ، شرح أشرف أحمد عدرة ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٩٩٤، ص٨٤–٨٥

جَوْنٌ تُكَرْكِرُهُ الصَّبَـــا وَهْناً وَتَمْرِيهِ خَرِيقُـــــهْ
مَرْيَ العَسِيفِ عِشَـــارَهُ، حَتّى إذا دَرّتْ عُرُوقُـهْ
وَدَنَا يُضِيءُ صُبَـــابُهُ غَاباً يُضَـرِّمُـهُ حَرِيقُـهْ
حَتّى إذَا مَا ذَرْعُـــــهُ بِالمَاء ضَاقَ فَما يُطِيقُهْ
هَبَّتْ لَـــهُ مِنْ خَلْفِـــهِ رِيـــحٌ يَمَانِيَّةٌ تَسُوقُـــهْ
حَلَّتْ عَزَالِيَهُ الجَنُـــو بُ فَشَجَّ وَاهِيَةً خُرُوقُـهْ

ووصف لبيد النباتات الصيفية التي اسودت من غزارة الأمطار، فقال[١] :

أو باردُ الصَّيفِ مسجورٌ، مراعُهُ سُودُ الذوائِبِ مما متعتْ هَجـرُ

ويصف طرفة بن العبد القيان بنباتات الصيف الخضراء فيقول[٢] :

كَبَنَاتِ المَخْـــرِ يَمْـــأدنَ، كمـــا أنْبَتَ الصّيْفُ عَساليجَ الخُضَر

فصل الخريف: وأنواء الخريف هي الفرغ الثاني والشرطان والبطين والثريا والدبران والهقعة [٣] وسمي خريفا لاختراف الثمار فيه[٤] وفي الخريف "يبرد الهواء ويتغير الزمان وتصرم الثمار ويغير وجه الأرض ويصفر ورق الشجر وتهزل البهائم" ويقال "الخريف ربيع النفس"[٥] ونجد الشعراء الجاهليين قد جعلوا نصيبا لهذا الفصل في أشعارهم فهذا زهير يصف محبوبته وكيف غادرته إلى أرض اليمن التي ارتوت بماء الصيف ويكون الخصب فيها في فصل الخريف، فقال[٦]:

فاسْتَبدَلَتْ بَعْدَنَا داراً يَمَانِيَةً تَرْعى الخَرِيفَ فأدْنَى دارِها ظَلِمُ

---

(١) ديوانه ص ٥٩
(٢) ديوانه ٥٩
(٣) الأنواء ، ابن قتيبة ، ص ١١٧
(٤) أدب الكاتب ، ابن قتيبة ، ص ٨٧
(٥) نهاية الأرب ، النويري ، ص ١٧٣
(٦) ديوانه ، ص ٩١

ويصف بشر بن أبي خازم قومه الذين خاضوا المعارك بالسحب المتشكلة في فصل الخريف فقال[١]:

فلَمَّا رَأَوْنـا بالنِّسَـارِ كأَنَّنـا نَشــاصُ الثُّرَيَّـا هَيَّجَتْها جَنُوبُهـا

فصل الشتاء: وأنواء الشتاء هي الهنعة والنثرة والطرف والجبهة والزبرة والطرفة. والمتتبع لأشعار العرب في الجاهلية يجد أن لفصل الشتاء الحظ الأوفر في أشعارهم[٢].

وفي هذا الفصل "يشتد البرد ويخشن الجو ويتساقط ورق الشجر وتنجر الحيوانات "[٣]. والشتاء أحد أرباع السنة وهي الشتوة وقيل الشتاء جمع شتوة وقال الجواهري : جمع الشتاء أشتية، وقال ابن بري : الشتاء اسم مفرد لا جمع بمنزلة الصيف لأنه أحد الفصول الأربعة ويدلك على ذلك قول أهل اللغة: أشتينا أي دخلنا في الشتاء وأصفنا أي دخلنا في الصيف، وأما الشتوة فإنما هي مصدر شتا بالمكان شتوا وشتوة للمرة الواحدة كما نقول: صاف بالمكان صيفا وصيفة واحدة والنسبة إلى الشتاء شتوي على غير قياس[٤]. وقال الإمام علي بن أبي طالب: " توقوا البرد في أوله وتلقوه في أخره فإنه يفعل في الأبدان كفعله في الأشجار أوله يحرق وأخره يورق"[٥]. وتناول الشعراء الجاهليون الشتاء بالوصف فذكروا شدة الرياح والأمطار الغزيرة التي كانت تهطل مصحوبة بالبرد والثلج أحيانا وسنبدأ حديثنا برياح الشتاء ثم السحاب ثم المطر مستلهمين هذا التسلسل من الآية الكريمة ﴿ والله الذي أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور ﴾[٦].

---

(١) المفضليات، المفضل الضبي، تحقيق وشرح أحمد شاكر وعبد السلام هارون، القاهرة، دار المعارف، ط٤،ص ٩٦.

(٢) انظر الأنواء، ابن قتيبة ص ١١٤

(٣) نهاية الأرب، النويري، ج ٣، ص ١٧٦

(٤) انظر لسان العرب، ابن منظور، ط١، دار صادر، لبنان ٢٠٠٠، مادة شتا

(٥) نهاية الأرب، النويري، ج ٣ ، ص ١٧٦

(٦) سورة فاطر، الآية ٩ والنشور هو دخول الروح في الجسد بعد الموت

الفصل الأول

الشتاء في البيئة العربية

يحتوي هذا الفصل على ثلاثة مباحث ستكون على النحو الآتي:

المبحث الأول: الشتاء والرياح

المبحث الثاني: الشتاء والسحب

المبحث الثالث: الشتاء والأمطار

المبحث الأول
الشتاء والرياح

الرياح: وردت الريح في القرآن الكريم والأحاديث الشريفة بلفظ الأنثى ولم ترد بلفظ المذكر قال الله عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾(١) وفي آية أخرى يقول: ﴿اللهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾(٢) ويقول الرسول ﷺ : «لا تَسُبُّوا الرِّيحَ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ مَا تَكْرَهُونَ فَقُولُوا: اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ هَذِهِ الرِّيحِ، وَخَيْرِ مَا فِيهَا، وَخَيْرِ مَا أُمِرَتْ بِهِ؛ وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ هَذِهِ الرِّيحِ، وَشَرِّ مَا فِيهَا، وَشَرِّ مَا أُمِرَتْ بِهِ»(٣) وكذلك هو حالها في الشعر الجاهلي، فقد ذكرت مؤنثة قال لبيد(٤):

ويكلّلُونَ إذا الرياحُ تناوحَـــتْ خُلُجاً تمــدُّ شوارعـاً أيْتَامُها

وقال قيس بن الخطيم(٥) :

مأوى الضَّريك إذا الرياحُ تناوحتْ ضَخْمِ الدَّسيعةِ مُخْلِفٍ مِتْلافِ

وتجمع هذه الريح على رياح و قد تجمع أحيانا على أرواح يقول الجوهري(٦) "الريح واحدة الرياح، وقد تجمع على أرواح، لأن أصلها الواو، وإنما جاءت بالياء لانكسار ما قبلها، فإذا رجعوا إلى الفتح عادت إلى الواو ، كقولك : أروح الماء ، وتروحت بالمروحة".

---

(١) سورة الفرقان الآية ٤٨

(٢) سورة الروم الآية ٤٨

(٣) صحيح سنن ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجة الربعي القزويني، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، ١٩٩٧، ج٣، ص ٢٢٧

(٤) ديوان لبيد بن ربيعة ص ١٧٨، تناوحت: تقابلت، الخلج: الجفان، وهي الأنهار، شوارع: جمع شارِعة: وهي من صفات الأيدي أي ممدودة أيديهم للأكل.

(٥) ديوان قيس بن الخطيم، تحقيق الدكتور ناصر الدين الأسد، مكتبة دار العروبة، القاهرة، ١٩٦٢م، ص ١٧١،الضريك: الفقير السيِّئ الحال، ضخم الدسيعة: كثير العطية.

(٦) الصحاح، (روح).

وقال ابن دريد[١] " رياح جمع ريح ، وكان أصله رواح ، لأن أصل الريح واو ، فقلبوا الواو ياء لانكسار ما قبله ، فإذا صاروا إلى أدنى العدد قالوا أرواح ورجعوا إلى الواو " وقد وردت في الشعر الجاهلي بلفظي الأرواح والرياح . يقول بشر بن أبي خازم[٢] :

تَغَيَّرَتِ المَنازِلُ مِن سُلَيمى بِرامَةَ فَالكَثيبِ إِلى بُطـــاحِ
فَأَجـزاعِ اللِـوى فَبِراقِ خَـبتٍ عَفَتها المُعصِفاتُ مِنَ الرِياحِ
دِيـارٌ قَد تَحُلُّ بِها سُلَيمى هَضيمَ الكَشحِ جائِلَةَ الوِشاحِ

وقال أيضا[٣] :

عَفَت أَطـلالُ مَيَّةَ بِالجَـــفيرِ فَهُضبِ الوادِيَينِ فَبُرقِ إيرِ
تَلاعَبَتِ الرِياحُ الهوجُ مِنها بِذي حُرُضٍ مَعـــالِمَ لِلبَصيرِ

وقال النابغة[٤] :

أَهاجَكَ مِن أَسماءَ رَسمُ المَنازِلِ بِرَوضَةِ نُعمِيٍّ فَذاتِ الأَجاوِلِ
أَرَبَّت بِها الأَرواحُ حَـتّى كَأَنَّما تَهادَينَ أَعلى تُربِها بِالمَـناخِلِ
وَكُلُّ مُـلِثٍ مُكـفَهِرٍ سَـحابُهُ كَميشِ التَوالي مُرثَعِنَّ الأَسافِلِ

وقد استعمل القرآن الكريم لفظي الريح والرياح إلا أنه خصص لفظ الرياح للخير والبشرى والمنفعة والرحمة يقول تعالى[٥]:﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

ويقول عز وجل[٦]: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾

---

(١) الاشتقاق، ابن دريد، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، مصر، ١٩٥٨، ص ٢٢٣

(٢) ديوان بشر بن أبي خازم الأسدي، تحقيق د . عزة حسن، مطبوعات مديرية إحياء التراث القديم، ١٩٦٠، ص ٤٣

(٣) المصدر نفسه ص ٩٤

(٤) ديوان النابغة الذبياني، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ١٩٧٧، ص ١٢٧

(٥) سورة الروم الآية ٤٦

(٦) سورة الأعراف الآية ٥٧

أما لفظ الريح فقد استعمل للعذاب والهلاك والنقمة والتخويف يقول الله عز وجل[١]: ﴿ أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾، ويقول أيضا[٢]: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ ﴾، ويقول الرسول ﷺ[٣] : " اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا رَحْمَةً وَلا تَجْعَلْهَا عَذَابًا ، اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا رِيَاحًا وَلا تَجْعَلَهَا رِيحًا".

مهاب الرياح: جعلت العرب لكل ريح اسما يختلف بحسب مكان الهبوب فالتي تهب من بلاد الشام هي الشمال والتي تهب من الشرق هي القبول وتسمى الصبا، والتي تهب من المغرب هي الدبور والتي تهب من اليمن هي الجنوب. يقول النويري[٤]: "وزعم آخرون من القدماء : ان الهواء جسم رقيق متى تموج من المشرق إلى المغرب سمى ريح الصبا. قيل: سميت ريح الصبا ، لأن النفوس تصبو إليها لطيب نسيمها وروحها. والصبوة الميل. وجاء في بعض الآثار: ما بعث نبي إلا والصبا معه، وهي الريح التي سخرت لسليمان (عليه السلام) غدوها شهر، أي من أول النهار إلى الزوال، ورواحها شهر، أي من الزوال إلى المغرب. كان يغدو من تدمر من بلاد الشام فيقيل في إصطخر من بلاد فارس، ويبيت بكابل من بلاد الهند . وعن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أنه قال "نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور". وإذا تموج من الجنوب إلى الشمال، سمي ريح الجنوب، وهي الريح التي أهلك الله عز وجل بها عادا .وإذا تموج من الشمال إلى الجنوب، سمي ريح الشمال".

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٩

(٢) سورة فصلت الآية ١٦

(٣) مسند الإمام الشافعي، أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٠، ٨١

(٤) نهاية الأرب في فنون الأدب، النويري، الجزء الأول، ص ٩٧

وقد ذكر ذو الرمة الرياح ومهابها[1] :

أَهاضــيبُ أَنواءٍ وَهَيفانَ جَـــرَتا عَلى الدارِ أَعرافِ الحِبالِ الأَعافِرِ
وَثالِثَةٌ تَهوي مِنَ الشامِ حَرجَـــفٌ لَها سَنَنٌ فَوقَ الحَصى بِالأَعاصرِ
وَرابِعَةٌ مِن مَطلَعِ الشَمسِ أَجفَلَت عَلَيهـا بِدَقعـــاءِ المِعـى فَقَراقِــرِ
فَحَنَّت بِها النُكبُ السَوافي فَأَكثَرَت حَنينَ اللِــقاحِ القارِباتِ العـواشِرِ

ريح الجنوب: وهي ريح يمانية صيفية؛ لأن مهبها من اليمن ولها عدة أسماء منها: الأزيب والنعامى واللواقح والهيف وهي ريح أهل الحجاز بها يستقبلون المطر[2] وهي ريح الخير تجلب المطر الغزير للمرتفعات والمنخفضات وتزيد من الخصب في السهول والرياض، قال عبيد[3]:

هَبَّت جَــنوبٌ بِأولاهُ وَمـــالَ بِهِ أَعجازُ مُزنٍ يَسُحُّ الماءَ دَلّاحِ
فَأَصبَحَ الرَوضُ وَالقيعانُ مُمرِعَةً مِن بَينِ مُرتَفِقٍ فيهِ وَمُنطـاحِ

وقال عامر بن جوين الطائي واصفا ما ساقته ريح الجنوب من غمام بأمطار غزيرة قد أصابت الرياض بالخير الوفير[4]:

يـا بُرَيــقا بِـــتُّ أَرقُبُـــه كانِساً في المُزنِ محتَجِبا
باتَ يَرقى في السَماءِ كَما حَرَّقــت حـــاريَّةٌ قَصـبَا

---

(١) ديوان ذي الرمة ج ٣، ص ١٦٦٧، والأهاضيب: الأمطار، واحدها أهضوبة والحبال: حبال الرمل. وأعرافها: أعاليها. يريد رمال الأعالي. والأعافر: الحمر، واحدها أعفر، من العفرة ، وهي لون التراب والرمل الضارب إلى الحمرة. الحرجف: الريح الشديدة الباردة. والسنن: الإسم من استنت الريح، إذا اسرعت واشتد هبوبها. والأعاص: جمع إعصار، وهو التراب والعجاج يرتفع مع الرياح. وأجفت به: أي طيرته وأقبلت به. والدقعاء : التراب والمعا وقراقر: موضعان. والسوافي: التي تسفي التراب. واللقاح: جمع لقحة، وهي الناقة التي وضعت جنينا. والقاربات: التي قرين الماء. والعواشر: التي ترد الماء العشر، أي في اليوم العاشر من شربها.

(٢) انظر الأزمنة والأنواء، الأجدابي، ص ١١٨.

(٣) ديوان عبيد بن الأبرص، ص ٤٦ – ٤٧،،المرتفقِ: ماءٌ راكدٌ قد حبسه شيء يرتفقُ به. والمنطاح: سائلٌ لم يكن له ما يحبسه فسال. ومكان مرتفق ومنطاح فيه.

(٤) قصائد جاهلية نادرة، يحي الجبوري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٢ ،١٩٨٨ ص ١٨٢

تَـحتَهُ ريــحٌ يمــانيـــةٌ فَتُثـــيرُ وادِقـــاً هَدِبــا
فَتسُــحُّ المـــاءَ ما سكنَت فَإِذا هاجَت له اضـطَرَبا

وتسمى ريح الجنوب باللواقح، وهي التي ذكرها الله سبحانه وتعالى في سورة الحجر، إذ يقول: ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾[١] تلقح السحاب فتدر ماء ، وتلقح الشجر فتتفتح أوراقها وأزهارها[٢]

ويقول الرسول ﷺ [٣]: " مَا هَبَّتْ جَنُوبٌ إلا أَسَالَتْ وَادِيًا "، فهذه الريح دالة على الخير والرحمة والبشرى، قال الطرماح بن حكيم[٤] :

قلق لأفنان الرّيا ... ح للاقح منها وحائل

ريح الصَّبَا: وتسمى ريح القبول وتأتي من مطلع الشمس من مطلع الثريا إلى بنات نعش وهي الريح الربيعية التي تصبو إليها النفس لطيب نسيمها ولذلك سميت بريح الصبا، وهي ريح نبي الله سليمان عليه السلام التي سخرها الله تعالى له، وقال ﷺ "نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور"[٥] وقال امرؤ القيس[٦]:

إذا التفتت نحوي تضوّع ريحُها نسيمَ الصَّبا جاءت بريا القرنفُلِ

وقال عبيد بن الأبرص[٧] :

كَأنّ الصَّبَا جاءتْ بِرِيحِ لَطِيمَةٍ مِنَ المِسْكِ لا تُسطاعُ بالثّمن الغالي

وقال النابغة[٨] :

ظَــلَلنا بِبَرقـــاءِ اللُهَـيمِ تَلُفُـتّا قَبولٌ نَكـادُ مِن ظِــلالَتِها نُمــسي

---

(١) سورة الحجر الآية ٢٢

(٢) انظر تفسير القرآن العظيم، محمد حسين شمس الدين ابن كثير، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٩هـ ، ص ٤٥٥-٤٥٦

(٣) سنن البيهقي الكبرى، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى البيهقي، تحقيق : محمد عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز، مكة، الجزء ٢، ١٩٩٤م، ص ٣٦٤

(٤) ديوان الطرماح، تحقيق عزة حسن، مطبوعات مديرية إحياء التراث، دمشق، ١٩٦٨ م، ص ٤١٢

(٥) انظر نهاية الأرب في فنون الأدب، النويري، ج ٣، ص ٩٧

(٦)ديوان امرئ القيس، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ط ٤، ١٩٨٤م ص١٥

(٧) ديوان عبيد بن الأبرص، ص ١٠٧

(٨) ديوان النابغة، ص ١٦٣

ريح الدَّبُورُ: هي ريح تأتي من دبر الكعبة، ولهذا سميت دبورا، وتأتي في الشتاء والصيف وهي قليلة الهبوب وإذا هبت فإنها تيبس الأرض وسحابها لا مطر فيه[١]. وهي أقل الرياح ذكراً في الشعر الجاهلي[٢] ، قال عبد قيس بن خفاف البرجمي[٣]:

كماءِ الغَدِيرِ زَفَتْه الدَّبُورُ يَجُرُّ المُدَجَّجُ مِنها فُضُولا

فالشاعر هنا يشبه درعه في صفائها بماء الغدير الذي تصفقه ريح الدبور فتكدره. وقال الأعشى مادحا هوذة بن علي الحنفي واصفا إبله[٤]:

إذا ازْدَحَمَتْ في المَكَانِ المَضِيـ قِ، حَتّ التّزَاحُمُ مِنها القَتِيرَا

لــهَا جَرَسٌ كَحَفِـيفِ الحَصــا دِ، صَادَفَ باللّيلِ رِيحاً دَبُوراً

والعرب تكره الدبور؛ لأنها تجفل السحاب ويكون فيها الغبرة فتقتلع البيوت وتأتي على الزروع[٥] ، قال رجل يهجو آخر[٦]:

لـو كنت ريحا كانت الدبورا او كنت غيما لم تكن مطيرا

وقال عدي بن زيد في قصيدة كتبها لأبي قابوس لما حبسه[٧] :

ثم صــارُوا كأنهُم وَرَقٌ جَفَّ فأَلوَت به الصَّــبَا والدَّبور

ريح الشمال: وهي ريح شتوية تهب من ناحية القطب، والشمال ريح تهب من قبل الشام عن يسار القبلة التي تأتي من قبل الحجر، ومهبها من بنات نعش إلى مسقط النسر الطائر[٨].

---

(١) انظر الأزمنة والأمكنة، ج٢، ص ٧٤

(٢) الطبيعة في الشعر الجاهلي، د. نوري حمودي القيسي، دار الإرشاد للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٠، ٥٧

(٣) المفضليات، المفضل بن محمد بن يعلى بن سالم الضبي، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر و عبد السلام محمد هارون، دار المعارف – القاهرة، بدون، ط ٦، ص ٣٨٦

(٤) ديوان الأعشى، ميمون بن قيس، شرح محمد حسن، مكتبة الآداب، الجماميز، بدون، ص ٩٩

(٥) الكامل في اللغة والأدب، أبو العباس محمد بين يزيد المبرد، مكتبة المعارف، بيروت، بدون، ج١، ص ٦٤

(٦) المصدر نفسه، ص٦٨

(٧) ديوان عدي بن زيد العبادي، جمعه وحققه محمد جبار المعيبد، دار الجمهورية للنشر والطبع، بغداد، ١٩٦٥، ص ٩٠

(٨) لسان العرب، ابن منظور، مادة شمل.

وهي أكثر الرياح ذكرا في الشعر الجاهلي ويرى نصرت عبدالرحمن أنها تكاد تبلغ مقارنة بصور الرياح الآخرى ما نسبته ٤٠%[١]. وهي في العادة ريح باردة جافة وتهب على الحجاز، بعد أن تكون قد اجتازت هضاب الاناضول المغطاة بالثلوج من مرتفعات سورية، ولذلك عرفت بالشامية[٢]. وكانت مكروهة لما يصحبها من برد ولأنها تذهب بالغيم (السحاب) والخصب[٣]، قال الجوهري[٤]:"والشَمالُ: الريحُ التي تهُبُّ من ناحية القطب. وفيها خمس لغات: شَمْلٌ بالتسكين، وشَمَل بالتحريك، وشَمالٌ، وشَمْأَلٌ مهموز، وشأمل مقلوب منه والجمع شمالات"، قال جذيمة الأبرش:

رُبَّمَــا أَوْفَيْـتُ فِــي عَلَــمٍ تَرْفَــعَنْ ثَوْبِــي شَمَــالاَتُ

وقد تجمع على شمائل قال أبو خراش:

تكاد يـداه تُسْلِــمانِ رداءه من الجودِ لَمَّا اسْتَقْبَلَتْهُ الشَمائِلُ

ويقال:"غدير مشمول بمعنى شملته الريح فبرد ماؤه[٥]"، قال كعب بن زهير[٦]:

تجــلُو عـوارضَ ذِي ظَلْــمٍ إذا ابتسـمتْ كــــأنَّهُ مَنْـهَلٌ بالــراحِ معــلولُ

شُجّـَتْ بــذي شَبِمٍ مــنْ مــاءِ محــــنيَةٍ صافٍ بأبطحَ أضحَى وهْوَ مشمولُ

---

(١) انظر الصورة الفنية في الشعر الجاهلي ، نصرت عبد الرحمن ، مكتبة الأقصى ، عمان ، ط٢، ١٩٨٢م ، ص ٦٩

(٢) انظر أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، محمد بن أحمد المقدسي ، ص ٧٩

(٣) انظر معجم البلدان ، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٩٣ م ، ج٢ ، ص ٢٢٩

(٤) انظر الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي ، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار ، دار العلم للملايين – بيروت ، ط ٤ ، ١٩٨٧م ، ص ١٧٣٩-١٧٤٠

(٥) العين ، الخليل بن أحمد الفراهيدي ، ص ٢٦٥

(٦) شرح ديوان كعب بن زهير ، صنعة : الامام ابي سعيد بن الحسن بن الحسين بن عبيد الله السكري ، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية ، القاهرة ، ط ٣ ، ٢٠٠٢ ، ص٧

هذه الريح يشتد هبوبها بالنار فإذا كان الليل لانت وسكنت بخلاف ريح الجنوب التي تهب في الليل، ويروى: أنّ الجنوب قالت للشمال : إن لي عليك فضلا ، أنا أسري ، وأنت لا تسرين . فقالت الشمال : الحرة لا تسري[١].

فهذه الريح تذم لأنها تقشع الغيم وتجيء بالبرد[٢] ، قال النابغة الذبياني[٣]:

أَسْرَتْ عَلَيْهِ مِنْ الْجَوْزَاء سَارِيَة تُزْجِي الشَّمَال عَلَيْهِ جَامِد الْبَرَد

وكذلك فإنها تحمد لأنها تمسك الثرى وتصاحب الضباب فتصبح الأرض كأنها ممطورة وتصبح غصون الأشجار نظيفة[٤]وتصلب الأبدان، وتصح الأدمغة، وتحسن اللون، وتصفي الحواس، وتقوي الشهوة والحركة، وقيل : إذا هبت الشمال برد الخاتم في إصبعه واتسع لانضمام البدن بها[٥] ، وقالت وَجِيهَة بنت أَوْس الضَّبِّيَّة[٦]:

فَلَوْ أَنَّ رِيحاً بَلَّغَتْ وَحْيَ مُرْسِلٍ حَفِيٍّ لناجَيْتُ الجَنُوبَ على النَّـقْبِ

وقلتُ لهـــا: أَدِّي إليــهمْ تَحِيَّتِي ولا تَخْلِطِيها، طالَ سَعْدُكِ، بالتُّرْبِ

فإِنّي إذا هَبَّتْ شَمالاً ســأَلْتُـها هلِ ازْدادَ صَدَّاحُ النُّمَيْرَةِ من قُرْبِ

فقد شبهت هنا ريح الجنوب التي تهب من نحو أرضها باتجاه ديار حبيبها برسولها إليه، وشبهت ريح الشمال التي تهب من ناحية أرض الحبيب باتجاه ديارها برسوله إليها، فتسأله عن أخبار الحبيب.

---

(١) انظر الأزمنة والأنواء، أبي إسحاق إبراهيم بن إسماعيل الأجدابي، تحقيق الدكتور عزة حسن، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط ، المغرب، ٢٠٠٦، ط٢ . ص ١١٩

(٢)الأنواء في مواسم العرب، ابن قتيبة ص ١١٦

(٣) ديوان النابغة الذبياني، ص ١٨

(٤) انظر الأنواء في مواسم العرب، ابن قتيبة ص ١١٦

(٥) انظر مروج الذهب ومعادن الجوهر، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي، مراجعة كمال حسن مرعي، المكتبة العصرية، بيروت، ط ١، ٢٠٠٥ ، ص ١٨٠

(٦) ديوان الحماسة، حبيب بن أوس الطائي أبو تمام، تحقيق أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٨، ص ٢٧٧-٢٧٨

ومن الأسماء التي أطلقت أيضًا على ريح الشمال أُمُّ مِرْزَم، قال صخر الغي يهجو أبا المثلم[١]:

إذا هــوَ أَمْسَى بالحــَلاءةِ شَــاتِياً تُقَشِّــرُ أَعْلــى أنْــفِهِ أُمُّ مِــرْزَمِ

وقد يصاحب برد هذه الريح الندى، قال بشر بن أبي خازم[٢]:

وهَبَّــتِ الشَــمْأَلُ البـَلِيلُ وإِذْ باتَ كَمِــيعُ الفَتاةِ مُلْتــَفِعا

وتُسمى أيضًا ريح الحرجف التي من شدتها تسقط أوراق الأشجار على البيوت، كما وصفها المُتَنَخِّلُ الهُذَلِيّ[٣]:

إذا ما الحَرجَفِ النَكباءُ تَرمي بُيوتَ الحَيِّ بِالوَرَقِ السِقاطِ

وهذه الريح وما تحمله من أوراق أشجار قد تكون محملة بالحصى، قال النابغة الذبياني[٤]:

أقوى ، وأقفَرَ من نُعمٍ، وغيّرَهَ هُوجُ الرّياحِ بها والتُّربُ، مَوّارُ

فهذه الريح تشتد ببرودتها فتفزع الإنسان والحيوان، قال لبيد بن ربيعة يصف ناقة أفزعها شدة برد ريح الشمال[٥]:

تَنْجُو نَجَاءَ ظَلِيمِ الجَوِّ أفْزَعَهُ ريحُ الشَّمَالِ وشَفّانٌ لــها دِرَرُ
باتَت إلى دَفِّ أرْطاةٍ تحفِّرُهُ في نَفْسها من حَبيبٍ فاقِدٍ ذكرُ

ونجد أن هذا الوصف قد تكرر عند المسيَّب بن عَلَس واصفا الإبل التي لا تبارح مباركها من شدة الريح الباردة، فقال[٦]:

وإذا تَهِيجُ الرِّيــحُ مِن صُرَّادِها ثَلْجاً يُنِيــخُ النِّيبَ بالجَعْجَاعِ

---

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين، أَبُو سَعِيدٍ الحسن بن الحسين السُّكَّرِيّ، مكتبة دار العروبة – مطبعة دار المدني، تحقيق: أحمد عبد الستار فراج، مراجعة محمود محمد شاكر، ط١، بدون، ج١، ص ٢٦٦

(٢) ديوان بشر بن أبي خازم، ص ١٢٥

(٣)جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام، أبو زيد محمد بن الخطاب القرشي، تحقيق: علي محمد البجاوي، نهضة مصر للطباعة والنشر، ١٩٨١ ، ص ٤٨١

(٤) ديوان النابغة الذبياني، ص ٢٠٢

(٥) ديوان لبيد بن ربيعة، ص ٥٩

(٦) المفضليات، ص ٩٧

فهذه الريح من شدة بردها تؤثر حتى على النوق الحوامل، فتجعلهن يبركن من شدة البرد، قال لبيد بن ربيعة(١):

وَيَــوْمٍ هَــوَادي أمْـــــرِهِ لِشَمَــالِهِ يهتكُ أخطالَ الطرافِ المطنّبِ
يُنيخُ المَخاضَ البُرْكَ والشَّمسُ حيَّةٌ إذا ذكــيتْ نيــرانُها لــمْ تلهبِ
ذعرتُ قلاصَ الثلجِ تحتَ ظلالــهِ بمَثْنَى الأيادي والمنيحِ الـمُعَقَّبِ

بل قد بالغ أحدهم في وصف شدة برودتها حيث إنها وصلت ببرودتها حدًا أنها جعلت حمارًا يصاب بالقشعريرة في إبطيه وهما في العادة من الأماكن التي لا يمكن أن تصلهما القشعريرة، حيث قال أبو ذؤيب الهذلي(٢):

مُسْتَقْبِلَ الرّيحِ تَجْرِي فَوْقَ مَنْسِجِه إذا يُراعُ اقْشَعَرَّ الكَشْحُ والعَضُدُ

ووصف صخر الغي نفسه بنمر شجاع استطاع ورود الماء واستقبال الريح الباردة(٣):

وَمــاءٍ وَرَدتُ عَلـــــى زَورَةٍ كَمَشيِ السَبَنتي يَراحُ الشَفيفا
فَخَضخَضتُ صُفنِيَ في جَمّهِ خِيـــــاضَ المُدابِرِ قِدحاً عَطوفا
فَلَمــّا جَـزَمتُ بِـــهِ قِربـَتي تَيَمَّمـــتُ أَطــرِقَةً أَو خَـــليفا

---

(١) نفس المصدر، ص ٣١

(٢) انظر كتاب شرح أشعار الهذليين، السكري، ج١، ص ٥٨ ومستقبل الريح هو الحمار، الكشح: الخاصرة.

(٣) نفس المصدر، ص ٣٠٠-٣٠١ والزورة: أزورار، السبنتي: النمر، يراح: يجد الريح، الشفيف: المطر المصحوب بالبرد، الصفن: الأنية التي يستقى بها، المدابر: الذي يدابر صاحبه فيقاتله، العطوف: الذي يرد مرة بعد مرة، جزمت: ملأت، الخليف: الطريق وراء الجبل أو وراء الوادي، تيممت: قصدت، أطرقة: جمع طريق.

المبحث الثاني

الشتاء والسحاب

السحب: مفردها سحابة، وهي: الغيم سواء أكان فيه ماء أم لم يكن، وتجمع على سحاب وسحائب، وسميت بالسحابة، لانسحابها في الهواء على نحو سحبت الشيء أسحبه سحبا[١]." وهو الأجرام التي تحمل المطر بين السماء والأرض ينشئها الله سبحانه وتعالى كما أخبر بقوله:﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾[٢] وذهب العلماء إلى أنه بخار متصاعد من الأرض مرتفع من الطبقة الحارة إلى الطبقة الباردة فيثقل ويتكاثف وينعقد فيصير سحابا"[٣]. ويثبت العلم الحديث ذلك من حيث إن السحاب يتكون من بخار الماء كما أن الأجسام الصغيرة من الأحماض والأملاح ودقائق الغبار المنتشرة في الهواء والتي تسمى نويات التكاثف تجذب جزيئات بخار الماء وتجتمع فوقها مكونة قطرات صغيرة من الماء. والهواء الحار الحامل لبخار الماء يبرد عندما يرتفع وتتكاثف أبخرته فتحملها الرياح وتجمعها وتلقحها[٤].ويشير القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة العلمية، يقول الله عز وجل: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا فَالْحَامِلاتِ وِقْرًا﴾[٥]، ويقول ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾[٦] ويقول أيضا:﴿حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ﴾[٧]. وقد ذكر القرآن الكريم بعض أنواع السحاب ودعا لأخذ العبر فذكر السحاب، يقول تعالى :﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[٨]، ويقول :﴿وترى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ

---

(١) انظر لسان العرب، ابن منظور، ج١، ص٤٦١

(٢) سورة الرعد، الآية ١٢.

(٣) صبح الأعشى، أبو العباس أحمد القلقشندي، المطبعة الأميرية، القاهرة ،ج٢، ١٩١٣، ص ١٦٨

(٤) انظر ظواهر جغرافية في ضوء القرآن الكريم، حسن شحادة النصيرات، عمان، ط٢، ١٦٦

(٥) سورة الحجر الآية ٢٢

(٦) سورة الأعراف الآية ٥٧

(٧) سورة البقرة الآية ١٦٤

(٨) سورة الرعد الآية ١٢

كُلَّ شَيْءٍ﴾[١] ، وذكر الرُكام إذ يقول:﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا ﴾[٢] ويقول:﴿ وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ﴾[٣] .

وذكر المُزْن إذ يقول:﴿ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴾[٤] وكذلك ذكر الغَمام فيقول:﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ﴾[٥] وذكر المُعْصِرات فيقول:

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا﴾[٦] وذكر السماء (بمعنى السحاب) فيقول: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾[٧] . وعند مطالعة السيرة النبوية والأحاديث الشريفة نجد أنها حافلة بذكر السحاب وما يرتبط به من أدعية وأحكام فقهية قالت أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر[٨]: " ما رأيتُ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ضَاحِكًا حتى أَرَى منه لَهَوَاتِهِ ، إنمَّا كان يبتَسِمُ . قالت : وكان إذا رأَى غَيْمًا أو رِيحًا عُرِفَ في وَجْهِهِ ، قالتْ : يا رسولَ اللهِ ، إنَّ الناسَ إذَا رأَوْا الغيمَ فرِحوا، رجاءَ أنْ يكونَ فيهِ المطَرُ، وأَرَاكَ إذا رأيتَهُ عُرِفَ في وَجْهِكَ الكراهيَةُ ؟ فقالَ: (يا عائشةُ ، ما يُؤَمِّنّني أن يكونَ فيهِ عذابٌ؟ عُذِّبَ قومٌ بالريحِ ، وقد رأَى قومٌ العذابَ ، فقالوا : هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا). وتقول أيضا[٩]: "كانَ إذا رأى سحابًا مقبلًا من أفُقٍ منَ الآفاقِ، ترَكَ ما هوَ فيهِ وإن كانَ في صلاتِهِ، حتَّى يستقبلَهُ، فيقولُ: "اللَّهمَّ إنَّا نعوذُ بِكَ من شرِّ ما أُرْسِلَ بهِ"، فإن أمطرَ قالَ:" اللَّهمَّ صيِّبًا نافعًا "مرَّتينِ، أو ثلاثًا، فإن كشفَهُ اللَّهُ ولم يمطِرْ حمدَ اللَّهَ علَى ذلِكَ " وروى عن أنس أنه قال[١٠]: "إنَّ رجلًا دخَلَ المسجِدَ يومَ الجمعَةِ، من بابٍ كانَ نحوَ دارِ القضاءِ، ورسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلمَ قائِمٌ يخطُبُ، فاستقبَلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلمَ قائمًا، ثم قالَ : يا رسولَ اللهِ، هلكَتْ الأموالُ وانقطَعَتْ السبلُ، فادْعُ اللهَ يغِيثُنا .

---

(١) سورة النمل الآية ٨٨

(٢) سورة النور الآية ٤٣

(٣) سورة النور الآية ٤٤

(٤) سورة الواقعة الآية ٦٩

(٥) سورة البقرة الآية ٥٧

(٦) سورة النبأ، الآية ١٤

(٧) سورة البقرة الآية ١٩

(٨) صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، دار ابن كثير، دمشق ، ط١، ٢٠٠٢، ص ١٢١٩.

(٩) صحيح ابن ماجه، ص ٢٧٠

(١٠) صحيح البخاري، ص ٢٤٦

فرفَعَ رسولُ اللهِ صلَى اللهُ عليهِ وسلمَ يدَيهِ ، ثمَّ قالَ: "اللهمَّ أغَثْنَا ، اللهمَّ أغِثْنَا ، اللهمَّ أغِثْنَا" . "قالَ أنسٌ: ولا واللهِ، ما نَرَى في السماءِ من سحابٍ، ولا قَزَعَةٍ، وما بينَنَا وبينَ سَلْعٍ من بيتٍ ولا دَارٍ. قالَ: فطَلَعَت من ورائِهِ سحَابَةٌ مثلُ التُّرْسِ، فلمَّا تَوَسَّطَتْ السماءَ انتَشَرَت ثم أمْطَرَتْ. فلا واللهِ ما رأينَا الشمسَ ستًّا. ثمَّ دَخَلَ رجلٌ من ذلكَ البابِ في الجمعَةِ – يعني الثَّانِيَةَ – ورسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلمَ قائِمٌ يخْطُبُ، فاسْتَقْبَلَهُ قائِمًا، فقالَ: يا رسولَ اللهِ، هلَكتْ الأموالُ، وانقَطَعَتْ السُّبُلُ، فادْعُ اللهَ يمسِكُهَا عنَّا. قالَ: فرفَعَ رسولُ اللهِ يدَيهِ، ثمَّ قالَ: "اللهمَّ حوالَيْنَا ولا عَلَينَا ، اللهمَّ علَى الآكَامِ والظِّرَابِ ، وبطونِ الأوديةِ ومنَابِتِ الشجَرِ." قالَ : فأَقْلَعَتْ ، وخَرَجْنَا نمشِي في الشمسِ . قالَ شَرِيكٌ : فسألتُ أنسَ بنَ مالكٍ:أهوَ الرجلُ الأوَّلُ؟ فقالَ: لا أدرِي". كما أن أمثال العرب لم تخل من ألفاظ السحاب ، قالت العرب[١]: " أَرِينِهَا نَمِرَةً أُرِكْهَا مَطِرَةً " والنَّمِرة هي القطع الصغيرة من السحاب والمتقاربة ، ويضرب في الأمر يتيقن وقوعه إذا لاحت مخايله وتباشيره . وقالت[٢]: " أرَى خَالاً وَلاَ أرَى مَطَرَا " و الخَالُ هو السحاب يُرْجى منه المطر و يضرب للكثير المالِ لا يُصَاب منه خير. وقالت[٣]: " جُرُفٌ مُنْهَالٌ، وَسَحَابٌ مُنْجَالٌ" والْجُرُف: ما تجرّفته السيولُ من الأودية، والمُنْهال: المُنْهار، يقال: هُلْتَه فانهال، أي صببته فانْصَبَّ، والسحاب المنجال: المنكَشِف، يراد أنه لا يطمع في خيره. وقالت[٤]:"جَلَبَتْ جَلَبَةً ثُمَّ أقْلَعَتْ" أي صاحت صيحة ثم أمسكت ويضرب للجبان الذي يتوعد ثم يسكت. وقالت[٥]" عَسَ البَارِقَة لاَ تُخْلِفُ " والبارقة هي السحاب ذات البرق ويضرب في تَعليقْ الرجاء بالإحسان. وقالت[٦]: " غَمَامُ أَرْضٍ جَادَ آخرينَ" و يضرب لمن يُعطي الأبَاعِدَ ويترك الأقارب. وقالت[٧]: " لاَ يَضُرُّ السَّحابَ نُبَاحُ الكِلاَبِ" ويضرب لمن يَنَالُ من إنسانٍ بما لا يضره. وقالت[٨]: " لَيْسَ

---

(١) مجمع الأمثال، الإمام أبو الفضل الميداني، تحقيق، محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السنة المحمدية، ج١، ١٩٥٥، ص ١٨٩.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٠٤

(٣) المصدر السابق، ص ١٧٧

(٤) المصدر السابق، ص ١٦٠

(٥) مجمع الأمثال للميداني، ج٢، ص ٢٨

(٦) المصدر السابق، ص ٦٢

(٧) المصدر السابق، ص٢١٥

(٨) مجمع الأمثال للميداني، ج٢، ص٢٠٦

عَلَى الشَّرْقِ طَخَاءٌ يَحْجُبُ" و الشَّرْقُ هو اسم للشمس والطَّخَاء هو السحاب المرتفع ويضرب في الأمر المشهور الذي لا يَخْفَى على أحد.

ويرى الجاهليون أن الرياح هي التي تنشئ السحاب فتحمله وتسوقه، قال أبو ذؤيب الهذلي(١):

سَقــى أُمَّ عَمروٍ كُلَّ آخِرِ لَيلَــةٍ حَنــاتِــمُ ســودٌ ماؤُهُــنَّ ثَجيجُ
تَرَوَّت بِماءِ البَحرِ ثُمَّ تَنَصَّــبَت عَلــى حَبَشِيّــاتٍ لَهُــنَّ نَئيــجُ
إِذا هَمَّ بِالإِقلاعِ هَبَّت لَهُ الصَبا فَأَعقَــبَ نَشءٌ بَعــدَها وَخُروجُ
يُضيءُ سَنــاهُ راتِقاً مُتَكَــشِّفاً أَغَــر كَمِصبــاحِ اليَهــودِ دَلوجُ
كَما نَوَّرَ المِصباحُ لِلعُجمِ أَمرَهُم بُعَــيدَ رُقــادِ النــائِميــنَ عَريجُ
أَرِقــتُ لَــهُ ذاتَ العــشاءِ كَأَنَّــهُ مَخاريقُ يُدعى وَسطَهُنَّ خَريجُ
تُكَــرَكِــرُهُ نَــجــدِيَّــةٌ وَتَــمُــدُّهُ يَمــانِيَــةٌ فَــوقَ البِحارِ مَعوجُ

فهذه السحب السود الممتلئة بالماء بسبب بخار الماء حملته رياح الحبشة وقد ساندتها ريح الصبا بسحب جديدة، وفرقت عنها سحبا أخرى، وكأن السماء تحتفي بهذه السحب فيضيء البرق جوانبها، فريح الصبا النجدية تقلب السحب وتحافظ عليها، بينما الريح اليمانية تساندها بسحب جديدة. وقال امرؤ القيس واصفا السحب(٢):

ديمةٌ هطلاءُ فيها وطفٌ طبــقَ الأرض تحرَّى وتدرّ
تخرجُ الودّ إذا ما أشجذت وتورايــه إذا مــا تشتكــر
وَتَرَى الضَّبَّ خَفِيفاً مَاهِراً ثانيــاً برثنــهُ مــا ينعفــر
وَتَرَى الشَّجْرَاءَ في رَيِّقِــهِ كَرُؤوسٍ قُطِعَتْ فيها الخُمُرْ
سَاعَـةً ثُمّ انْتَحَاهَـا وَابِـلٌ ساقط الأكناف واهٍ منهمر

---

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين، أَبُو سَعِيدٍ الحسن بن الحسين السُّكَّرِيّ ، ص ٢٨ – ٣١ وحناتم " جمع حنتمة، وأصلها الجرة الخضراء، وأراد هنا السحائب، شبهها بالجرار " سود " جمع سوداء، وأراد أنها ممتلئة بالماء " ثجيج " سائل منصب " ترفعت " تصاعدت، وتباعدت " لجج " جمع لجة – بزنة غرفة وغرف – واللجة: معظم الماء، " نئيج " هو الصوت العالي المرتفع.

(٢) ديوان امرئ القيس ، ص ١٤٤،١٤٥ والديمة هي المطر الدائم، الهطلاء: الكثيرة الهطل، الوطف: الدنو من الأرض، ماهرا: حاذقا بالعدو، ما ينعفر: لا يصيبه التراب، الشجراء: الأرض كثيرة الشجر، الخمر: العمائم.

رَاحَ تَمْرِيهِ الصَّبَا ثمّ انتَحَى فيه شؤبوبُ جنوبٍ منفجر

هذه السحابة الدائمة المطر والدانية من الأرض والتي تعمها بأمطارها فتخفي الجبال فإذا ما توقف ماؤها انكشفت الجبال وبانت، وأن الضَّبَّ حاذقا بعدوه خفيفا لما يرى من كثرة الأمطار وأنه يثني أصابعه بسباحته في هذه الأمطار الكثيرة فلا تصيب الأرض وتتعفر، وترى الأشجار الكثيفة، وقد غمرتها المياه فلا يكاد يُرى منها سوى أعاليها، وأن هذا السحاب متشقق ضعيف بسبب الأمطار الغزيرة النازلة منه فلا يحبسها شيء، وأن هذه الأمطار إنما عادت بفعل ريح الصبا التي تحركها وتديرها وهي ريح الخير. وها هو عبيد بن الأبرص يصف سحابا أسود(١):

أَرِقتُ لِضَوءِ بَرقٍ في نَشاصِ تَــلَألَأَ فــي مُـمَلَّأَةٍ غِصــــاصِ
لَواقِحَ دُلَّحٍ بِالمــاءِ سُحــمٍ تَثُجُّ الماءَ مِن خَلَلِ الخَصــاصِ
سَحابٍ ذاتِ أَسحَمَ مُكفَهِرٍّ تُوَحّي الأَرضَ قَطراً ذا اِفتِحاصِ
تَأَلَّفَ فَاِستَوى طَبَقاً دِكاكاً مُحيــلاً دونَ مَثعَبِــهِ نَــواصِ
كَلَيلٍ مُظلِمِ الحَجَراتِ داجٍ بَهيــــمٍ أَو كَبَحــرٍ ذي بَواصِ

فقد ذهب عن عبيد النوم لكثرة لمعان البرق في سحب كثيفة قد غصت بالماء، وهذه السحب قد لقحت من الريح فأصبحت سوداء مظلمة تشبه ظلام الليل ومثقلة بالماء، فهطل ماؤها بغزارة شديدة كاشفا تراب الأرض، لدرجة أن الأرض لم تستوعبه لكثرته فأصبح يجري على وجهها. ووصف حميد بن ثور الهلالي سحابا فقال(٢):

---

(١) ديوان عبيد بن الأبرص ، ٧٢ و النشاص: السحاب المرتفع بعضه فوق البعض دلح: سحب كثيرة الماء، السحم: السود، الخصاص:خروق الغيم ، ذا افتحاص:اي ان المطر لقوته يقلب التراب و يكشفه، الدكاك: المستوية، المثعب : مجرى الماء، نواص/ناوصه:ناوشه، ذي بواص: متغير اللون.

(٢) ديوان حميد بن ثور الهلالي، صنعه عبد العزيز الميمني، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٥١ ، ص ١٣٥، وأغر أي سحاب فيه برق، بكر أي لم يمطر قبل ذلك، توسن بالخميلة عوناً أي طرقها ليلاً وقت الوسن أي النعاس، الخميلة رملة لينة ذات شج، والعون جمع عوان، وهي في النساء التي كان لها زوج، وهنا هي الأرض التي أصابها المطر قبل، على التشبيه، وقوله: متسنم سنماتها أي طالع على الأكام والتلال، وأصله في الجمل يتسنم الناقة أي يعلو عليها، سَنمة أي عظيمة السنام، متبجس :متكبر، بالهدر أي رعده يملأ أنفساً وعيوناً عجباً به أو رعباً منه، قوله: لقح العجاف أي الأرضون المجدبة حملت به الماء فأنبتت العشب، وذلك بعد تحلُّؤٍ أي امتناع من السقي لعدم المطر.

وَلقَدْ نظَرْتُ إِلَى أَغَر مُشَهَّـــرٍ بكْرٍ توَسَّنَ بِالْخَمِيلَةِ عُونَا
مُتَسَنِّـــمٍ سَنَمَاتِـهَـــا مُتَفـــجِّسٍ بِالْهَدْرِ يَمْلأُ أَنْفُسًا وَعُيُونَا
بِتْنَـــا نُرَاقِبُـــهُ وَبَـــاتَ يَلُفُّنَـــا عَمِدَ السَّنَامِ مُقَدِّمًا عُثْنُونَا
لَقِحَ الْعِجَـافُ لَـــهُ لِسَابِعِ سَبْعَـةٍ وَشَرِبْنَ بَعْدَ تَحَـلُّؤٍ فَرَوِينَا

فالشاعر هنا وصف السحاب الأبيض البكر الذي لم يمطر قبل ذلك وقد طرق رملة أرض كثيرة الأشجار ليلا عند الوسن (وقت اختلاط النعاس بعيون الناس) وهو سحاب متراكم بعضه فوق بعض يخيل للرائي كأنه يعلو التلال والآكام كما يعلو البعير أسنمة الإبل، ثم يهدر وقد قصد هنا رعد السحاب كصوت البعير، وأنّ الأرض قد لقحت من بعد نزول المطر بسبعة أيام وكأنها قد حملت غيث السحاب في رحمها سبعًا فتمخضت عن عشب و كلأ وفيرين.

ونجد أبا ذؤيب الهذلي وصف السحاب وما تفعله الأمطار الغزيرة بعد نزولها على الأرض[1]:

تُكَـركِـرُهُ نَجـدِيَّـةٌ وَتَـمُـدُّهُ يَمانِيَـةٌ فَوقَ البِحـارِ مَعوجُ
لَهُ هَيدَبٌ يَعلو الشِراجَ وَهَيدَبٌ مُسِفٌّ بِأَذنابِ التِلاعِ خَلـوجُ
ضَفادِعُـــهُ غَرقى رِواءٌ كَأَنَّهـا قِيانُ شُروب رَجعُهُنَّ نَشيـجُ
لِكُلِّ مَسيـلٍ مِن تِهامَـةَ بَعدَما تَقَطَّعَ أَقرانُ السَحابِ عَجيجُ
كَأَنَّ ثِقالَ المُزنِ بَينَ تُضـارِعٍ وَشامَةَ بَركٌ مِن جُذامَ لَبيـجُ
فَـذلِكَ سُقيـا أُمِّ عَمـروٍ وَإِنَّنـي لِما بَذَلَت مِن سَيبِها لَبَهيـجُ

فالسحاب عنده تنشئه الرياح النجدية السريعة التي تكنس الأرض ، وهو يتدلى على مسايل الأودية وأواخر التلاع كأنه هدب ثوب وهذه دلالة واضحة على المطر ثم انتقل مصورًا كثرة المياه بغرق الضفادع التي في أصلها لا تغرق أبدًا وقد شبه صوتها بالقيان إذا أرجعن أنفاسهن إلى أجوافهن، وأنَّ تفرق السحاب في الوادي كناقة افترقت عن باقي النوق حين حان مخاضها. ويبدو السحاب وهو على الجبل كالإبل الباركة، كناية عن ثباته، ويشير إلى أنَّ هذه السُقيا قد جاءت بالخير والفرح وما هي إلا دعوة أم عمرو.

قال عنترة مصورًا السحاب الأبيض الماطر قد ترك أثره على الأرض[2]:

---

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين ، أَبُو سَعِيدٍ الحسن بن الحسين السُّكَّرِيّ، ص ١٣١

(٢) شرح ديوان عنترة ، الخطيب التبريزي، تحقيق مجيد طراد، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٢ ، ص ١٥٧، ١٥٨

جَادَتْ علَيهـــا كُلُّ عيْنٍ ثَرَّةٍ فَتَرَكْـــنَ كُـلَّ حدِيقـــةٍ كَالدِّرْهَـمِ
سَحّاً وتسْكاباً فَكـلُّ عَشِيَّـــةٍ يَجْـري علَيهـا المَـاءُ لم يَتَصَرَّمِ
فَتَرى الذُّبَابَ بها يُغَنِّي وَحْدَهُ هَزْجـــاً كفِعْـل الشَّـاربِ المُتَرَنّـمِ
غَرداً يَسِـــنُّ ذِراعَـهُ بذِراعِـهْ فِعْلَ المُكِـبِّ علـــى الزِّنَـادِ الأَجْذَمِ

فعنترة هنا يصف هذه السحابة التي جاءت من القبلة قد جادت بأمطارها الغزيرة والتي تركت أثارها المستديرة على الروضة، فأصبحت تلمع مثل الدرهم وهذه المطرة هي مطرة العشي والمعروفة بغزارتها، وهذه الروضة كثيرة العشب، وقد ألفها الذباب وأصبح يغني بها بصوت متتابع مثل صوت الشارب إذا ترنم يرفع صوته تارة ويخفضه تارة أخرى وهذا الذباب يحك ذراعه بذراعه كإنسان مقطوع الكفين.

وللشاعر الجاهلي وقفات مع تلك السحب في فصل الشتاء، قال عمرو بن الأهتم[1]:

ومُسْتنْبِحٍ بعدَ الهُدُوءِ دَعْوَتُـــهُ وقد حانَ من نَجْم الشِّتاءِ خُفُوقُ
يُعالِجُ عِرْنيناً منَ اللَّيلِ بـــارداً تَلُـفُّ رِيـــاحٌ ثَوْبَـــهُ وبـرُوقُ
تَأَلَّق في عَيْنٍ منَ المُزْنِ وادِقٍ لهُ هَيْدَبٌ دَانِي السَّحَـابِ دَفُوقُ

فقد تناول الشاعر وصف السحاب بأنه كان قريبًا من الأرض ويصب ماؤه كالأهداب كما أنه وصف لقياه بضيفه وكيف أنه وقاه من قارص برد الشتاء ووفر له المأوى والغذاء، واستمتع بصحبته، والمستنبح هي كناية عن الضيف ، فإذا ظهر الضيف في جزء من الليل قريباً من مضارب القبيلة فلا بد أن تنبح الكلاب ، غير أن الأمر يمكن أن يذهب لأبعد من ذلك وهو ما يقصده صاحبنا هنا وهو إن ضل أحدهم طريقه ليلاً فإنه يبدأ بالنباح فإذا ردت عليه كلاب من أي ناحية اتجه صوبها.

وقد يرد لدى البعض ذكر السحاب بصورة المشبه به كما ورد لدى المخبَّل في قوله واصفا جيشا[2]:

وأيقنت القبائل من جـنابٍ وعامرَ أن سيمنعها نصير
أجادت وبلُ مُدْجنةٍ فدرت عليهم صوبُ سارية درورُ

---

(١) شعر الزبرقان بن بدر وعمرو بن الأهتم، تحقيق: د. سعود محمود عبد الجابر، مؤسسة الرسالة،ط ١، ١٩٨٤، ص ٩٣

(٢) ديوان الحماسة، حبيب بن أوس الطائي أبو تمام، ص ٦٤

فولَّوا تحت قطقطها سراعا تكبهــمُ المهنــدةُ الذّكــورُ

فهذا الجيش حين يقبل على أعدائه كالسحاب الذي يدر عليهم الموت والبلاء وهذه السحب تدر الدم والبرد والريح الباردة على الأعداء ثم تستقبلهم السيوف لتكبهم في مهاوي الردى.

وكذلك فإن تشبيه السحاب بالحيوانات لم يغب عن الشعراء الجاهليين، قال أبو ذؤيب الهذلي[1]:

كأن مصاعيب زب الرؤو س في دار صرم تلاقى مريحا
تغذمن في جانبيه الخبيـ ر لما وهى مزنه واستبيحا
وهى خرجه فستجيل الجها م عنه وغرم ماء صريحا
ثلاثا فلما أُسْتُجِيلَ الربا ب واستجمع الطفل فيه رشوحا
مرته النعامى فلم يعترف خلاف النعامى من الشأم ريحا
فحط من الحزن المغفرا ت والطير تلثق حتى تصيحا
كأن الظباء كشوح النسا ء يطفون فوق ذراه جنوحا
سقيت به دارها إذ نأت وصدقت الخال فينا الأنوحا

وفي هذا الموضع نجد أبا ذؤيب يصف إبلا كثيرة الشعر لا يحمل عليها شيء قد لقيت إبلا أريحت إلى مبائتها، وأن صوت رعد السحاب يشبه هدير الإبل المصاعيب المستريحة وأن الزبد الموجود في هذه الإبل الهائجة بسبب أكلها للسحاب الممتلئ وأن بياض هذا الزبد هو بياض السحاب ثم أن أبا ذؤيب قد وصف سحابا أخر وهو سحاب الجهام المعروف بمائه الصافي والمعروف بالخرج وأن هذا الجهام قد أخذ ماؤه الصافي بالقوة لمدة ثلاثة أيام . وكذلك فقد شبه السحاب المتفرق بصورة الإبل وصغارها، وأن الريح التي جلبت الريح هي ريح النعامى التي تهب من جهة الشام وهي ريح شتوية باردة، كما وصف مطر هذه السحب وكيف أنها أثرت على الحيوانات فأنزلتها من رؤوس الجبال وأثرت على الطيور فتركتها تصيح من شدة ما لاقت من هذا المطر.

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين، أَبُو سَعِيدٍ الحسن بن الحسين السُّكَّرِيّ، ص١٩٨ إلى ص٢٠١، والمصاعيب: الإبل الصعاب لا يحمل عليها، دار صرم: جماعة من الناس، زب الرؤوس: كثرة شعر الرؤوس، ثلاثا: أي مكث المطر ثلاث ليال، استجيل: استجمع، مرته: مسحته، الحُزَن: الجبال الغلاظ.

وقال عبيد بن عبد العزى السلامي[1]:

أَتَعرِفُ رَسمـــاً كَالــرِداءِ المُحَبَّــرِ بِرامَـــةَ بَينَ الهَضـــبِ وَالمُتَغَمَّرِ
جَرَت فيهِ بَعدَ الحَيِّ نَكبــاءُ زَعــزَعٌ بِهَبوَةِ جَيــلانٍ مِنَ التُربِ أَكــدَرِ
وَمُرتَجِــزٌ جَـــونٌ كَـــأَنَّ رَبابَـــهُ إِذا الريــحُ زَجَّتهُ هِضابُ المُشَقَّرِ
يَحُطُّ الوُعولَ العُصمَ مِن كُلِّ شاهِقٍ وَيَقذِفُ بِالثيــرانِ فــي المُتَحَيَــرِّ
فَلــَم يَترُكـــا إِلّا رُسومـــاً كَأَنَّهــا أَساطيرُ وَحيٍ في قَراطيسِ مُقتَرِي

شبه عبيد بن عبد العزى السلامي الرسوم بالرداء الأحمر وقد وصف فعل الرياح النكباء الشتوية بهذه الرسوم فقد حملت هذه الرياح سحابا أسودا بعضه فوق بعض وقد ملأ الأرض بالأمطار الغزيرة والسيول الجارفة. ونجد أن كثير من الشعراء قد شبهوا السحاب بالنياق وذلك لكثرة ما يحملن من المياه في بطونهن، قال أبو صخر الهذلي[2]:

فلما علا سود البصاق كفافـــــه تهيب الذرى منه بدهم مقـــــارب
فجلل ذا عير ووالى رهامـــــــه وعن مخمص الحجاج ليس بناكب
فلما علت شعرين منه قـــــوادم ووازن من أعلامها بالمناكـــــــب
مضر شآمية لينبع فالحمـــــــى ودون يمانية جبال المراكـــــــب
له ذمرات في نميس تحفـــــــه وقدامه تغشى ثنايا المناقـــــــب
يميل قفارًا لم يك السيل قبلـــــه أضر بها فيها جباب الثعالـــــب
فأصبح مأمون المناجي محـافً لا لأعراق طماح القوانس لاحـــب
فلما تغشى نقريات سحيلـــــــه ودافعه من شامه بالرواجـــــــب
ألح رجيفًا يهرب الوحش حســـه كلحة حوم المنهل المتجـــــاوب

---

(١) قصائد جاهلية نادرة، يحي الجبوري، ص ١٢٩، ورامة والهضب والمتغمر: أسماء مواضع، النكباء: الريح الناكبة التي تزعزع الأشياء، مرتجز: سحاب يتحرك ببطء شديد وذلك لكثرة المياه التي يحملها، الجون: الأسود، المتحير: مجتمع الماء.

(٢) كتاب شرح أشعار الهذليين، أَبُو سَعِيدٍ الحسن بن الحسين السُّكَّرِيّ، ج ٢ ، ص ٩٢٢، والبصاق هي الحرائر، الذرى: الأعالي، ذو عير: الجبل، مخمص: طريق، شعران: جبلان، ذمرات: أصوات، جباب الثعالب: أولادها، المناجي: المرتفع من الأرض، القوانس: الأعالي، الحنتم: الجِرار، الحواصب: التي تأتي بالتراب والحصى، العِداء: الصخر الذي يوضع على القبر.

رفعت له صوتي وأيقنت أنـــــه إزامل نجم خاله غير كـــــــاذب
وحلت عراه بين نقرى ومنشـــــد وبعج كلف الحنتم المتراكـــــــب
وقلت عسى أن يلبد اليوم ودقـه سفاة بمستن الرياح الحواصـــــب
ليروي صدى داؤود واللحد دونه وليس صدى تحت العداء بشـارب
ولكن يقر العين والنفس أن ترى بعقدته فضلات زرق دواعـــــب

هنا وصف لسير السحاب فوق الحرائر وهي تشبه الناقه الحبلى التي اقترب نتاجها فتكون عظيمة البطن وهذا السحاب قد أمطر بأمطار مستمرة على جبل عير وطريق الحجاج وأن منبع هذه السحاب هي ناحية مضر والشام وينبع والحمى وأن أمطار هذه السحاب لها صوت تحيط به جبال نميس ومقدمة هذه الأمطار بين ثنايا الجبال وقد أمالت الصخور التي تتحصن فيها أولاد الثعالب في أعالي الجبال مما يدل على قوة هذه السيول التي وصلت إلى هذا الارتفاع ثم عاد إلى وصف السحاب الكثيف وأخذ يقترب من الأرض بصوت رعده الذي يشبه صوت الإبل وتخاف منه الوحوش ، وهذا الصوت أنصت له أبو صخر ليستدل على أن هذا السحاب يحمل الأمطار الغزيرة فهو سحاب أسود كثيف ذو صوت عال فتمنى أن يصيب هذا المطر قبر أخيه داؤود وهذه من فلسفة السقيا عند العرب التي يدعون بها لموتاهم نحو «سقيا لقبرك» «سقاك الغيث» وذلك ليبقى ما حول القبر خصباً ممرعاً.

وذكر لبيد الكرم والجود من قومه إذا تجمعت الصرد وهي السحب الباردة[1]:

وَأَعْطَوْا حُقُوقاً ضُمِّنُوها وِرَاثَةً عِظَامَ الجِفَانِ والصِّيامَ الحَوَافِـلا
تُوَزِّعُ صُرّادَ الشَّمالِ جِفَانُهُـمْ إذا أصبحتْ نجدٌ تسوقُ الأفائِلا

ونجد أن طرفة ذكر السحاب الحرجف وهو السحاب البارد الذي يسقط الجليد، وأن هذا السحاب قد أجبر فحل الإبل للبحث مسرعا عن مكان الدفء، وكذلك أجبر الراعي لترك إبله؛ ليتقي برد هذا السحاب[2]:

وإنّا، إذا ما الغَيْمُ أمسى كأنّــهُ سماحيقُ ثَرْبٍ وهي حمراء حَرجَفُ
وجاءتْ بصرّادٍ كأنّ صقيعــهُ خلالَ البيوتِ والمنازلِ كرســـفُ
وجاءَ قَريعُ الشّوْلِ يَرقصُ قبلَهَا، إلى الدّفءِ، والرّاعي لها مُتحــرِّفُ

(١) ديوان لبيد بن ربيعة ، ص ١٢٠-١٢١
(٢) ديوان طرفة بن العبد، ص ١٣٦ – ١٣٧

نَزُدّ العِشارَ، المُنْقِياتِ شَظِيُّهـا، إلى الحيّ حتى يمرعَ المتصيَّـــفُ
تَبِيتُ إمَاءُ الحيّ تَطْهى قُدورَنا، ويأْوي إلينا الأشعثُ المتجـــــرِّفُ

ونجد أن تشبيه السحاب بالإنسان حاضر عند الشعراء الجاهلين، قال صخر الغي[1]:

وَلَمّا رَأى العَمقَ قُدّامَهُ وَلَمّا رَأى عَمَرا وَالمُنيفا
أَسالَ مِنَ اللَيلِ أَشجانَهُ كَأَنَّ ظَواهِرَهُ كُنَّ جوفا
وَذاكَ السِطاعُ خِلافَ النِجا ءِ تَحسِبَهُ ذا طِلاءٍ نَتيفا
إلى عَمَرَينِ إلى غَيقَةٍ فَيَلَيلَ يَهدي رَبَحلاً رَجوفا
كَأَنَّ تَوالِيَهُ بِالمَلا نَصارى يُساقونَ لاقَوا حَنيفا
فَأَصبَحَ ما بَينَ وادي القُصو رِ حَتّى يَلَملَمَ حَوضاً لَقيفا
لَهُ ما تِحٌ وَلَهُ نازِعٌ يَجُشّانِ بِالدَلوِ ماءً خَسيفا

فقد شبه السحاب بالإنسان الذي يرى منطقة عمق وجبلي منيف وعمر، وهذا السحاب قد أمطر بغزارة شديدة مخلفا سيولاً قد عمت الأرض، وأن سبب هذه الأمطار هي رؤية السحاب للمواضع التي ذكرها، وقد شبه الجبل خلف السحاب ببعير قد زال عنه الجرب بسبب الأمطار الغزيرة، وقد مرَّ هذا السحاب على مواضع مثل عمرين ، وغيقة و يليل، وأنّ هذا السحاب يرجف من شدة البرودة، ونراه قد شبه السحاب في الأرض المستوية برهبان النصارى الذين يلبسون الأبيض ويسقون بعضهم بعضاً، وقد لاقوا حنيفا فأنحنوا له مسلمين عليه وأن هذا السحاب بمطره الغزير قد صنعوا حوضا متقعرًا ومتهدمًا يمتد ما بين وادي القصور ويلملم، حتى امتلأت الأبار.

ورثت أخت ذي الكلب عمرا فوصفته بالربيع في وقت يعز فيه الربيع والضيوف هم الشاهدون على ذلك، فعند هبوب الرياح الشمالية الباردة وتجمع المزن من غير أن تنزل غيثها في فصل الشتاء، ويعم القحط والجدب فهو مغيث كل ضيف وكل محتاج[2]:

---

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين، أَبُو سَعِيدٍ الحسن بن الحسين السُّكَّرِيّ، ص ٢٩٦ إلى ٢٩٨وعمر والمنيف: أسماء جبال، ظواهره: ما ظهر من الأشجان، السطاع: جبل، النتف: أصابه الجرب، الحوض اللقيف: المملوء بالماء، المائح: السحاب.

(٢) كتاب شرح أشعار الهذليين ، أَبُو سَعِيدٍ الحسن بن الحسين السُّكَّرِيّ ، ج٢ ، ص ٥٨٥، والمجتدون: الطالبون.

وقد عَلمِ الضَّيفُ والمُرْمِلُـــون إذا اغبَّر أُفْقٌ وهَبّت شَمالَا
وخَلّتْ عن اوْلادِها المُرضعات فلَم تَرَ عَيْنٌ لمُزْنٍ بِـــــلالا
بأنّك كنتَ الرَّبيع المرَيـــــــع وكنتَ لمِن يَعتَفِيك الثِّمــالا

المبحث الثالث

الشتاء والمطر

لما كانت حياة العربي في الصحراء معتمدة على الترحال طلباً للماء والكلأ، كان اهتمام العربي بالمطر كبيراً ، فهو المصدر الرئيس للماء الذي يمثل شريان الحياة، قال عز وجل ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾[1] . ولأنَّ العربَ اهتموا ببعض المسميات والظواهر وعبروا عن اهتمامهم بها بأن أطلقوا على كل منها أكثر من أسم فقد أطلقوا على المطر أسماء متعددة عرفت في المعاجم اللغوية وكتب الأنواء والأزمنة وقد جمعها الكثير من الباحثين المعاصرين نحو صلاح مهدي جابر من جامعة أهل البيت عليهم السلام الذي جمع ألفاظ المطر و أصول تسميتها و دلالتها عند العرب بشكل مرتب على حروف المعجم وتبيان ما هو مستخدم منها ومتروك الآن، وتوصل إلى أن للمطر أسماء خاصة به، ولدى التحقق منها يجد للباحث المنقب أن القوم توارثوها عن أجدادهم منذ أقدم العصور، وينطبق ذلك على معظم كلام عرب البادية اليوم ، ومن أَسمَاء الْمَطَر[2] :

الحيا ، الْحيَاء، الْغَيْث ، الْقطر ، المسلثب ، الرزق ، الدث ، الدثاث ، الودق ، الصَّيف ، الرّبيع ، البغشة ، اليعلول ، الخريف ، الْعِزّ ، المرمرة ، الشَّقِيقَة ، الطَّبَق ، النضيضة ، الهطل ، الهطلان ، الوابل ، الطل ، الذّكر ، الْمُنِيب ، الْجُود ، الرجع ، الهطف ، الْوَلِيّ ، الْعين ، المدام ، الديمة ، السَّمَاء ، الشفيف ، البسارة ، البسارة ، العثنون ، الْفَتْح ، الباكور ، البكور ، المبكر ، العهادة ، الْعهْدَة ، الْعَهْد ، الهميم ، التهميم ، الجرز ، الصِّلَة ، الصل ، الطشيش ، الْهُدْنَة ، الثرد ، الضَّرْب ، الرش ، الطش ، الدجن ، السبل ، السبلة .

---

(١) سورة الأنبياء، الآية٣٠

(٢) اللطائف في اللغة = معجم أسماء الأشياء ، أحمد بن مصطفى الدمشقي اللبابيدي ، تحقيق : أحمد عبد التواب عوض ، دار الفضيلة ، مصر ، ١٩٩٧ ، ص ٢٤

المطر في القرآن الكريم :

جاء في العين: المَطَرُ: الاسمُ (وهو الماءُ المنسكِبُ من السّحابِ) والمَطْرُ: فِعلُهُ.... ومطَرَتْنا (السماء) تمْطُرُهم مَطَراً، وأَمطَرَتْهُمُ (السّماء) وهو أَقْبَحُهُما. وأَمطَرهم اللهُ مَطَراً أو عذاباً.)[1]

ورد ذكر المطر في القرآن الكريم تسع مرات، وكلها جاءت بمعنى العذاب

- {وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَى أَن تَضَعُواْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ اللّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً }[2].
- {وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَراً فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ } [3].
- {وَإِذْ قَالُواْ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ }[4].
- {فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ }[5].
- {فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ }[6].
- {وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُوراً } [7].

---

(١) العين، الخليل، ج٧، ص٤٢٥. وانظر: تهذيب اللّغة، الأزهريّ ج١٣، ص٣٤١-٣٤٢. المحيط في اللغة، الصّاحب بن عباد، ج٩، ص١٧١. لسان العرب، ابن منظور (م ط ر). تاج العروس، الزّبيديّ (م ط ر).

(٢) سورة النساء ، الآية ١٠٢

(٣) سورة الأعراف ، الآية ٨٤

(٤) سورة الأنفال ، الآية ٣٢

(٥) سورة هود ، الآية ٨٢

(٦) سورة الحجر ، الآية ٧٤

(٧) سورة الفرقان ، الآية ٤٠

- {وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَراً فَسَاء مَطَرُ الْمُنذَرِينَ }[١] .
- {وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَراً فَسَاء مَطَرُ الْمُنذَرِينَ }[٢] .
- {فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ }[٣].

بينما ورد ذكر مطر الرحمة بلفظي الماء والغيث في مواضع كثيرة من القرآن الكريم

- {الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاء بِنَاء وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ }[٤].
- {وَهُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُّتَرَاكِباً وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُواْ إِلِى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ }[٥].
- {اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ }[٦].
- {هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ }[٧].
- {وَاللّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ } [٨].
- {الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى } [٩].

---

(١) سورة الشعراء ، الآية ١٧٣

(٢) سورة النمل ، الآية ٥٨

(٣) سورة الأحقاف ، الآية ٢٤

(٤) سورة البقرة ، الآية ٢٢

(٥) سورة الأنعام ، الآية ٩٩

(٦) سورة إبراهيم ، الآية ٣٢

(٧) سورة النحل ، الآية ١٠

(٨) سورة النحل ، الآية ٦٥

(٩) سورة طه ، الآية ٥٣

- {وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ }(١).
- {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ }(٢).
- {إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ } (٣).
- {وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ } (٤).
- {اعْلَمُوا إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ } (٥).

وإذا كانَ لفظ المطرِ في القرآن الكريم دل على معنى العذاب فإنّ الأحاديث النّبويّة الشريفة استعملت اللفظ بمعناه العروف الدال على معاني الخير. عن زيد بن خالد الجهنيّ، قَالَ: صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ صلّى الله عليه وسلّم صَلَاةَ الصُّبْحِ بِالْحُدَيْبِيَةِ فِي إِثْرِ السَّمَاءِ كَانَتْ مِنْ اللَّيْلِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ: (هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟) قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: قَالَ: (أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ. فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ. وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ)(٦). وعَنْ أَنَسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (مَثَلُ أُمَّتِي مَثَلُ المَطَرِ لَا يُدْرَى أَوَّلُهُ خَيْرٌ أَمْ آخِرُهُ)(٧). وكذلك نجد ذلك في حديث زيد بن خالد الجهنيّ، قَالَ: صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ صلّى الله عليه وسلّم صَلَاةَ الصُّبْحِ بِالْحُدَيْبِيَةِ فِي إِثْرِ السَّمَاءِ

---

(١) سورة الأعراف ، الآية ٥٧

(٢) سورة الحج ، الآية ٦٣

(٣) سورة لقمان، الآية ٣٤

(٤) سورة الشورى ، الآية ٢٨

(٥) سورة الحديد ، الآية ٢٠

(٦) صحيح البخاريّ، ج١، ص٢٩٠، رقْمُ ٨١٠.

(٧) مسند أحمد، ج١٤، ص٢٠٢، رقْم٨٥١١

كَانَتْ مِنْ اللَّيْلِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ: (هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟) قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: قَالَ: (أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ. فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ. وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ)[1]. وعن أبي هريرة أنّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: (إِنَّ السَّنَةَ لَيْسَ بِأَنْ لَا يَكُونَ فِيهَا مَطَرٌ، وَلَكِنَّ السَّنَةَ أَنْ تُمْطِرَ السَّمَاءُ، وَلَا تُنْبِتَ الْأَرْضُ)[2].

ومن خلال البحث لم أجد أحاديث شريفة تدل على ذكر لفظ المطر مصاحبا لغير الخير إلا حديثا واحدا فعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: (خَرَجَ ثَلَاثَةُ نَفَرٍ يَمْشُونَ، فَأَصَابَهُمْ الْمَطَرُ، فَدَخَلُوا فِي غَارٍ فِي جَبَلٍ، فَانْحَطَّتْ عَلَيْهِمْ صَخْرَةٌ- قَالَ- فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: ادْعُوا اللَّهَ بِأَفْضَلِ عَمَلٍ عَمِلْتُمُوهُ .... الخ)[3]

فهنا المطر قد أصاب هؤلاء النفر بالبلل الشديد مما جعلهم يلجؤون إلى ذلك الغار من الجبل فأغلقت صخرة مدخل تلك المغارة ، وجاء لفظ أصاب في هذا الحديث للدلالة على الأذى الذي لحق بهؤلاء النفر من جراء المطر من بلل وضيق قد ألم بهم .

و لفظ المطر المقترن بالأذى في الأحاديث النبوية الشريفة موافق للفظ القرآن في قول تعالى :﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى .. ﴾[4]

أما لفظ الغيث فقد استعمل في الأحاديث النبوية الشريفة متوافقا لاستعماله في القرآن الكريم من دلالته على الخير وكذلك انتظار الناس له ، فعن أَبِي موسى، عن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنْ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ، أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَتْ الْمَاءَ، فَأَنْبَتَتْ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا، وَسَقَوْا، وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً، وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً. فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللَّهِ، وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ،

---

(١) صحيح البخاري، ص ١٠٢١

(٢) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، علي بن أبي بكر الهيثمي نور الدين، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ج١٦، ١٩٩٨، ص٢٠١٠

(٣) صحيح مسلم، مسلم بن حجاج، تحقيق: نظر بن محمد الفاريابي أو قتيبة، دار طيبة،٢٠٠٦، ص ١٢٥٧.

(٤) سورة النساء، الآية ١٠٢

وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ)[١]. وعن أنسِ بن مالكٍ رضي الله عنه أَنَّ رَجُلًا دَخَلَ الْمَسْجِدَ يَوْمَ جُمُعَةٍ مِنْ بَابٍ كَانَ نَحْوَ دَارِ الْقَضَاءِ، وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَائِمٌ يَخْطُبُ، فَاسْتَقْبَلَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَائِمًا، ثُمَّ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلَكَتْ الْأَمْوَالُ، وَانْقَطَعَتِ السُّبُلُ، فَادْعُ اللَّهَ يُغِيثُنَا. فَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدَيْهِ: ثُمَّ قَالَ: (اللَّهُمَّ أَغِثْنَا اللَّهُمَّ أَغِثْنَا اللَّهُمَّ أَغِثْنَا)[٢] . كما اهتم الشعراء الجاهليون اهتماما كبيرا به للغاية فهو أساس حياتهم به يأتي الخصب الذي ترعى منه إبلهم ومواشيهم وتكثر بهذا الخصب أموالهم فكان لا بد من تتبع هذا المطر واستطلاعه وأول علامته هو لمع البرق الذي يرقبه الشاعر ويجتهد ويتعب ويأرق في سبيل استطلاع المطر . قال أبو ذؤيب الهذلي[٣]:

أَرِقتُ لَهُ ذاتَ العِشاءِ كَأَنَّهُ مَخاريقُ يُدعى وَسطَهُنَّ خَريجُ

وسأل محبوبته أمن صوبها برق ليرقبه طوال الليل، قال[٤]:

أَمِنكِ بَرقٌ أَبيتُ اللَيلَ أَرقُبُـــهُ كـأَنَّهُ في عِراضِ الشــامِ مِصبــاحُ

يَجشُّ رَعْداً كَهَدْرِ الفَحْلِ يَتْبَعُه أُدْمٌ تَعَطَّفُ حَوْلَ الفَحلِ ضَحْضـاحُ

وأرق الشماخ وهو يرقب ومضة البرق البعيدة القادمة من ديار الحبيبة فقال[٥]:

رَأَيتُ سَنا بَرْقٍ فَقُلتُ لِصاحِبي بَعِيدٌ بِفَلْجٍ ما رَأَيتُ سَحِــيقُ

فَباتَ مُهِمًّا لي يُذَكِّرِني الـهَوى كَأَنّي لِبَرقٍ بِالحِجازِ صَـدِيقُ

وكذلك عبيد بن الأبرص فقد كان يبيت ليله يرقب البرق الذي شبه لمعانه ببياض الصبح، قال[٦]:

يا مَنْ لِبَرْقٍ أبِيتُ اللّيلَ أرْقُبُهُ مِن عارِضٍ كَبَيَاضِ الصّبحِ لَمّاحِ

---

(١) صحيح البخاري، ص٣٢.

(٢) صحيح البخاري،ص٢٤٦

(٣) كتاب شرح أشعار الهذليين، أَبُو سَعِيدٍ الحسن بن الحسين السُّكَّرِيّ، ج ١، ص ١٢٨

(٤) المصدر السابق، ص ١٦٧

(٥) ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني، تحقيق وشرح، صلاح الدين الهادي، دار المعارف، مصر، ١٩٦٨، ص ٢٤٨، سنا برق: ضوئه، فلج: موضع بين البصرة وحمى ضرية، سحيق: بعيد، مهماً لي: محزناً لي، صديق: صاحب.

(٦) ديوان عبيد بن الأبرص، ص ٤٥.

وقال أيضا وقد بات ليله يرقب ضوء البرق[١]:

أَرِقتُ لِضَوءِ بَرقٍ في نَشاصِ تَلَألَأَ في مُمَلَّأَةٍ غِصاصِ

ومن الشعراء من دعا أصحابه ليرقبوا البرق، قال لبيد بن ربيعة[٢]:

أصَاحِ تَرَى بَرِيقاً هَبَّ وَهْـــناً كَمصْبَاحِ الشَّعِيْلَةِ في الذُّبـــالِ

أَرِقْتُ لهُ وأَنْجَدَ بَعْدَ هَـــــدْءٍ وأَصحابي على شُعَبِ الرِّحَـالِ

وترقب البرق نجده عند امرئ القيس، حين قال[٣]:

قَعَدْتُ لَهُ وَصُحْبَتِي بَيْنَ حَامِرٍ وَبَيـــنَ إِكَـــــامٍ بُعْدَ مَا مُتَأَمَّلِ

وقال[٤]:

أرِقْتُ لَـــهُ وَنَـــامَ أبُـــو شُـرَيْحٍ إذا مـــا قُلْـــتُ قَـدْ هَدَأ اسْتَطَارَا

وقال[٥]:

هل تـــأرقان لبـــرقٍ بتُّ أرقبه كمـــا تكشـــف عنها البُلـق اجلالا

وقال النابغة الذبياني [٦]:

أَصَاحِ تَرَى بَرْقًا أُرِيكَ وَمَيْضَهُ يُضِيءُ سَنَـــاهُ عَن رُكـــَامٍ مُنَضَّدِ

وقال الأعشى الكبير[٧]:

يا مَنْ يَرَى عارِضا قَد بِتُّ أرْقُبُهُ كأنّمَا البَرْقُ في حَافَاتِهِ الشُّعَلُ

وقال حسان بن ثابت[٨]:

أَرِقتُ لِتَوماضِ البُروقِ اللَوامِـــعِ وَنَحنُ نَشاوى بَينَ سَلعٍ وَفـــارِعِ

---

(١) ديوان عبيد بن الأبرص، ص ٤٥، و النشاص: السحاب المرتفع بعضه فوق البعض.

(٢) ديوان لبيد بن ربيعة، ص ١٠٩

(٣) ديوان امرئ القيس، ٢٤

(٤) نفس المصدر، ص ١٤٨

(٥) نفس المصدر، ص ٦٨

(٦) ديوان النابغة الذبياني، ص ٢١٢

(٧) ديوان الأعشى الكبير، ص ٥٧

(٨) ديوان حسان بن ثابت، تحقيق: عبد أ مهنا ، دار الكتب العلمية، بيروت ، ط٢ ،١٩٩٤، ص ١٥٤

أَرِقتُ لَهُ حَتّى عَلِمتُ مَكانَـــــهُ بِأَكنافِ سِلعٍ وَالتِلاعِ الدَوافِــعِ

وترتبط هذه البروق في كثير من الأحيان بالرعود ، فلا يكاد يأتي برق من غير أن يأتي الرعد ، وفي هذه الرعود دلالة على نزول الأمطار الغزيرة. و قال لبيد بن ربيعة العامري(١):

رُزِقَتْ مرابيعَ النُّجومِ وصابَهَا ودقُ الرواعــدِ جوْدُهَا فرهامُهـــا

وقالت الخنساء في ذلك(٢):

يَغْشَـــوْنَ منـــكَ غُطامِطـــاً جـاشـــتْ بوابلـــهُ الرَّواعـــدْ

فإذا ما طال ترقب العربي قبل الإسلام وانتظاره للمطر، الجأته الحاجة لطقوس الاستمطار أملا في استجابة السماء لهم، ومن هذه الطقوس الاستسقاء بالنجوم والكواكب لأن الاعتقاد الموجود أن للنجوم والكواكب دوراً في نزول المطر أو امتناعه قال ابن سيده(٣): (وإنما جاء حمدهم بعض الأنواء وذمهم بعضاً من قبل مواقع الأمطار التي تكون في أيامها).

وفضلاً عن هذا التعليل نجد أن ارتباط العرب بالكواكب والنجوم لا يقف عند حد اعتقادهم بأن الأنواء مرتبطة بالنجوم والكواكب ولكن هو ارتباط ديني فكثير من العرب كانت تعبد الكواكب والنجوم وهذه المعبودات هي المنزلة للمطر والحابسة له فتجدهم يتضرعون لها ويقربون القرابين إليها، فهذا الاعتقاد امن به الشاعر الجاهلي من حيث إن النجوم والكواكب هي المنزلة للمطر والحابسة له ، قال بشر بن أبي خازم(٤):

جادت له الدلوُ والشِعري ونوءهما بكل أسْحمَ داني الودقِ مرتجفُ

ونتيجة لذلك فقد قسموا هذه النجوم إلى نوعين هما نجوم السعود ونجوم النحوس ، قال عبيد الأبرص(٥):

ولتأتِيَنْ بَعْدي قُرونٌ جَمَّـــةٌ تَرعى مَخارِمَ أيْكَةٍ وَلـــدودا

فالشمسُ طالِعَة وليلٌ كاسِفٌ والنجمُ تجري أنْحُسًا وسُعُودا

---

(١) ديوان لبيد بن ربيعة العامري ، ص ١٦٤

(٢) ديوان الخنساء ، تحقيق: حمدو طماس ، دار المعرفة ، بيروت ، ط ٢ ، ٢٠٠٤ ، ص ٣٦

(٣) المخصص، علي بن إسماعيل أبو الحسن ابن سيده، دار إحياء التراث العربي – بيروت – ١٤١٧هـ،١٩٩٦، ص ٤١٢.

(٤) ديوان بشر بن أبي خازم ، ١٥٧

(٥) ديوان عبيد بن الأبرص ، ص ٤٨

فمن النجوم التي تفاءل بها العرب نجم الثريا والتي يعتقدون أن نوءها ينزل المطر، قال عدي ابن زيد[١]:

يَجِيءُ بِمـَا أَمَدَّتــْهُ الثُرَيــَّا مُعِـيرًا أمْرُهُ دَرَرَ الجنــُوبِ

وقد ربط الأسود بن يعفر مصائبه وهمومه بأنواء يوم مولده، فقال[٢]:

وُلِدْتُ بِحادِي النَّجْمِ يَتْلُو قَرِينَه وبالقَلْبِ قَلْبِ العَقْرَبِ المُتَوَقِّدِ

ومن الطقوس التي مارسها العرب عند انحباس المطر هي نار الاستسقاء ، فهم يجمعون البقر ويصعدون بها إلى الجبال فيشعلون النار في أذنابها ويصاحب ذلك الدعاء والتضرع ، قال أمية بن أبي الصلت[٣]:

سَنَةٌ أَزْمــَةٌ تَخَيَّـــــلُ بِالنَّـــا سِ تَرَى لِلْعِضَاهِ فِيهَا صَرِيرَا
لاَ عَلَى كَوْكَبٍ يَنُوءُ، وَلاَ رِيـ ـحِ جَنُوبٍ وَلاَ تَرَى طُـــخْرُورَا
وَيَسُوقُونَ بَاقِرَ السَّهْلِ لِلْطَّوْ دِ مَهَازِيلَ خَشْيَةَ أَنْ تَبُـــورَا
عَاقِدِينَ النِّيرَانَ فِي ثُكَنِ الأَذْ نَابِ مِنْهَا، لِكَيْ تَهِيجَ النَّحُورَا
سَلَعٌ مَّا، ومِثْلُهُ عُشَرٌ مَّـــا عَائِلٌ مَّا، وَعَالَتِ البَيْقُـــورَا[٤]

فهذه الأبقار المعلقة من أذنابها وهي تشوى بالنار قد نزلت عليها رحمة السماء فيقل ألمها ولعل هذا الطقس هو محاكاة للطبيعة فالنار تشير إلى البرق ودخانها هو السحاب ، ومن الطقوس

---

(١) ديوان عدي بن زيد ، ص ٣٨

(٢) ديوان الأسود بن يعفر، تحقيق: د. نوري حمودي القيسي ، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد ، ١٩٧٠ ، ص ٣٤

(٣) ديوان أمية بن أبي الصلت، تحقيق د. سجيع جميل الجبيلي، دار صادر، بيروت، لبنان، ط١ ،١٩٩٨ ، ص ٧٣، ٧٤

(٤) تبرح بالناس: تجهدهم ، الطحرور بالحاء و الخاء: اللطخ من السحاب القليل. الثكن: جمع ثكنة و هي القلادة و الجماعة. الطود: الجبل. تبور: تهلك. شكر الأذناب: شعر الأذناب. باقر و البيقور : جماعة البقر و منه البيقرة : مشية يطأطأ الرجل فيها رأسه.

الجالبة للمطر طقس غسل الثياب والتي تحدث عنه الجاحظ في أبيات (سعد المطر) إذ قال[1]:

دَعْ المَوَاعِيدَ لاَ تَعْرَضْ لِوُجْهَتِهَا إِنَّ المَـوَاعِيدَ مَقْرُونٌ بِهَــا المَطَرُ
إِنَّ المَوَاعِيدَ و الأَعْيَادَ قد مُنِيت مِنْــهُ بأَنْكَـرِ مَا يُمْنَــى بِهِ بَشَــرُ
أَمَّا الثِّيَابُ فَلاَ يَغْرُرْكَ إِنْ غُسِلَتْ صَحْوٌ قَدِيم و لاَ شَمْسُ و لاَ قَمَرُ

ومن طقوس الاستمطار هو اللجوء لبيت الله الحرام لما له من قدسية ، فيتضرعون بالدعاء لطلب حوائجهم، وهذا الأمر يعد من الأمور الشائعة قبل الإسلام، فقد روى وهب بن منبه: أن عادا قد ابتلاهم الله بالقحط ثلاث سنين ، فأجمعوا على المسير لبيت الله الحرام يتضرعون لينجيهم الله من محنتهم ويسقيهم من الغيث فجهزوا من كبار قومهم وأشرافهم سبعين رجلا، وفي الطريق نسوا ما جاؤوا لأجله، واشتغلت نفوسهم بالطعام والشراب إلى أن ذكرهم بكر بن معاوية من أمر القحط الذي أصابهم، إلى أن لجؤوا إلى الكبعة يتضرعون، ويدعون، ومنهم لقمان بن عاد، إلى أن أرسل الله تعالى عليهم ريح العذاب[2]، قال الله تعالى[3]:﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

ومن طقوس الاستمطار هي الاستمطار بالرضيع كما فعل أبو طالب عندما استسقى بالرسول ﷺ في سنين القحط التي أصابت مكة، وفي هذا قال أبو طالب[4]:

وأبْيَضَ يُسْتَسْقى الغَمــامُ بِوَجْهِــهِ ثِمال اليَتامى عِصْمَةٌ للأرامـــــلِ

هذه الطقوس والتي عرفت بطقوس الاستمطار أو الاستسقاء يجري ممارستها متى ما انقطع غيث السماء فلا تكون هذه الطقوس في الصيف دون الشتاء فريح الشمال المشؤومة وهي ريح

---

(١) كتاب البرصان والعرجان والعميان والحولان، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل بيروت، ط١، ١٩٩٠، ص ١٣٣

(٢) كتاب التيجان في ملوك حمير، وهب بن منبه ،وزارة المعارف العثمانية، الهند ١٣٤٧هـ ، ص ٣٢٥.

(٣) سورة الأحقاف ، الآية ٢٤.

(٤) طبقات فحول الشعراء، محمد بن سلام الجمحي، شرح محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، م١، بدون، ص ٢٤٤

الشتاء الباردة دائما ما تسوق الجدب وقلة الخصب واحتباس المطر وقلة الخير، قال بشر بن أبي خازم[١]:

يا سمير من للنساء إذا ما قحط القطر أمهات العيال
كنت غيثا لهن في السنة الشه باء ذات الغبار والإمحال
المهين الكوم الجلاد إذا ما هبت الريح كل يوم شمال

فإذا ما ارعدت السماء بفعل الرياح الشمالية في فصل الشتاء ولمع برقها وانسكب ماؤها بان تأثيرها على الديار، قال عبده بن الطبيب[٢]:

شامية تجزي الجنوب بقرضها مرارا فواف كيلها ومحلق

فهذه الرياح الشديدة البرودة تكسر أغصان الأشجار، قال لبيد بن ربيعة يرثي أخاه أربد في ليلة قمراء باردة[٣]:

وعَينِ هَلاَّ بَكَيْتِ أرْبَدَ إذْ ألوتْ رياحُ الشّتاء بالعضدِ

وقد وصف حاجز بن عوف ليلة من ليالي الشتاء القاسية وأنها أثرت على قدميه وكأنهما أصابتهما النار فأصبحت الأنامل معوجة وتسيل منها الدماء كالأنف الذي أدماه الضرب على الأرض في المعارك وتراب هذه الأرض مكتس باللون الأسود من شدة البرودة[٤]:

وَلَيلَةِ قِرَّةٍ أَدلَجتُ فيها يُحَرِّقُ جِلدَ ساقيَّ الهَشيمُ
فَأَصبَحتِ الأَنامِلُ قَد أُبينَت كَأَنَّ بَنانَها أَنفٌ رَثيمُ
تَراها مِن وِثامِ الأَرضِ سوداً كَأَنَّ أَصابِعَ القَدَمَينِ شيمُ

أما طرفة بن العبد فقد وصف الشتاء القاسي وكيف أن الناس يجتمعون في بيوتهم فلا يغادرونها وكيف أن البيوت تتقارب في هذا الفصل طلبا للدفء[٥]:

إنّي مِنَ القومِ الذينَ إذا أزِمَ الشّتَاءُ ودوخِلَتْ حُجَرُهْ

---

(١) ديوان بشر بن أبي خازم، ص ١٤٧، السنة الشهباء: البيضاء من الجدب، الكوم: جمع كوماء وهي الإبل العظيمة السنام، الجلاد غزيرة اللبن.

(٢) ديوان عبدة بن الطيب ، تحقيق: الدكتور يحيى الجبوري ، دار التربية ، بغداد ، ١٩٧١ م ، ص ٥٥

(٣) ديوان لبيد بن ربيعة ، ص ٥٠

(٤) قصائد جاهلية نادرة ، ص ٧٣ ، ليلَةٌ قِرَّةٌ: باردَةٌ.

(٥) ديوان طرفة بن العبد ، ص ١٣٢ ، ١٣٣

يومـاً ودونيـتِ البيـوتُ لـه فتنـى قبيـلَ ربيعِهـمْ قـررهْ
رَفَعُـوا المَنِيـحَ، وكـانَ رِزْقَهُمُ في المنقيـاتِ يقيمُـهُ يسـرُهْ
شَرْطـاً قَويمـاً ليس يَحْبِسُـهُ لمّـا تَتَابَـعَ وِجْهَـةً ، عُسُـرُه
تَلقـى الجِفـانَ بكُـلّ صادِقَةٍ ثُمّـتْ تُـرَدَّدُ بَيْنَـهُمْ حِيَـرُهْ
وترى الجفـانَ لـدى مجالسِنا متحيَّـراتٍ بينهـم سـؤُرهْ
فكأنَّهـا عقْـرى لـدى قُلـبٍ بصفـرٌ مـنْ اغرابِـها صقـرُه
إنـّا لنعـلمُ أن سيدركُنَـا غَيْـثٌ يُصِيـبُ سَوامَنـا مَطَرُه

فمن عادات العرب في أيام الشتاء كما ذكرها طرفة بن العبد ، هي تقريب البيوت من بعضها البعض بغية الدفء ، فيتقاسم الجميع الطعام بينهم وبهذا التقارب بين البيوت يسهل تفقد أبناء القبيلة جميعا ومن عادتهم أيضا نحر الجزور وتقسيمه بين هذه البيوت في جفان كبيرة متقاربة ولا يخافون من الفقر وهذا الطعام يكون منه للأضياف بل يزيد عن حاجتهم أما الطعام فبعد أن يأكله الضيوف فإن ما يبقى في هذه الجفان هي صفرة الشحم من طول بقائه فيها وهو يشبه صفرة المياه الراكدة مع اليقين بنزول الغيث بخيره الوفير. وهذا الشتاء القاسي قد يؤثر على الأرض فيقتل جذور النباتات وكأن النار قد أصابت هذه الأرض فأحرقتها قال امرؤ القيس(١):

إذا ركبـوا الخيـلَ واستلأمـوا تَحَرّقـتِ الأرْضُ وَاليَـوْمُ قُـرْ

وقد وصف عبيد بن الأبرص كيف أن هذه الأمطار ذات الرعود والرياح قد غيرت معالم ديار الأحبة(٢):

لِمَـنِ الـدّارُ أقْفـرَتْ بِالجَنَـابِ غَيْـرَ نُـؤْيٍ وَدِمْنَـةٍ كَالكِتَـابِ
غَيّرَتْهَـا الصَّبَـا وَنَفْـحُ جَنُـوبٍ وَشَمَـالٍ تَذْرُو دُقَـاقَ التّـرَابِ
فَتَرَاوَحْنَهَـا وَكُـلُّ مُلـثٍّ دَائِـمِ الرّعْـدِ مُرْجَحِنّ السّحـابِ

(١) ديوان امرئ القيس، ص ١٥٤

(٢) ديوان عبيد بن الأبرص، ص ٣٥، ٣٦

الفصل الثاني
الدراسة الموضوعية

إن تأثير فصل الشتاء على البيئة العربية قد أثر على طبيعة الإنسان الجاهلي وأوجد الكثير من العادات والقيم ميزت هذا الفصل على غيره من فصول السنة، ومن هنا نجد أن التأثير شمل الإنسان والحيوان والنبات. وستكون المباحث في هذا الفصل على النحو الآتي:

المبحث الأول: الشتاء والكرم.

المبحث الثاني: الشتاء والمرأة.

المبحث الثالث: الشتاء والحرب.

المبحث الرابع: الشتاء والناقة.

المبحث الخامس: الشتاء والثور الوحشي.

المبحث الأول

الشتاء والكرم

تباينت القيم الأخلاقية عند العرب تبايناً كبيراً، مثلهم في ذلك مثل باقي شعوب الأرض، وقد حرص الإنسان العربي أن يتمسك بهذه القيم ويتحلى بها ومن هذه القيم التي ينقلها إلينا الشعر الجاهلي:

أ) الوفاء بالعهد: وهي من صفات العرب الأصيلة حيث يكفي للرجل أن ينطق بكلمة فتصبح عهدًا عليه وقد حض الإسلام على الوفاء بالعهد قال تعالى:﴿ وأَوفُوا بِعَهدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّم ولا تَنقُضُوا الأَيمَانَ بَعدَ تَوكِيدِهَا وقَد جَعَلتُمُ اللَّهَ عَلَيكُم كَفِيلاً﴾[1] وقال:﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴾[2]كما أن هذه الصفة كانت ملازمة للرسول ﷺ فلم يعرف عنه نقضه لعهدٍ عاهده وقد شهد له أعداؤه بأنه يفي بالعهود فحين لقي هرقل أبا سفيان، وكان أبو سفيان على عداوته لمحمد صلى الله عليه وسلم سأل هرقل أبا سفيان عن محمد صلى الله عليه وسلم عدداً من الأسئلة، كان مما سأله فيه قوله: فهل يغدر؟. قال لا[3]، والوفاء بالعهد صفة من صفات العرب قبل الإسلام حتى أنهم قد جعلوا من الغدر معرة يتجافونها، فإذا غدر أحدهم رفعوا له لواء ليشهروا به بين القبائل، وفي ذلك قال قطبة بن أوس بن محصن[4]:

أَسُمَّـــيَ وَيْحَـكِ هـل سمعـتِ بِغَـدْرَةٍ رُفـــع اللِّـــوَاءُ لنَـــا بِهـــا في مَجمـــعِ

إِنَّا نَعـــفُّ فـــــلا نُرِيـــبُ حَلِيفَنَـا ونكُـــفُّ شُـــحَّ نُفوسِنـــا في المَطْمَـــعِ

---

(١) سورة النحل، الآية ٩١

(٢) سورة الإسراء، الآية ٣٤

(٣) صحيح البخاري ، ص ٩

(٤) المفضليات، المفضل بن محمد بن يعلى بن سالم الضبي، تحقيق: أحمد محمد شاكر – عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، ط٦، بدون، ج١، ص٤٥، سمي: ترخيم سمية. كانوا في الجاهلية إذا غدر الرجل رفعوا له بسوق عكاظ لواء ليعرفوه الناس، لا نريب حليفنا: لا نغدر به ولا تأتيه منا ريبة، يقال رابني الشيء ريبا: إذا تيقنت منه بالريبة، وأرابني: إذا كنت فيه شاكا. فكف إلخ، يقول: نمنع أنفسنا من البخل عند طمع الطامع في معروفنا.

وقال عوف بن الأحوص مفتخرًا بأنهم ملوك ولكنهم لا يتكبرون ولذلك يحييهم الناس بتحية العامة كما أنهم يوفون بإيمانهم وعهدهم ونذرهم[١]:

مُلُوكٌ عَلى أَنَّ التَّحِيَّةَ سُوقَةٌ أَلاَيَاهُمُ يُوفَى بِهَا ونُذُورُهَا

ب) الحِلم: وهو ضبط النفس عند الغضب، وكفها عن الثأر ويكفي الحلم شرفاً وفضلاً أن الله تعالى تسمَّى به ، فمن أسمائه الحليم، والحلم من صفات الأنبياء عليهم السلام ، كإبراهيم عليه السلام ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ﴾[٢] وشعيب عليه السلام ﴿قَالُواْ يَا شُعَيْبُ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاء إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾[٣] ونبينا محمد ﷺ في موقفه العظيم في حلمه وعفوه عن كفار قريش الذين آذوه وطردوه من بلده ، فلما تمكن منهم لم ينتقم ، بل قال (اذهبوا فأنتم الطلقاء) وكذلك الحال في الشعر الجاهلي نجد أن الشعراء افتخروا بتحليهم بهذه الخصلة الحميدة هم وقومهم قال لبيد مفتخرا بقبيلته[٤]:

لا يَطبَعونَ وَلا يَبورُ فَعالُهُم إِذ لا يَميلُ مَعَ الهَوى أَحلامُها

وعدد المهلهل بن ربيعة مناقب أخيه كليب وهو يرثيه ذاكرا أنه كان حليم ويعفو عند المقدرة[٥]:

وَإِنَّكَ كُنْتَ تَحْلُمُ عَنْ رِجَالٍ وَتَعْفُو عَنْهُمُ وَلَكَ اقْتِدَارُ

وَتَمْنَعُ أَنْ يَمَسَّهُمُ لِسَانٌ مَخَافَةَ مَنْ يُجِيرُ وَلاَ يُجَارُ

فالمهلهل ذكر صفحات مشرقة من أخلاق أخيه الكريمة والتي عرف بها أشراف العرب وهي العفو عند المقدرة والحلم الذي اتصف به حكماء العرب والأمم، فقد كان يعفو عن الرجال وهو مقتدر ومتسلط ومتمكن، وفوق عفوه عنهم لا يرضى أن ينبس أحدهم بكلمة تؤذي الذين عفا

---

(١) المفضليات، ص ١٧٨، الألايا: جمع ألية، وهي اليمين. يقول: هم ملوك ومعاملتهم للناس معاملة السوقة، لأنهم لا يتكبرون عليهم، فالناس يحيونهم بتحية السوقة، وكل من دون الملك عند العرب سوقة من جميع الناس.

(٢) سورة هود، الآية ٧٥.

(٣) سورة هود، الآية٨٧.

(٤) ديوان لبيد بن ربيعة، ص١٧٩. ولا يطبعون: أي لا تدنس أعراضهم . لا يبور فعالهم أي لا تهلك فعالهم. وبار الطعام إذا كسد، والمعنى: إنَّا لا نميل مع هوانا، وإن عقولنا تغلب هوانا.

(٥) ديوان مهلهل بن ربيعة، شرح طلال حرب، الدار العالمية، بدون، ص ٣٢.

عنهم، ولأن أخاه كان حراً ويعرف مدى شدة الكلام القبيح وأثره على الحر فهو يجيرهم ويحميهم ويدافع عنهم من بعد العفو.

ج) إباء الضيم: كان العربي صاحب أنفة ويأبى الضيم والذل والاحتقار ونجد ذلك في أشعارهم التي يفتخرون فيها بهذه الصفات قال المتلمس الضبي[١]:

إِنَّ الهَـــوانَ حِمـــارُ القَومِ يَعرِفُـــهُ والحُـــرُّ يُنكـــرُهُ والرَّسلَـــةُ الأُجُـــدُ

وقال[٢]:

فَـــلا تَقبَلَن ضَيـــماً مَخـــافَةَ ميتَـــةٍ وَموتـــَن بِـــها حُـــرّاً وَجِلـــدُكَ أَمـــلَسُ

فَمـــا النـــاسُ إِلاّ مـــا رَأَوا وَتَحَـــدَّثوا وَمـــا العَجزُ إِلا أَن يُضامـــوا فَيَجلِسُـــوا

فَمِـــن طَلَـــبِ الأَوتارِ ما حَـــزَّ أَنفَـــهُ قَصيـــرٌ وَخاضَ المَوتَ بِالسَيـفِ بَيـهَسُ

فيقول مت بتلك المخافة حرا لم يستعبدك الخصم، ولم يستوطئك الظلم، وجلدك نقي من العيب، سليم من العار والشين؛ فالإنسان مرتهن بأجله، فإما أن يموت حتف أنفه فيدفن، وإما أن يقتل في معركة فيترك لعوافي السباع والطير.

وقال عمرو بن براقة[٣]:

مـــتى تجمـــعِ القـــلبَ الـــذكيَّ وصارمـــاً وأنفـــاً حميـــاً تجتنبْـــكَ المـــظالـــمُ

فهو يقول إن الإنسان الذي يملك الذكاء والسيف والأنفة، فإنها تجنبه الظلم والضيم.

د) الشجاعة: وهي من الأخلاق الحميدة والتي حرص العرب من قبل الإسلام ومن أسباب شجاعة العرب أنهم يعيشون صحراء قاسية تقل فيها أماكن الخصب فيعتمدون على الغزو للسيطرة على هذه الأماكن أو للدفاع عنها إذا وجد لها طامع يريد انتزاعها منهم كما أنهم يعيشون في مجتمعات لها سمة الأخذ بالثأر كما أنهم ينجرون وراء الحروب مناصرة لأحلافهم

---

(١) ديوان المتلمس الضبعي، تحقيق: حسن كامل الصيرفي، معهد المخطوطات العربية، ١٩٧٠، ص٢٠٣.

(٢) نفس المصدر، ص ١١١،يرمس: يدفن.

(٣) عمرو بن برّاقة الهمْداني (من مخضرمي الجاهلية والإسلام) سيرته وشعره ، د. شريف راغب علاونة ، دار المناهج ، عمّان ، ط ١ ، ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٥ م، ص ١١٣، الصارم: السيف القاطع، الأبي : المترفع عن الدنايا، الحمى : الذي لا يحتمل الضيم .

فكان لا بد للعربي من حمل السيف والقتال والتحلي بالشجاعة فكانوا يقدمون على الموت ولا يهابونه قال دريد بن الصمة(١):

فَإنَّا للحـــم السَّيْـــف غيـــر نكيـــرة ونُلْحِمُـــه حينـــا وَلَيْـــسَ بِـــذِي نُكْـرِ
يغـــار علينـــا واتريـــن فيشتفـــى بِنَـــا إن أصبْنَـــا أَو نغيـــر على وتْـــرِ
قسمنـــا بِذَاكَ الدَّهْـــر شطـــرين بَيْننـــاَ فَمَـــا يَنْقَضِـــي إِلَّا وَنحـــن على شطْرِ

وقال عنترة مفتخرا بشجاعته(٢):

فَتًى يَخُـــوضُ غِمَـــارَ الحرْبِ مُبْتَسِماً وَيَثْنَـــنِي وَسِنَـــانُ الرُّمْـــحِ مُخْتَضِـــبُ
إنْ ســـلَّ صـــارمهُ ســـالتَ مضاربـــهُ وأَشْـــرَقَ الجَـــوُّ وانْشَقَّـــتْ لَـــهُ الحُجُـــبُ

وقال عمرو بن معد يكرب(٣):

لمّـــــا رَأَيْـــــــتُ نسَـــاءنـــا يَفحَصْـــــــنَ بالمَعْـــــزَاءِ شَـــــدّا
وَبـــــدَتْ لَمِيـــــسُ كَأَنّهـــــا بَـــــدرُ السّمَـــــــاءِ إذَا تَبـــــدّى
وَبـــــــدَت مَحَاسِنُهـــــا التي تُـــــخفِى وكـــــانَ الأمْـــــرُ جِـدّا
نَازَلـــــتُ كَبْشَهُـــــم وَلَـــــمْ أَرَ مِـــنْ نـــــزَالِ الكَبْـــــشِ بُـــدّا

كما أن هناك العديد من الأخلاق الأخرى التي عُرفت عن العرب قبل الإسلام نحو الغيرة والحزم والصبر والعفة وغيرها، أما في هذا البحث فإن هناك خلقا عظيما قد ارتبط بفصل

---

(١) ديوان دريد بن الصمة، تحقيق: د. عمر عبد الرسول، دار المعارف، ١٩٨٠، ص٩٦، نلحمه: نطعمه اللحم. الوتر: الثأر..

(٢) ديوان عنترة بن شداد، ص ٢٥.

(٣) شعر عمرو بن معدي كرب الزبيدي، تحقيق: مطاع الطرابيشي، مجمع اللغة العربية بدمشق، ط٢، ١٩٨٥، ص٨١، يفحصن بالمعزاء أي يؤثرن فيها من شدة الجري والمعزاء الأرض الصلبة وشدا مفعول له أي يفحصن لشدهن، لميس اسم امرأة أي برزت هذه المرأة كاشفة عن وجهها
كأنه بدر السماء إذا تبدى وإنما فعلت ذلك إما للتشبيه بالإماء لتأمن السباء وإما لما داخلها من الرعب، بدت محاسنها: ظهرت، كبش الكتيبة رئيسها يقول لما رأيت الشدة نازلت كبش الأعداء ولم يرد عني الفزع من منازلته.

الشتاء وهو الكرم وهو الجامع لأنواء الخير ولكل ما يُحْمَد وهو نقيض اللؤم[١] وعلى هذا المعنى قال لبيد[٢]:

وإِنْ تَسْـــألي بـــي فإنّـــي امْـــرُؤٌ أُهيـــنُ اللئيـــمَ وأحبُـــو الكَريمـــا

وأكد هذا المعنى المتلمس فقال[٣]:

وَمَنْ كان ذا عِرْضٍ كريمٍ فلَمْ يصُنْ لـــــهُ حسَبًـــا كانَ اللَئيـــمَ المُذَمَّما

ولذلك فإن مفهوم الكرم لا يعني فقط إنفاق المال والطعام فحسب بل يشمل كل المناقب الحميدة نحو الصبر والشجاعة والجود ومنع الظلم وحماية العرض وحب الجار قال عمرو إبن براقة مفتخرا بقومه[٤]:

إذا جَرَّ مَولانـــا عَلَينـــا جَريـــرَةً صَبَـــرنا لَهـــا إنّا كِـــرامٌ دَعائِـــمُ

وقال يزيد بن حمان السكوني[٥]:

وَمِـــنْ تَكَرُّمِهِـــمْ فِي المْحـلِ أَنَّهُـمُ لَا يَعْلـــمُ الجـــارُ فيهـــمْ أنّهُ الجارُ

وقال عدي بن زيد[٦]:

يأبى لِيَ اللـــهُ خَـــوْنَ الأصفيـــاءِ وإنْ خَانُوا ودادي لأنّي حاجزي كَرَمِـي

وقال زهير بن جناب[٧]:

لا يَمنَـعُ الضَيـــمَ إلّا ماجِـــدٌ بَطَـــلٌ إنَّ الكَريـــمَ كَريـــمٌ أَينَمـــا كانـــا

---

(١) انظر لسان العرب، ج١٢، ص٥١٠.

(٢) ديوان لبيد بن ربيعة، ص ٢٣٨.

(٣) ديوان المتلمس الضُبعي، ص١٦، والعرض: موضع المدح والذم من الرجل. يقال: إنه كريم العرض، ولئيم العرض. والعرض: الجسد. يقال: إنه لطيب العرض وخبيث العرض. والحسب: كرم الفعل من الإنسان وإن لم يكن له أبٌ في الشرف والمجد. ويقال: افعل ذلك على حسب ما ترى؛ أي على قدره مفتوح.

(٤) ديوان المتلمس الضبعي، ص١١٥، مولانا: ابن العم، والناصر، والجار، والحليف.

(٥) ديوان الحماسة، ص٣٠١، التكرم والإكرام والإحسان والمحل الجدب والشدة يقول إنهم يبالغون في إكرام الجار زمن الجدب حتى يظن أنه منهم.

(٦) ديوان عدي بن زيد، ص١٧١.

(٧) ديوان زهير بن جناب الكلبي، د.محمد شفيق البيطار، دار صادر، ط١، ١٩٩٩م، ص١٠٨.

وقال أمية بن الصلت[١]:

ذُكِـــــرَ اِبنُ جَـــدعـــــانَ بِخَيـــــ ـــرٍ كُلَّـــمـــا ذُكِـــــرَ الكِـــرامُ
مَـــن لا يَخـــــــــــونُ وَلا يَـــعِـــــ ـــقُ وَلا تُغَيـــــــــــرُهُ الـــلِئـــامُ
يَهَـــــبُ النَجيبَـــــــــــةَ وَالنَجيـــــ ـــبَ لَـــــــهُ الرِحالَـــــةُ وَالزِمـــامُ

وهذا الكرم يكون عفوًا عن طيب نفس ولا يصاحبه المَنُّ[٢] قال الأعشى الكبير[٣]:

فَـــــإنّ الّـــــذِي يُرْتَـــــجَى سَيْبُـــهُ إذا مَـــــا نَحُـــلّ عَلَيْـــهِ اخْتِيَـــارَا

وكذلك فإن الكريم يكون متهللًا عندما يُعطي وكأنه هو السائل الفرِح بالعطية، قال زهير بن أبي سلمى[٤]:

تَـــراهُ إذا مـــــا جِئتَـــهُ متَهَلِّـــلاً كَأَنَّـــكَ تُعطيـــهِ الَّذي أَنتَ سائِلُـه

أما عن الأسباب التي تجعل الإنسان يكتسب هذه الصفة الأخلاقية فيمكن إيجازها في سببين هما:

أولاً/ أن هذا الكرم هو وسيلة لكسب القوة والمكانة الرفيعة وكسب الحمد والثناء:

فبذل المال هو من وسائل الحصول على السيادة، وأشار حبيب الأعلم الهذلي أن من الطرق الشاقة للوصول إلى سيادة الأقوام هي بذل المال وهذا لا يمكن أن يتأتى للبخيل[٥]:

وَإِنَّ السَيِّدَ المَعلومَ مِنّا يَجودُ بِما يَضَنُّ بِهِ البَخيلُ
وَإِنَّ سِيادَةَ الأَقوامِ فاعلمْ لَها صَعْداءُ مَطْلَعُها طَويلُ

وبالتالي لا سيادة للبخيل فبذل المال هو طريق المرء لأن يكون سيد القوم وفي هذا قال حاتم الطائي عندما لامه بعضهم لكثرة بذله للمال[٦]:

يَقولُـــونَ لِي أَهْلَكْـــتَ مـــالَكَ فاقْتَصِـــدْ ومـــا كنـــتُ لَوْلا مـــا يَقُولُـــونَ سَيِّـــدا

---

(١) ديوان أمية بن الصلت، ص١٢٧.

(٢) المَنُّ: ذكر العطية أو الفعل على صورة يتأذى بها الآخذ والاعتداد بها.

(٣) ديوان الأعشى الكبير، ص٤٩.

(٤) ديوان زهير ص٩٢، المتهلل: المستبشر.

(٥) شرح ديوان الهذليين، ج٢، ص٣٢٣، الصَعْداءُ: المشقة.

(٦) ديوان حاتم الطائي، شرح: أبو صالح يحيى بن مدرك الطائي، تقديم: حنّا نصر الجتي، دار الكتاب العربي، ط١، ١٩٩٤، ص٧٩.

وإذا كان هذا الكرم يأتي بالحمد والثناء والسمعة الطيبة فإن البخل يجلب الذم ويضع صاحبه موضع الهجاء، وفي هذا قال علقمة الفحل(١):

والجـــودُ نافِيَـــةٌ لِلمـــالِ مُهْلِكَـــــةٌ والبُخـــلُ مبـــقٍ لأهليـــه ومذمـــومُ
والمـــالُ صـــوفُ قرارٍ يَلعبـــونَ بـــهِ عـــلى نِقادَتـــــهِ وافٍ ومَجلـــــومُ
والحَمـــدُ لا يُشتَـــرى إلاَّ لـــهُ ثَمَـــنٌ مِمَّـــا تَضِـــنُّ بـــهِ النُّفوسُ مَعلـــوم

ثانيًا/ حماية العرض والحسب:

إن الشعراء قبل الإسلام قد أشاروا إلى أنهم قد جعلوا مالهم دون عرضهم وتفضيلهم أن يتفرق المال دون العرض وليس في شيء اخر، وإلى هذا أشار حاتم الطائي، فقال(٢):

ذَريني يَكُـــن مـــالي لِعِرضِـــيَ جُنَّـــةً يَقـــي المـــالُ عِرضـــي قَبـــلَ أَن يَتَبَدَّدا

وفي ذلك قال زهير(٣):

ومَنْ يَلْتَمِـسْ حُسْـنَ الثَّنَـاءِ بِمالِـهِ يَصُنْ عِرْضَهُ مِن كُلِّ شَنْعاءَ مُوبِقِ

كما أن إنفاق هذه الأموال هي لحماية العرض فهي أيضًا لحماية الحسب، فهذا عبيد بن الأبرص أشار إلى قومه أنهم جعلوا من المال وقاء لأحسابهم(٤):

لا نَقـــي بِالأَحســـابِ مـــالاً وَلَكِـــن نَجعَـــلُ المـالَ جُنَّـــةَ الأَحســـابِ

إن شغف العربي بالكرم جعله يهيئ لنفسه من الوسائل والسبل المختلفة لهداية الضيف والمحتاج إلى المأوى والطعام وكان للشتاء خصوصية في ذلك لقلة الطعام وحصول الجدب وصعوبة نوم المسافر في العراء كما هو الحال في فصل الصيف ومن هذه الوسائل:

---

(١) ديوان علقمة الفحل بشرح الأعلم الشنتمري، تحقيق: لطفي الصقال ودرية الخطيب، دار الكتاب العربي – حلب – سوريا، ط١، ١٩٦٩م، ص٦٥،القرار: غنم صغار الأجسام لطائف الآذان، الواحدة قرارة يلعبون به: يتداولونه ويعبثون فيه. على نقادته: على صغر أجسامه، وأصل النقادة جمع نقد، بفتحتين، والنقد جمع نقدة، وهو صغار الغنم. الوافي: التام الكثير. المجلوم: المجزوز يعني أن الناس مختلفون، منهم الغني المكثر، ومنهم الفقير الذي لا مال له، كالقرار على صغر أجسامه، منا ما هو وافي الصوف، ومنه ما لا صوف عليه.

(٢) ديوان حاتم الطائي، ص٧٨، ذريني: اتركيني، جنة: وقاية.

(٣) شرح ديوان زهير بن أبي سلمى، صنعة الإمام أبي العباس أحمد بن يحيى الشيباني (ثعلب)، مطبعة دار الكتب المصرية،١٩٤٤م، ص٢٥٢، شنعاء: قبيحة، مُوبق: مُهْلِك.

(٤) ديوان عبيد بن الأبرص، ص٣٧، الجُنَّة: الوقاء.

أ/ النار:

كانت العرب تشعل النار في الليالي ليهتدي المسافرون والمحتاجون إلى بيوت الكرام من العرب حيث يجدون المأوى والطعام والمسامرة، وهذا عبد قيس أشار إلى أنه يدعو المسافرين من خلال النار التي أشعلها في الليالي الباردة ذات الرياح الشديدة(١):

ونـــــارٍ دَعَـــوْتُ بهـــا الطارقيـــن وَاللَّيْـــل مُلْـــقٍ عَلَيْهَـــا سُـــدُولا

إِلَى مَلِـــــقٍ بضيـــــوف الشتَـــــــاء إذا الرّيـــح هبـــت بلَيْـل بَلِيـــلا

ونجد أن حاتم الطائي قد طلب من غلامه أن يوقد النار بسبب أنها ليلة شديدة البرودة فلعل أحد المارين يهتدي بها إلى داره وقد تجلى كرم حاتم ليس في أنه طلب من غلامه أن يوقد النار فحسب بل إنه قال للغلام أنت حُر إذا جلبت هذه النار ضيفا أو محتاجا(٢):

أَوقِـد فَـإِنَّ اللَيـلَ لَيـلٌ قَـرُّ

وَالريـحُ يـا موقِـدُ ريـحٌ صِـرُّ

عَسـى يَـرى نـارَكَ مَـن يَمُـرُّ

إِن جَلَبَـت ضَيفـاً فَأَنـتَ حُـرُّ

وكذلك فإن هذه النار توقد على المرتفعات ليهتدي إليها المارون وقد أشار الأعشى الكبير إلى نار المحلَّق الكلابي والتي أوقدها على مكان مرتفع(٣):

لَعَمـرِي، لَـقد لاحَـتْ عُيُـونٌ كَثيـرَة إلى ضَـوءِ نَـارٍ في يَفَـاعٍ تُحَـرَّقُ

تُشَـــبّ لمَقْرُورَيْـــنِ يَصْطَلِيَانِهَـــا وَبَـــاتَ عَلى النّـارِ النّدَى وَالمُحَلَّـقُ

---

(١) الحماسة البصرية، صدر الدين علي بن أبي الفرج بن الحسن البصري ، تحقيق: عادل سليمان جمال، مكتبة الخانجي، ط١؛ ١٩٩٩، ج١، ص ١٢١، الطارق: الذي يأتي بالليل، السدول: جمع سدَلْ وهو السّتْر ويعني الظلمة، الملق: الذي يظهر الود واللطف، البليل ريح باردة مع الندى،

(٢) ديوان حاتم الطائي، ص١١١، القر بضم القاف وهو البرد ، تقول العرب: يوم قر بالفتح أي بارد، ريح صِرٌ: ريح شديدة البرودة.

(٣) ديوان الأعشى الكبير، ص٢٣٢، اليفاع: الأرض المرتفعة، المحلق هو عبد العزى بن حنتم بن شداد بن ربيعة بن عبد الله بن عبيد. من قبيلة عامر بن صعصعة اشتهر بالكرم. وإنما سمي محلقا لأن حصانا له عضّه في وجنته فحلق فيه حلقة.

وافتخر عدي بن زيد بناره التي أوقدها بالغار[1]:

رُبَّ نـــــــارٍ بِـــــتُّ أَرْمُقهـــــــا تَقْضَـــــــــمُ الهِنْـــــــدِيَّ والغـــارا

ب/ نباح الكلاب:

وتُعد هذه وسيلة تضاف إلى الوسائل التي استعملتها العرب لتدل العابرين والضيوف على بيوتهم، فكان الضيف يُقلد نباح الكلاب فتبدأ كلاب الأجواد بالنباح أيضا فيتبع هذا الضيف نباح تلك الكلاب وبذلك يستطيع الوصول إلى بيوت الكرماء من العرب. وفي ذلك قال المتلمس الضبعي[2]:

وَمُستَنبِـــحٍ تَستَكشِـــفُ الريـــحُ ثَوبَـــــهُ لِيَسقُـــطَ عَنـــهُ وَهوَ بالثَـوبِ مُعصِـــمُ

عَـوى في سَـــوادِ اللَيـــلِ بَعـــدَ اِعتِسافِـــهِ لِيَنبَـــــحَ كَلـــبٌ أَو لِيوقِـــظَ نُـــــوَّمُ

فَجاوَبَـــــهُ مُستَسمِـــعُ الصَـــوتِ لِلنَّـدى لَـــــهُ عِنـــدَ إِتيانِ المُحِبّيـــنَ مَطعَُـــم

يَكـــــادُ إِذا ما أَبصَـــرَ الضَيـــفَ مُقبِـلاً يُكَلِّمُـــــهُ مِن حُبِّـــــهِ وَهوَ أَعجَـــــمُ

وهنا وصف المتلمس حالة الضيف وقد ضل في الصحراء في ليالي الشتاء الشديدة البرودة حيث عصفت الريح بثوب الضيف والذي تمسك بثوبه لكي لا ينكشف فكانت وسيلته للنجاة هي العواء، فما كان من الكلب إلا أن جاوبه بالنباح لأنه لا يتكلم، ليوقظ أهل البيت من النوم فيهبوا لنجدة الضيف وتقديم المأكل والمشرب والمأوى له، وكذلك فإن للكلب نصيبا من الطعام الذي يعد لذاك الضيف فكان نباح الكلب هو ابتهاجا لما سيحصل عليه من ذاك الطعام.

---

(١) ديوان عدي بن زيد، ص١٠٠، الهندي: يقصد اليلنجوج وهو العود الهندي الذي يتبخر به، الغار: ضرب من الشجر ، و منه دهن الغار.

(٢) ديوان المتلمس الضبعي: ص٣١٧، المستنبح: الذي يطلب نباح الكلب ليهتدي بذلك في طريقه، الاعتساف: الأخذ في الطريق على غير هداية، مستسمع بمعنى سامع وأراد به الكلب والمهبون الأضياف والمعنى أنه لما عوى جاوبه كلب يدعوه إلى القرى لأن له عند حضور الأضياف مطعما مما ينحر لهم من الإبل.

ووصف شُرَيْح بن الْأَحْوَص بن جَعْفَر بن كلاب مستنبحا طلب الْمبيت وَقد أظلم عَلَيْهِ اللَّيْل فَلم يهتد فأعلى لَهُ نَارِه ليهتدي إِلَى بيته ومنع الْكلاب من أَن تنبح بعد وُصُوله فَقضى هذا الضيف ليلته عِنْدِه هادئ البال مستريحا بَعْدَمَا قاسى من شرور السّير وتعب السّفر(١):

ومستنبـــح يَبْغِـــي الْمبيـــت ودونـــه مـــن اللَّيْـــل سجفـــا ظلمَـــة وستـــورها
رفعـــت لَـــهُ نَارِي فَلَمَّـــا اهْتَـــدَى بهَـــا زجـــرت كـــــلابي أَن يهـــر عقـــورها
فَبـــاتَ وَإِن أسرى من اللَّيْـــل عقبـــَة بليلـــة صـــدق غَابَ عَنْهَـــا شَرّ بـــرهَا

وهناك وسائل أخرى استعملها العرب لجلب الضيوف وعابري السبيل مثل اختيار موضع إقامتهم بحيث يختارون المكان المرتفع البارز ليسهل الوصول إليه وقد افتخر أوس بن حجر بمكان إقامته(٢):

وَأنّ مَكَـــاني للمُريديـــنَ بـــارِزٌ وإنْ برزُونـــي ذو كـــؤودٍ وذو حضْـــنِ

وفي ذلك قال المسيب بن علس(٣):

أَحْـلَلْتَ بَيْتَـكَ بالجَميـعِ، وبعضُهـم مُـتـفـرِّقٌ لِـيَـحُـلَّ بـالأَوزاعِ

ومن الوسائل التي استعملتها العرب في جلب الضيوف وعابري السبيل هي الدعوة إلى الطعام حيث يرسل الكريم من ينادي الناس إلى ذلك، فهذا أمية بن الصلت مدح ابن جدعان(٤)، لأنه جعل منادياً ينادي كل ليلة على ظهر الكعبة هلموا إلى طعام ابن جدعان(٥):

لـــه دَاعٍ بِمَكَّـــةَ مُشْمَعِـــلٌ وآخَرُ فَـــوْقَ دَارَتِـــهِ يُنَـــادِي

---

(١) ديوان الحماسة، ١٧٠٥،المستنبح: الذي يضل الطريق فينبح، لتجيبه الكلاب، فيستدل على الحي فيقصده. القواء: الخالي من الأرض، أي يخشى أن يهلك فيه، بابا ظلمة: يعني ظلمة أول الليل وظلمة آخره، هَرَّ الْكَلْبُ: صَاتَ مِنْ دُونِ نُبَاحٍ وَكَشَّرَ عَنْ أَنْيَابِهِ، العقور، يريد به السيئة الخلق منها وهي من كلاب الرعي وقد حضرت مع كلاب الحي.

(٢) ديوان أوس بن حجر ص ١٣٠، الكؤود: العقبة الشاقة المصعد ، الصعبة المرتقى، الحضن: المنيع.

(٣) المفضليات، ص٦٣، الأوزاع: المتفرقون. يقول: إذا كانت شدة الزمان نزلت في مجمع الناس في مجالسهم حيث يأتي السؤال والضيفان.

(٤) عبد الله بن جدعان التيمي القرشي الكناني هو أحد سادات قريش وسيد جميع كنانة في حرب الفجار ضد قيس عيلان، وكان معروف عنه الكرم والجود.

(٥) ديوان أمية بن الصلت، ص٦٣، الشِّيزُ بالكسر و الشِّيزَى مكسور مقصور خشب أسود تتخذ منه قصاع.

إلى رُدُحٍ مــن الشِّيــزَى ملاء لُبــابُ البُــرِّ يُلْبَكُ بالشِّهـــادِ

إن الكرم قيمة أخلاقية أصيلة عند العرب وكما ذكرنا أنفا أن هذا الكرم يكون في أجمل صوره إذا كان في الشتاء، حين يقل الطعام فلا عجب أن الشاعر الجاهلي إذا ما افتخر بكرمه يذكر ضيوف الشتاء قال يزيد بن خذاق العبدي(١):

فَلَت عينَها عنِّي سَفاهــاً وراقَهـا فتى دون أضيافِ الشتاءِ شروبُ

فالكرم يتجلى حين تعصف ريح الشتاء بالأشجار وتلقيها على بيوت الحي ويتزاحم الجياع، فيكون الكريم هو المنقذ، كقول زهير بن أبي سلمى(٢):

تالله قد علمتْ قيسٌ إذا قذفــتْ ريحُ الشتاءِ بيوتَ الحــيِّ بالعنـــن

أنْ نعمَ معتركُ الحيِّ الجياعِ إذا خبَّ السفيرُ ومأوَى البائِس البَطِن

وفي ذلك قال أوس بن حجر(٣):

مَطَاعِينُ في الهَيْجَا مَطَاعِيمُ لِلْقِرَى إِذا إِصْفَرَّ آفَاقُ السَّمَاءِ مِنَ الْقَرْسِ

كما وصف مظاهر الشتاء وكيف أثرت في أحوال الناس من ازدياد الفاقة والحاجة فيكون الكرم حاضرا في تلك الأجواء من السنة(٤):

---

(١) حماسة الخالديين المعروف بالأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهليين والمخضرمين، أبو بكر محمد بن هاشم الخالدي، (ت: ٣٨٠هـ) ، أبو عثمان سعيد بن هاشم الخالدي (ت: ٣٧١هـ)، تحقيق: د. محمد علي دقة ، وزارة الثقافة، الجمهورية العربية السورية، ١٩٩٥، ص١٧،

(٢) ديوان زهير بن أبي سلمى، ص١٢٢، العنن: واحدها عنة، وهي الحظيرة من الشجر، معترك الحي: مزدحمهم. والسفير: ماتحات من ورقِ الشجر فخبت به الريح؛ وهذا يكون في الشتاء. ومن السفير قولهم: أسفر مقدم رأسه: إذا ذهب الشعر عنه. والبطن: النهم.

(٣) ديوان أوس بن حجر، ص ٥٢، المطاعين: جمع مطعان للكثير الطعن ومطاعيم: جمع مطعام للكثير الإطعام. والقرى: الضيافة، والآفاق: النواحي واحدها أفق. وأفق السماء: ناحيتها المتصلة بالأرض، وقرس الماء يقرس قرسا فهو قريس: جمد.

(٤) نفس المصدر، ص٥٤، تحوط، وقحوط، وكحل، وحجرة، أسماء للسنة المجدبة. والعائذ: الحديثة النتاج، فتنحر أولادها في السنة المجدبة إبقاء على ألبانها وشحومها. والربع الذي ينتج في الربيع، والهبع: الذي ينتج في الصيف. يقال: ما له هبع ولا ربع، وَازدَحَمَــت حَلقَــتا البِطــانِ، إذا بلغ الأمر في المكروه حده، عزت: غلبت، الكميع، الضجيج، ملتعفا: أي يلتفع بكسائه دون ضجيعه من شدة البرد، الهيدب: جاف ثقيلٌ

وَالحافِـظَ النـــاسَ في تَحـوطَ إذا لَم يُرسِلـــوا تَحـتَ عائِـذٍ رُبَعـا
وَازدَحَمَـت حَلقَـتا البِطـانِ بِـأَقـ وامٍ وَطـــارَت نُفـوسُهُـم جَـزَعا
وَعَـــزَّتِ الشَمـأَلُ الرِيـــاحَ وَقـدَ أَمســى كَميـــعُ الفَتـــاةِ مُلتَفِعـا
وَشُبِّهَ الهَيـدَبُ العَبـــامُ مِـنَ الـ أَقـوامِ سَقبـــاً مُلَبَّســـاً فَـــرَعا
وَكانَـتِ الكـاعِبُ المُمَنَّعَـةُ الـحَسـ نـــاءُ فـي زادِ أَهـلِهـا سَبُـعـــا

وبعد أن يهتدي الضيف وعابر السبيل إلى بيوت الكرام يتم استقبالهم بالتحية فهي مظهر رغبة الكريم في تقديم كل العون لضيفه فالتحية هي رمز الكرم المطلق، قال ضمرة بن ضمرة النهشلي(١):

وقُلـتُ لهُ: أَهْـلاً وَسهْلاً ومرْحَبـاً وأَكْرَمْتُـهُ حتى غَدَا وهْـوَ حامـدُ

وإن استقبال الضيوف والمحتاجين يكون بوجه باسط ومشرق، قال أبو اللحام التغلبي(٢):

طَلَـقٍ يَـراحُ إلى النَّـدى مُتَبَلِّجٍ كَـالبَدرِ لافَـــه وَلا مُتَعَبِّـــسِ

فإذا ما دخل الضيف وقبل تقديم الضيافة يجلس صاحب البيت معه ويزيل عنه الوحشة ويطمئن قلبه ويدخل عليه البشر، قال غربال الحنفي(٣):

رب ضـيف طـارق قد قريتـه وآنستـه قبـل الضيـافة بالبشـر

وبعد هذا الترحيب والاستقبال والجلوس مع الضيف لمؤانسته يأتي دور الضيافة وفيها يقدم للضيف والمحتاج من أفضل الطعام والشراب الموجود في البيت نحو اللبن قال لبيد ابن ربيعة مفتخرا بتقديم قومه للحليب الخالص(٤):

كثيرُ الشَّعر، العبام: الفدم الثقيل، السقب: ولد الناقة، الفرع: أول نتاج الأبل والغنم، الكاعب: الجارية التي كعب ثديها.

(١) المفضليات، ص٣٢٦.

(٢) ديوان عمرو بن كلثوم، تحقيق: إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، ط١، ١٩٩١، ص ١١٢، طلق: بشوش، يراح للمعروف: يسرع إليه، النَّـدى: العطاء، مُتَبَلِّجٍ: مسرور، الفه: العي.

(٣) الحماسة البصرية، ص ١٣١٥.

(٤) ديوان لبيد بن ربيعة، ص١٩٧، أعضاد المطي: جوانب المطي، المخدم: الذي وضعت الخدمة في رسغه، وهي سير غليظ محكم مثل الحلقة، يفتخر بأنهم أهل خيل، وأن خيلهم ما تزال إلى جانب ركائبهم، الأحاليب: جمع: حلابة، وهي ما يجمع الحليب حين تكون الإبل في المرعى، المحض: اللبن الخالص، المعمم: الأبيض.

وَإِنّــا أُنــاسٌ لا تَــزَالُ جيَادُنَـا تَخُــبُّ بأعْضَــاد المَطـيِّ مُخَدَّمَــا
تَكُـرُّ أحَاليـبُ اللَّديــد عَلَيْهــمُ وَتُوفى جِفانُ الضَّيْف مَحْضًا مُعَمَّما

كذلك فمن عادات العرب وعندما يحل الشتاء ويعم الجدب يعمدون إلى نضح ضروع الإبل بالماء البارد ليدخروا اللبن فيها وهذا لا يكون عند حضور الضيف فهذا الحارث بن حلزة يوصي ابنه ألا يمسح ضرع الناقة بالماء وأن يقدمه جميعه إلى الضيوف(١):

لا تَكسَــــعِ الشِّــوْلَ بأغبَارِهــا إنّــــك لا تــدري مـــن النَّاتِـــجُ
واحلُــبْ لأضيافِــــك ألبَانَهــا فــإن شــــرّ اللَّبــــنِ الوَالِــجُ

كذلك فإن النوق تعقر في الليالي الباردة ويقدم للضيف أفضل أجزائها وهو شحم السنام قال كردم بن شعبة الفزاري(٢):

هُـم المُطْعِمــونَ سَديف العِشار والشَّحــْـمَ في الليلـــة البـــاردهْ

وكذلك فإن العرب كانت تقدم أفضل أنواع النوق للضيوف والمحتاجين فهم يقدمون الناقة القوية والسمينة والضخمة فهم يفتخرون بتقديم الناقة الكوماء للضيوف وهي الناقة العظيمة وفي ذلك قال الأعشى(٣):

المُطعِمــو اللَحــمَ إذا مــا شَتوا وَالجاعِلــو القــوتِ عَـلى اليــاسِرِ
مِـن كُـلِّ كَومــاءَ سَحُـوفٍ إذا جَفّـَت مِنَ اللَحــمِ مُدى الجـــازِرِ

---

(١) ديوان الحارث بن حلزة، جمع وتحقيق وشرح ايميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١،١٩٩١م، ص٦٦، الكسع أَن يضْرب لضرع بِالْيَدِ بعد أَن ينضح بِمَاء بَارِد ليصعد اللَّبن فِي الظّهْر فَيكون طرقا لَهَا فِي الْعلم الْمقبل وأغبارها جمع الغبر وَهُوَ بَقِيَّة اللَّبن فِي الضَّرع يَقُول لَا تفعل ذَلِك فَإِنَّك لَا تَدْرِي لَعَلَّه يغار عَلَيْك فَيذْهب بهَا فَيكون النِّتَاج لغيرك وَشر اللَّبن الوالج يَقُول شَره مَا حقن فِي الضَّرع.

(٢) التذكرة السعدية في الاشعار العربية، محمد بن عبد الرحمن بن عبد المجيد العبيدي، تحقيق: عبد الله الجبوري، منشورات المجمع العلمي العراقي، مطابع النعمان، النجف، ١٣٩١ هـ / ١٩٧٢ م، ص ١٧٣، السديف: لحم السنام المقطع، العشار: الإبل التي مضى على حملها عشرة أشهر، الشحم: سنام الإبل.

(٣) ديوان الأعشى الكبير، ص ١٤٥، القوت: النفقة، الياسر: الذي يربح من لعب الميسر، فكان الياسر يفرق ما غنم من اللحم، وقد كانت العرب تعير الياسر الذي يأخذ اللحم إلى بيته ، إذا ما شتوا: إذا حل فصل الشتاء بجدبه وقحطه الكوماء: الناقة الضخمة، السحيفة: طبقة الشحم والجمع سحائف، وناقة سحوف كثيرة السحائف، المُدى: جمع مدية (بضم الميم) وهي السكين، الجازر ، الجزار وهو الذي يذبح.

كما أن العرب كانت تُطِّعِم الأضياف من الخبز قال طرفة بن العبد[1]:

يُطْعِـــمُ النـــــاسَ إذا أَمْحَلُــوا مــن نَقِـــــيٍّ فوقَـــــــه أُدُمُـــهْ

(١) ديوان طرفة بن العبد، ١٨٣، النقي: الخبز الحواري.

المبحث الثاني

الشتاء والمرأة

ترتبط المرأة بالشتاء وعناصره في الشعر الجاهلي جوانب كثيرة، فمن جانب ارتبطت المرأة بالمطر بوصفهما رمزا للخصب والحياة والنماء، ، فصارت كل مقارنة لدى الشاعر الجاهلي تستمد أصولها من تقارب أو تشابه أو تناسب بين المرأة والمطر.

إن الماء كان مصدرا للحياة، ومنبعا للوجود، ورمزا للتجدد والخصب، لذلك ربط الشاعر الجاهلي المطر بالمرأة، لاتحاد وجهتيهما، فكلاهما رمز للخصوبة والبقاء والتجدد والخلود، فالمرأة هي واهبة الخصب والنماء ، وموقدة متعة اللقاء ، لأنها بمفاتنها، وخصوبتها تختزن كل مظاهر الجمال والزينة في الكون ، إنها المتعة التي ظل الإنسان يبحث عنها، يقول حسان بن ثابت:[١]

تَبَلَت فُؤادَكَ في المَنامِ خَريدَةٌ تَشفي الضَجيعَ بِبارِدٍ بَسّامِ
كَالمِسكِ تَخلِطُهُ بِماءِ سَحابَةٍ أَو عاتِقٍ كَدَمِ الذَبيحِ مُدامِ

ولأن المطر كان باعثا على الفرح والسرور، وعنصرا من عناصر الحياة في البيئة الصحراوية ، فإن الجاهليين كانوا كثيرا ما يستفزون عاطفيا وغريزيا بمشهد المطر ، فإذا ذكر المطر ذكرت الحبيبة[٢]، لأن الشاعر الجاهلي في وصفه للمرأة لم يكن ينطلق من واقع المرأة على أساس أنها مستودع الجمال فحسب ، وإنما نظر إلى المرأة بوصفها صورة للزمن وتقلباته، بما يفرضه من خوف وحرمان ، وهو ما يجعل المرأة تمثل صورة لكل ما في الطبيعة من جمال وخصب[٣].فهي مانحة الحياة والخصوبة قادرة على بعث الحياة في الأطلال ، فهي حين تحل أرضا تحييها بما تمتلكه من وظائف الإخصاب والولادة والخضرة ، يقول المرقش الأكبر :[٤]

أَينما كنتِ أو حَلَلتِ بأَرضٍ أو بلادٍ أَحيَيْتِ تلكَ البلادا

---

(١) ديوانه،ص٢٩ و خريدة :عذراء بكر لم تمس ،الضجيع : من يقاسمك الفراش ، مدام : المطر الدائم .

(٢) . الخطاب الإبداعي الجاهلي،ص ٢٠٩

(٣) . عالم المرأة في الشعر الجاهلي،ص١٨

(٤) . ديوان المرقشين،ص٤١

إن فكرة الخصوبة جعلت بعضا من الشعراء الجاهليين ينطلقون في حديثهم عن المطر والبرق من المرأة ، يقول أبو ذؤيب:(١)

أَمِن البَرقُ أَرقُبُهُ فَهاجا فَبِتُّ إِخالُهُ دُهماً خَلاجا
تَكَلَّلَ في الغِمادِ فَأَرضُ لَيلى ثَلاثاً لا أُبينُ لَهُ اِنفِراجا
فَما أَصحى هَمِيُّ الماءِ حَتّى كَأَنَّ عَلى نَواحي الأَرضِ ساجا

ويقول:(٢)

أَمِنكِ بَرقٌ أَبيتُ اللَيلَ أَرقُبُهُ كَأَنَّهُ في عِراضِ الشامِ مِصباحُ
يَجُشُّ رَعداً كَهَدرِ الفَحلِ تَتبَعُهُ أُدمٌ تَعَطَّفُ حَولَ الفَحلِ ضَحضاحُ

ويقول ساعدة الهذلي: (٣)

أَفَمِنكِ لا بَرقٌ كَأَنَّ وَميضَهُ غابٌ تَشَيَّمَهُ ضِرامٌ مُثقَبُ

ويقول: (٤)

وَمِنكِ هُدُو اللَيلِ بَرقٌ فَهاجَني يُصَدِّعُ رُمكا مُستَطيرا عَقيرُها
أَرِقتُ لَهُ حَتّى إِذا ما عُروضُهُ تَحادَت وَهاجَتها بُروقٌ تُطيرُها

عندما كان يشبه الشاعر الجاهلي المرأة بالمزنة أو السحابة فإن ذلك يحيلها إلى نوع من الوجود الشعري لا تنفك فيه عن الماء مصدر الحياة.(٥)وهذا ما يبدو في قول عنترة يصف محبوبته مسقطا عليها ملامح الحياة والخصوبة والتجدد من خلال تشبيه رضابها بالروضة التي جاد عليها المطر، فنمت وأينعت وتجددت الحياة فيها، يقول :(٦)

أَو رَوضَةً أُنُفاً تَضَمَّنَ نَبتَها غَيثٌ قَليلُ الدِمنِ لَيسَ بِمَعلَمِ

---

(١) . شرح أشعار الهذليين،ص١٧٧ و دهما : السواد ،ساجا : أظلم وركد في طوله .

(٢) شرح أشعار الهذليين ،ص١٦٧ و يجش : ينفرد دفعة واحدة ، ضحضاح : قاع قليل العمق .

(٣) شرح أشعار الهذليين ،ص١١٠٣ و ضرام : دقيق الحطب ، مثقب : الطريق العظيم يثقبه الناس بوطئ أقدامهم .

(٤) شرح أشعار الهذليين، ص١١٧٦ ومستطيرا: وشيك قريب الحدوث، عقيرها ، المعقور للذكر والأنثى .

(٥) . الأسلوبية والتقاليد الشعرية،ص١٥٠

(٦) . ديوان عنترة شرح التبريزي،ص١٥٧ و الدمن : بقية الماء في الحوض ، تسكابا : شدة السكب انسكاب الماء ، يتصرم : يتقطع .

جادَت عَليهِ كُلُّ بِكرٍ حُرَّةٍ فَتَرَكنَ كُلَّ قَرارَةٍ كَالدِرهَمِ
سَحّاً وَتَسكاباً فَكُلَّ عَشِيَّةٍ يَجري عَلَيها الماءُ لَم يَتَصَرَّمِ

ولا تبتعد هذه الصورة كثيرا عن الصورة التي رسمها الأعشى لرائحة محبوبته ، في تأكيد أفكار النماء والتجدد والخصوبة والخلود التي ترتبط بالمطر ،بقوله: (١)

ما رَوضَةٌ مِن رِياضِ الحَزنِ مُعشَبَةٌ خَضراءُ جادَ عَلَيها مُسبِلٌ هَطِلُ
يُضاحِكُ الشَمسَ مِنها كَوكَبٌ شَرِقٌ مُؤَزَّرٌ بِعَميمِ النَبتِ مُكتَهِلُ
يَوماً بِأَطيَبَ مِنها نَشرَ رائِحَةٍ وَلا بِأَحسَنَ مِنها إِذ دَنا الأُصُلُ

ينطلق الشاعر في وصف أثر الماء في تجدد الحياة والنماء من خلال المرأة رمز الخصوبة والتجدد والخلود ، فالماء أحال الأرض خضراء نضرة مفعمة بالحياة والخصب ، لذا كان الماء مطرا غزيرا مسبلا هطلا جاء بالخير لهذه الروضة ، وأشاع فيها الحياة بأبهى صورها.

وهذا كعب بن زهير يصور الأمطار التي تسقي الديار في فصل الشتاء، فتنبت النباتات ذات الرائحة الطيبة (الغفو والريحان)، فترعى بين جنباتها الحيوانات ،وتزدهر الحياة في الأطلال، فتوحي بدورة حياة متجددة فيها، يقول:(٢)

لازَالتِ الريحُ تُزجي كُلَّ ذي لَجَبٍ غَيثاً إِذا ما وَنَتهُ ديمةٌ دَفَقا
فَأَنبَتَ الفَغوَ وَالريحانَ وابِلُهُ وَالأَيهُقانَ مَعَ المُكنانِ وَالذُرَقا
فَلمَ تَزَل كُلُّ غَنّاءِ البُغامِ بِهِ مِنَ الظِباءِ تُراعي عاقِداً خَرِقا

وقد أكثر الشعراء الجاهليون من تصوير ريق المرأة بالمطر، " واستخدموه معادلا موضوعيا لفكرة المطر ، ويستخدمون وصف الريق وسيلة للتعبير عن الرغبة في استقبال المطر بحيث

(١) ديوان الأعشى ،٢١٩ و مؤزر : قوي ، مكتهل : اكتهل النبات تم طوله وظهر نوره .
(٢) ديوان كعب بن زهير، ص:٢٣٤ و لجب : ارتفاع الأصوات واختلاطها ، الأيهقان : عشب طويل عريض الورق ، البغام : صوت الظبية .

تختفي المرأة ويبرز المطر.[١] فهذا امرؤ القيس يصور ريق محبوبته بالخمر الممزوجة بالمطر ،يقول:[٢]

فُتورُ القِيامِ قَطيعُ الكَلامِ تَفتُرُ عَن ذي غُروبٍ خَصِر
كَأَنَّ المُدامَ وَصَوبَ الغُمامِ وَريحُ الخُزامى وَنَشرُ القُطُر
يُعِلُّ بِهِ بَردُ أَنيابِها إِذا طَرَّبَ الطائِرُ المُستَحِر

ويصور عبيد بن الأبرص ريق محبوبته بمدامة مشعشعة ممزوجة بماء سحاب يسير شاربها مختالا مرخي الإزار لشدة أثرها فيه، ويؤكد قيمة تلك الخمر المحفوظة في أباريق الفضة، بما تدره من ثمن بريح لبائعها ،يقول:[٣]

نَأَتكَ سُلَيمى فَالفُؤادُ قَريحُ وَلَيسَ لِحاجاتِ الفُؤادِ مُريحُ
إِذا ذُقتَ فاها قُلتَ طَعمُ مُدامَةٍ مُشَعشَعَةٍ تُرخي الإِزارَ قَديحُ
بِماءِ سَحابٍ في أَباريقِ فِضَّةٍ لَها ثَمَنٌ في البايِعينَ رَبيحُ

ويصف الحادرة ريق سمية بأنه عذب المذاق فهو في برودته كالماء الذي أتى به السحاب الذي استخرجته ريح الصبا، يقول:[٤]

بَكَرَت سُمَيَّةُ غُدوَةً فَتَمَتَّعِ وَغَدَت غُدُوَّ مُفارِقٍ لَم يَرجِعِ
وإذا تنازعك الحديث رأيتها حسنًا تبسمها، لذيذ المكرع
بغريض ساريةٍ أدرته الصبا من ماءٍ أسجر طيب المستنقع
ظلم البطاح له انهلال حريصةٍ فصفا النطاق له بعيد المقلع
لعب السيول به فأصبح ماؤه غلً لا تقطع في أصول الخروع

فثغر المرأة نبع لماء الحياة أو مصدر للمطر ، فرحيل سمية يعني رحيل المطر والحياة، وقربها يعني الحياة والبقاء وتدفق ماء الحياة .

---

(١) . المطر في الشعر الجاهلي،ص١٨١

(٢) ، ديوانه،ص١٥٧–١٥٨ و المدام : المطر الدائم ، الغمام : سحابة يتغير بها وجه السماء .

(٣) . ديوانه،ص٣٠ و قريح : جريح ، الإزار : ثوب يحيط بالنصف الأسفل من البدن ، القديح : ما يبقى لاصقا في أسفل القدر .

(٤) . ديوانه،ص٣٠٦.٣٠٨ و البطاح : هذيان ينشأ عن الحمى .

أما الصورة الأخرى التي ترتبط فيها المرأة بالشتاء في الشعر الجاهلي، فهي أحاديثهم عن القرى وإكرام الضيف في فصل الشتاء ، إذ يصور لنا الشعراء النساء وهن يطبخن كما يبدو من قول طرفة بن العبد:(١)

وَإِنّا إِذا ما الغَيمُ أَمسى كَأَنَّهُ سَماحيقُ ثَربٍ وَهيَ حَمراءَ حَرجَفُ
وَجاءَت بِصُرّادٍ كَأَنَّ صَقيعَهُ خِلالَ البُيوتِ وَالمَنازِلِ كُرسُفُ
وَجاءَ قَريعُ الشَولِ يَرقُصُ قَبلَها إِلى الدِفءِ وَالراعي لَها مُتَحَرِّفُ
نَزُدُّ العِشارَ المُنقِياتِ شَظيُّها إِلى الحَيِّ حَتّى يُمرِعَ المُتَصَيَّفُ
تَبيتُ إِماءُ الحَيِّ تَطهي قُدورَنا وَيَأوي إِلَينا الأَشعَثُ المُتَجَرِّفُ

فالشاعر يذكر في هذه الأبيات أن الإماء تسهر مع النيران لإنضاج الطعام الذي يقدم لإطعام الجياع في فصل الشتاء فقد أجدبت الأرض لقلة الأمطار، واشتد هبوب الرياح الحمراء الشديدة البرد ، ومثل هذا الغيم يتصف بالبرد الشديد وانخفاض درجة الحرارة حد الانجماد ، وينعدم فيه المطر وينزل بدلا عنه جليد منهمر كأنه القطن الأبيض ، فتكتسي البيوت والمراعي بطبقة بيضاء، مما يدفع الإبل والماشية إلى أن تؤوب قافلة إلى حظائرها مسرعة يتقدمها فحل الإبل ينشد الدفء وقد غاب عنها الراعي في مثل هذا الوقت، أي حين اشتداد البرد لا ترسل العشار إلى المرعى لأجل النحر وإطعام الأضياف.

وشبيه بهذه الصورة تلك الصورة التي رسمها عمرو بن أحمر الباهلي بقوله:(٢)

وَدُهمٍ تُصاديها الوَلائِدُ جَلَّةٍ إِذا جَهِلَت أَجوافُها لَم تَحَلَّمِ
تَرى كُلَّ هِرجابٍ لَجوجٍ لِهِمَّةٍ زَفوفٍ بِشِلوِ النابِ جَوفاءَ عَيلَمِ
لَها زَجَلٌ جُنحَ الظَلامِ كَأَنَّهُ عَجارِفُ غَيثٍ رائِحٍ مُتَهَزِّمِ
إِذا رَكَدَت حَولَ البُيوتِ كَأَنَّما تَرى الآلَ يَجري عَن قَنابِلِ صُيَّمِ

يصف الشاعر القدور السود تداريها الإماء في النصب والإنزال، وهي ضخمة واسعة كبيرة أرعدت وفارت، فبدت هوجاء لم تهدأ بسبب استعار النار تحتها ، وقد اتسعت فملأت أعضاء الجزور وأوصاله لضخامتها عند جنوح الظلام لأنه موعد نزول الأضياف، ولها صوت أثناء

(١) . ديوانه،ص٦٨ و سماحيق : الطويل الدقيق ، الحرجف : باردة الريح ، صراد : غيم رقيق لا ماء فيه ،كرسف : القطن ، الشول : الماء القليل .

(٢) . شعره ،ص١٤٩ و الدهم : السواد ، الهرجاب : الطويل من الناس وغيره ،عجارف : شدة المطر.

غليانها كصوت الرعد ، أما إذا سكنت ونصبت على الأثافي وهي مترعة باللحم والشحم تبدو تبرق كالسراب وبريق السلاح بأيدي الفرسان.

وتبدو صورة المرأة الجائعة والمرأة الأرملة في أحاديثهم عن قرى الشتاء ، فهذا الأفوه الأودي يفتخر بأن طبخه مستمر لأضيافه ، فقدوره لا تنزل عن النار، ويذكر أن مهمة قبيلته عندما يحل الشتاء هي إطعام الأرامل من النساء حتى يشبعن ،يقول: (١)

فينا لِثَعلَبَةَ بنِ عَوفٍ جَفنَةٌ يَأوي إِلَيها في الشِتاءِ الجُوَّع

وَمَذانِبٌ ما تُستَعارُ وَجَفنَةٌ سَوداءُ عِندَ نَشيجِها ما تُرفَع

مَن كان يَشتو وَالأَرامِلُ حَولَهُ يروي بِآنِيَةِ الصَريفِ وَيُشبِع

أما الصورة الأخرى التي ظهرت فيها لكنها في أحاديث القرى في فصل الشتاء فهي المرأة العاذلة ، فهذا معاوية الفزاري يرسم صورة لكرمه في فصل الشتاء محاولا أن يبرز ذاته ، ويؤكد حضوره ، فالشاعر عندما أحس بأنه ملام على فعله أخذ يستدعي الصور الدالة على إعلاء ذاته، قائلا:(٢)

أَعاذِلُ بَكّيني لِأَضيافِ لَيلَةٍ نُزورِ القِرى أَمسَت بِليلاً شَمالُها

أَعامِرُ مهلاً لا تَلُمني وَلا تَكُن خَفِيّاً إِذا الخَيراتُ عُدَّت رِجالُها

أَرى إِبِلي تُجزي مَجازي هَجمَةٍ كَثيرٍ وَإِن كانَت قَليلاً إِفالُها

مَثاكيلُ ما تَنفَكُّ أَرحَلَ جُمَّةٍ تُرَدُّ عَلَيهِم نوقُها وَجِمالُها

يؤكد الشاعر للمرأة العاذلة بأن كرمه لا يكون في وقت الرخاء، إنما في وقت الشدة لينقذ الآخرين من الجوع الذي عم بسبب القحط والجدب، فيطالب عاذلته بأن تكثر من البكاء من أجل أضيافه ليلة قليلة القرى، وذلك لإمساك الآخرين عن الإنفاق بسبب الجدب والقحط ، ويبدو الشاعر هنا حريصا على أن يكون صاحب سمعة طيبة طالبا من لائمه أن يسير على نهجه.

---

(١) . ديوانه،ص٩٢ و الجفنة : وعاء للطعام من خزف أو نحوه ، الصريف : اللبن ساعة حلبه .

(٢) الحماسة،ج٢،ص٣٤٠ و هجمة : شدة وقساوة .

ويتخذ عمرو بن الاهتم من العذل وسيلة لإبراز مفاخره بعطائه، وخاصة الكرم في أيام الشتاء شديدة البرودة ، يقول: يقول عمر بن الأهتم:(١)

ذَريني فَإِنَّ البُخلَ يا أُمَّ هَيثَمٍ لِصالِحِ أَخلاقِ الرِجالِ سَروقُ
ذَريني وَحُطّي في هَواي فَإِنَّني عَلى الحَسَبِ الزاكي الرَفيعِ شَفيقُ
ومُسْتنْبِحٍ بعدَ الهُدُوءِ دَعْوَتُهُ وقد حانَ من نَجْم الشِّتاءِ خُفُوقُ
فَقلْتُ لهُ: أَهلاً وسهلاً ومَرحباً فهذا صَبُوحٌ راهِنٌ وصَدِيقُ
وقُمتُ إِلى البَرْكِ الهَواجِدِ فاتَّقَتْ مَقاحِيدُ كُومٌ كالمَجَادِلِ رُوقُ
فَباتَ لَنَا منها وللِضَّيْفِ مَوْهِنا شِوَاءٌ سَمِينٌ زَاهِقٌ وغَبوقُ
وبَاتَ لهُ دُونَ الصَّبَا وهْيَ قَرَّةٌ لِحَافٌ ومَصْقُولُ الكِسَاءِ رَقِيقُ

وهكذا يستعرض الشاعر الأحداث التي صاحبته أثناء تقديمه القرى لأضيافه ، فيعرض لمشهد الضيف الذي أضناه السرى وأفزعته الصحراء بأهوالها وليلها الشتوي الشديد البرودة ، فأخذ يستنبح الكلاب لترد عليه ، وما أن يلحظ الشاعر قدوم الضيف حتى يسارع إلى الترحيب به وتقد يم الزاد له، إذ يقوم الشاعر بعقر ناقته وتقديمها للضيف .

(١) . المفضليات،ص٤٥٣.٤٦٢ وسروق : أخذه خفية بغير وجه حق ، مستنبح : اسم المفعول من استنبح أي جعله يصوت وحمله على النباح ، الغبوق ما يشرب في العشي .

المبحث الثالث

الشتاء والحرب

اعتمدت بعض القبائل في تأمين رزقها على الغزو والحرب، فحين يأتي الشتاء ، وينتشر الجوع بين الناس، وحين تشح الطبيعة وتحبس السماء ماءها، تأخذ القبائل في البحث عن مصدر لحياتهم غير آبهين بما قد يحصل من قتل وسفك للدماء ، لأن ما يهمهم هو البقاء والاستمرار في الحياة، فالغزو هو المصدر الذي" أصبح في هذا المجتمع وسيلة من وسائل الحياة ، وسببا من أسباب العيش بل الوجود، وأصبح شريعة مقدسة يكمن فيها سر الحياة ، ويستقر في أعماقها وجود الوجود "[١] وهذا لا ينفي أن يكون للحرب عوامل أخرى، كالعصبية القبلية والثأر وغياب السلطة المركزية في الجزيرة العربية.

وقد صور الشعراء الجاهليون حروبهم في الشتاء ، كما يبدو من قول عامر بن الطفيل واصفا خروجهم لغارة في ذلك الوقت الجاف ، وما صحبه من خلو السماء من الغيوم ،يقول:[٢]

لِلَّهِ غارَتُنا وَالمَحلُ قَد شَجِيَت مِنهُ البِلادُ فَصارَ الأُفقُ عُريانا
حَتّى صَبَبنا عَلى هَمدانَ صَيَّقَةً سُؤُرَ الكِلابِ وَما كانوا لَنا شانا
فَظَلَّ بِالقاعِ يَومٌ لَم نَدَع كَتَداً إِلّا ضَرَبنا وَلا وَجهاً وَلا شانا
ثُمَّ نَزَعنا وَما اِنفَكَّت شَقاوَتَهُم حَتّى سَقَينا أَنابيباً وَخِرصانا
وَما أَرَدناهُمُ عَن غَيرِ مَعذِرَةٍ مِنّا وَلَكِنَّهُ قَد كانَ ما كانا
سِرنا نُريدُ بَني نَهدٍ وَإِخوَتَهُم جَرماً وَلَكِن أَرادَ اللَهُ هَمدانا

فهو يصف وقت غارتهم في فصل الشتاء ،والمحل قد عم البلاد ، ويصف الجدب هنا بإماراته، وهي خلو السماء من الغيوم، وغالبا ما يكون ذلك مرتبطا بالريح الشمالية الباردة التي تقشع السحب، فهو يفتخر بقومه لخروجهم في تلك الأوقات التي يعاني فيها الناس من الضعف ، أما قومه فلم ينلهم من هذا الجدب شيء فهم أقوياء شجعان.

و يصور حاجز بن عوف الأزدي غارة شنها في إحدى ليالي الشتاء الباردة، يقول[٣]

وليلةِ قرَّةٍ أدلجتُ فيها يحرّقُ جلدَ ساقيَّ الهشيمُ

---

(١) دراسات في الشعر الجاهلي ،يوسف خليف ، ،دار غريب ، القاهرة، ١٩٨١، ص١٠٩

(٢) . ديوانه،ص١٥٠ و الخرص :الغصن.

(٣) . قصائد جاهلية نادرة،ص٧٣ و رثيم : رثم أنفه كسره حتى أدماه .

فأصبحتِ الأناملُ قدْ أُبينتْ كأنَّ بنانَها أنفٌ رثيمُ

تراها منْ وثامِ الأرضِ سوداً كأنَّ أصابعَ القدمينِ شيمُ

يصور الشاعر خروجه للغارة في ليلة شديدة البرودة (قرة) ، كما يصور شدة قسوته وجرأته التي دفعته للخروج في هذه الليلة الشتائية القاسية، فكأن قدميه قد أصابتهما النار حتى أن أنامل قدميه أصبح بنانها معوجا تسيل منه الدماء كالأنف المدمي من شدة ضرب الأرض في المعركة من هذا البرد الشديد ، وقد أصبح مما حوله من تراب الأرض ولما أكسبتها البرودة من ألوان قاتمة سوداء اللون.

وهذا الشنفرى قد أغار في ليلة شديدة البرودة من ليالي شتاء الجزيرة العربية القاسي، وعاد من غارته منتصرا محققا مأربه التي سعى إليها بعد أن ترك النساء بلا أزواج والأطفال بلا آباء، يقول : (١)

وَلَيلَةِ نَحسٍ يَصطَلِيَ القَوسَ رَبُّها وَأَقطُعَهُ اللاتي بِها يَتَنَبَّلُ

دَعَستُ عَلى غَطشٍ وَبَغشٍ وَصُحبَتي سُعارٌ وَإِرزيزٌ وَوَجرٌ وَأَفكُلُ

فَأَيَّمتُ نِسواناً وَأَيتَمتُ آلَدَةً وَعُدتُ كَما أَبدَأتُ وَاللَيلُ أَلَيَلُ

يصور الشاعر هذه الليلة التي انتصر فيها بصورة قاسية، فهي ليلة باردة لا بل هي شديدة البرودة ، يضحي فيها الصياد بقوسه وسهامه، لإشعال النار ليستدفئ بها من بردها القارس، ، هذه الليلة الباردة تمثل لغير الشنفرى الموت ، ولكنها كانت بالنسبة إليه رمزا للحياة والبقاء والعمل ، فقد انتصر ، وتمكن من تحقيق ما يصبو إليه، وعاد كما بدأ والليل ما زال كما هو ،وكأن الزمن توقف في سبيل تحقيق الشاعر إرادته.

ويصور معقل بن خويلد غارة شنها بقوله:(٢)

فَيا رُبَّ حَيرى جُمادِيَّةٍ تَنَزَّلَ فيها نَدىً ساكِبُ

مَلَكتُ سُراها إِلى صُبحِها بِشُعثٍ كَأَنَّهُمُ حاصِبُ

لَهُم عَدوَةٌ كَانقِصافِ الأَتِيِّ مَدَّ بِهِ الكَدِرَ اللاحِبُ

---

(١) ديوان الشنفرى، تحقيق أميل يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت ،ط٢، ١٩٩٦، ص ٦٩.٧٠ و الغطش : الظلام ، البغش : صوت الإنسان المتلهف إذا أراد البكاء ، إرزيز : حبات من الجليد الأبيض ، الأفكل : الرعدة ، أليل : دخل في الليل .

(٢) . شرح أشعار الهذليين،ص٣٨٩ و الاتي : القادم ، اللاحب : واضح وبين .

يفتخر الشاعر بأنه كم من ليلة جمادية من ليالي الشتاء ، باردة طويلة ملك سُراها بقومه ، والليل في ذلك الوقت البارد يوحي بالوحشة والخوف، وطولها يزيد من ذلك ، وبرودتها تمنع الناس من السرى فيها، ولكن الشاعر قدا متلك بقومه السرى فيها ، فلا يستطيع مقاومتهم أحد، وقومه شعث كأنهم إذا غاروا ريح حاصب تقذف بالحصي، وحملتهم على الأعداء تشبه السيل الآتي السريع الذي غير معالم الأرض.

وترثي ريطة بنت عاصية أخاها عمرا مشيرة إلى أنه كان يكثر الغزو خاصة في ليالي الشتاء الباردة، تقول:(١)

إنّ اِبن عاصية المقتول بَينكما خَلّى عليّ فِجاجاً كانَ يَحميها
المانع الأرض ذات العرض خشيتهُ حتّى تمنّع مِن مَرعى مجانيها
وليلة يصطلي بالفرث جازره حيرى جمادية قد بت تسريها
لا ينبح الكلب فيها غير واحدة من القريس ولا تسري أفاعيها
كانَت هُذيل تمنّي قتله سلماً فَقد أُجيبت فلا تَعجل أمانيها

إن الشاعرة هنا تشير إلى ذلك الوقت الذي كان يخرج فيه أخوها للغارة ، وهو وقت قاس شديد البرودة ، فلشدة البرودة يدخل الجازر يديه في كرش ذبيحته متلمسا الدفء ، وهي تحدد هذه الليلة بأنها ليلة جمادية في إشارة إلى شدة برودتها وزمنها .

ويصور أوس بن حجر غارة تعرضت لها قبيلته في فصل الشتاء، وكيف صلوا المغيرين بنار حامية وردوهم على أعقابهم خاسرين، مشيرا إن سبب الغارة التي تعرضوا لها هي خصوبة أرضهم الأمر الذي دعا بعض القبائل لغزوهم طمعا في والماء والكلأ،يقول:(٢)

أَلَمْ تَرَ أن الله أنزل مُزنةً وَ عُفْرُ الظّباء في الكناسِ تقمَّعُ
فَخلّي للأذواد بين عوارضٍ وبين عرانينِ اليمامةِ مرتعُ
تَكَنَّفَنَا الأعداءُ من كُلِّ جانبٍ لينتزعوا عرْقاتنا ثم يرتعوا
فما جبنُوا أنّا نسدُّ عليهمُ وَ لكنْ لقوا ناراً تحسُّ وتسفعُ

وهذا عنترة بن شداد يخوض حربا في الشتاء ، فيقتل الأبطال ويترك جماجمهم لريح

---

(١) شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام، بشير يموت، المكتبة الأهلية، بيروت، ط١، ١٩٣٤م، ص٨٨ و فجاجا : سبلا ، جازره : يقطعه .

(٢) . ديوانه،ص٥٧ و المزنة : دفعة من المطر الشديد المفاجئ والعابر ، تسفع : تلفح.

الجنوب التي تغير من لونها، يقول:[١]

قِفي وَانظُري يا عَبلَ فِعلي وَعايِني طِعاني إِذا ثارَ العَجاجُ المُكَدَّرُ

تَري بَطَلاً يُلقي الفَوارِسَ ضاحِكاً وَيَرجِعُ عَنهُم وَهوَ أَشعَثُ أَغبَرُ

وَلا يَنثَني حَتّى يُخَلّي جَماجِماً تَمُرُّ بِها ريحُ الجَنوبِ فَتَصفِرُ

ومن مظاهر ارتباط الحرب بفصل الشتاء في الشعر الجاهلي أن انتزع الشعراء كثيرا من الصور الفنية التي صوروا بها حروبهم وجيوشهم من عناصر البيئة الطبيعية للشتاء ، فمن ذلك تلك الصور التي شبه بها الشعراء الكتائب وسرعتها وشدتها بالريح تسوق السحاب. كما يبدو في قول معقل بن خويلد [٢]

فجاءوا عارضًا بردًا وجئنا كهيج الريح تقذف بالغمام

وقول: الأعشى :[٣]

ثم ولوا عند الحفيظة والصبر كما تطحر الجنوب الجهاما

وقول بشر بن أبي خازم :[٤]

فلما رأونا بالنسار كأننا نشاص الثريا هيجتها جنوبها

ويشبه أوس بن حجر الغبار الذي تثيره الخيل بالسرادق ترفعه الريح في يوم عاصف ، يقول:[٥]

فَما فَتِئَت حَتّى كَأَنَّ غُبارَها سُرادِقُ يَومٍ ذي رِياحٍ تَرَفَّعُ

كما ربط الشعراء الجاهليون بين صورة الجيش وبين السحب، يقول جساس ابن نشبة التميمي:[٦]

فلما دنوا صلنا ففرق جمعهم سحابتنا تندى أسرتهم دما

ففي البيت السابق تظهر صورة قوم الشاعر المحاربين؛ فهم سحابة حمراء واحدة متجمعة

---

(١) ديوانه، ص١١٤ و العجاج : الغبار ، تصفر : مجموعة من الأصوات.

(٢) شرح أشعار الهذليين، ص١٠٥

(٣) . ديوانه ، ص٣٩٩ و الجهام : السحاب لا ماء فيه .

(٤) . ديوانه، ص١٦

(٥) . ديوانه، ص٥٩ و السرادق : كل ما أحاط بشيء من حائط أو مضرب .

(٦) ديوان الحماسة، ص ٦٣

حينما يغيرون على أعدائهم وليسوا سحباً متفرقة مشتتة، ولكثرة النجيع الذي علق بأجساد أعدائهم فإن تلك السحابة ترشح بدمائهم لا بالمطر.

والجيش حينما يقبل على أعدائه فإنه كالسحب التي تدر عليهم الموت والهلاك، فهي تدر البرد الصرد والريح الصر، ثم تلقاهم السيوف ،فتكبهم في حياض الموتَ كبا، يقول هلالُ بن رزين:(١)

وأيقنت القبائل من جنابٍ وعامر أن سيمنعها نصير
أجادت وبل مدجنةٍ فدرت عليهم صوب ساريةٍ درور
فولوا تحت قطقطها سراعاً تكبهم المهندة الذكور

ويصور أبو خراش الهذلي وقع الجيش بأعدائهم مثل وقع السحب الماطرة موتا، قول:(٢)

فَأَثنوا يا بَني شِجعٍ عَلَينا وَحَقُّ اِبنَي شَعوبٍ أَن يُثيبا
فَسائِل سَبرَةَ الشِجعِيَّ عَنّا غَداةَ تَخالُنا نَجواً جَنيبا

وقد أكثر الشعراء من تشبيه أسلحتهم بالمطر ، فهذا أبو كبير الهذلي يصور النبل بالمطر الشديد، يقول:(٣)

وَإِذا الكُماةُ تَعاوَروا طَعنَ الكُلى نَدرَ البِكارَةِ في الجَزاءِ المُضعَفِ
وَتَعاوَروا نَبلاً كَأَنَّ سَوامَها نَفَيانُ قَطرُ في عَشِيٍّ مُرِدِفِ

ويشبه المعطل الهذلي أيضا النبل بالمطر في قوله:(٤)

وَدارٍ مِنَ الأَعداءِ ذاتِ زَوائِدٍ طَرَقنا وَلَم يَكبُر عَلَينا بَياتُها
تَواصَوا بِأَلّا تُقرَبَنَّ فَأُشعِلَت عَلَيهِم غَواشيها فَضَلَّت وَصاتُها
ضَمَمنا عَلَيهِم جانِبَيهِم بِحَلبَةٍ مِنَ النَبلِ يَغشى فَرَّهُم غَبَياتُها

---

(١) ديوان الحماسة، ص ٦٤ ومدجنة : الدجن ظل الغيم في اليوم المطير ، المهندة : المند سيف مصنوع من حديد .

(٢) ، ديوان الهذليين،ج٢،ص١٣٤ و الشجع : الشجاعة .

(٣) . شرح أشعار الهذليين،ص١٠٨٧ و مردف : اسم فاعل من أردف وهو المتقدم على صفوف الجيش ليلقوا الرعب في قلوب الأعداء .

(٤) شرح أشعار الهذليين،ص و غواشيها : الغاشية النازلة من خير أو شر .

فَأُبنا لَنا مَجدُ العَلاءِ وَذِكرُهُ وَآبوا عَلَيهِم فَلُّها وَشَماتُها

ويصور الحارث بن حلزة وقع سيوف قومه على رؤوس أعدائهم بوقع السحاب الماطر على البيت من الجلد، يقول:(١)

وحَسِبْتِ وَقْعَ سُيُوفِنا بِرُؤُوسِهِمْ وَقْعَ السَّحَابِ عَلَى الطِّرَافِ المُشْرَجِ

ويصور المخبّل قومه بالسحب التي تمطر دما، يقول:(٢)

وَإِنّا أُناسٌ تَعرِفُ الخَيلُ زَجرَنا إِذا مَطَرَت سُحبُ الصَوارِمِ بِالدَمِ

ويقول الحارث بن صريم الأصغر:(٣)

هَجَرنا لَبونَ الحَربِ لِلطالِبِ القِرى لَنَبلى فيمَن كانَ يَخبِطُنا عُذرا

وَكُنّا إِذا ما اِستَمطَرَ الناسُ رَعدَنا رَعَدنا فَأَمطَرنا مُثَقَّفَةً سُمرا

حَمَينا بِها جاراً وَنِلنا طَوائِلاً وَنِلنا بِها داراً وَحُزناً بِها وَفرا

نَجودُ بِها في كُلِّ يَوم كَريهَةٍ لِأَعدائِنا حَتّى يَدينوا لَنا قَسرا

ومن الصور المستقاة من البيئة الطبيعية لفصل الشتاء ، تصوير الجيش بالسيول التي جاشت، وطمت، وأغرق، وسحقت، وأهلكت، ويرى "أبو سويلم" في السيل مثالاً لصفات القدرة، والشمول، والتمكن، والسطوة(٤)، يقول المفضل النكري:(٥)

فَجاؤوا عارِضاً بَرِداً وَجِئنا كَسَيلِ العِرضِ ضاقَ بِهِ الطَريقُ

ويقول عنترة بن شداد:(٦)

وَسارَت رِجالٌ نَحوَ أُخرَى عَليهُمُ ال حَديدُ كَما تَمشي الجِمالُ الدَوالِحُ

إِذا ما مَشَوا في السابِغاتِ حَسِبتَهُم سُيولاً وَقَد جاشَت بِهِنَّ الأَباطِحُ

---

(١) المفضليات، ص ٢٦٥ والطراف: البيت من إلادم أي الجلد. المشرج: المدخلة عراه في بعضها وبمعنى المشدود وهو المراد في الصورة اللسان مادة "شرج" .

(٢) شعر بني تميم في العصر الجاهلي،عبد الحميد محمود المعيني، جامعة الملك سعود ، ١٩٨٢،ص١٢٥

(٣) شعر همدان وأخبارها في الجاهلية والاسلام، حسن عيسى أبو ياسين، دار العلوم للطباعة والنشر ،١٤٠٣هـ ١٩٨٣م، ص٢٤٧ و قرى الشيء : جمعه.

(٤) المطر في الشعر الجاهلي، أنور أبو سويلم، دار الجيل لبنان، بيروت، ط١، ١٩٨٧، ص١٣٦

(٥) . الاصمعيات، عبد الملك بن قريب بن عبد الملك الأصمعى أبو سعيد، تحقيق: أحمد محمد شاكر – عبد السلام محمد هارون، دار المعارف – مصر ، ط٥، بدون ص٢٠١

(٦) . ديوانه،ص ٤٣ و الأباطح : سهل أو أرض منبطحة فسيحة الأرجاء .

وهكذا ارتبط الشتاء في الشعر الجاهلي بالحرب ارتباطا وثيقا ، فكان زمن كثير من الحروب والغزوات التي برهن الشعراء من خلالها على شجاعتهم وقوتهم ، كما استمدوا منه كثيرا من صورهم الفنية في معرض تصويرهم لأسلحتهم وقوتهم .

المبحث الرابع

الشتاء والناقة

جاءت صورة الناقة في الشعر الجاهلي مثقلة بالرموز ، فهي رمز للجاهلي في صراعه من أجل الحياة، وهي أيضًا وسيلة انطلاق الشاعر وسبيل إلى تحقيق وجوده. وعندما كان الشاعر الجاهلي يصفها فإن وصفه يكون أُقرب إلى المثال منه إلى الواقع، فكانت بحق ناقة أسطورية ، (فلقد خلص الشاعر العربي القديم ناقته من قيد الواقع الثقيل وسحابها وخلع عليها مشاعره الإنسانية الأصيلة من حزن وشوق وحب وسواها، ثم مضى بودٍ كبيرٍ وجرأة غريبة إلى آخر الشوط فشبه الحبيبة بها).[١]

وقد حملت صورة الناقة في شعر الشتاء هذه الرموز والمشاعر التي خلعها الشاعر عليها ،فكانت الأداة التي صور من خلالها صراعه ونضاله من أجل الحياة في فصل الشتاء، لذلك فقد جاءت صورتها حاضرة في شعر الشتاء مرتبطة به من جهات عديدة ،فمن جهة ارتبطت الناقة بالخير والبركة والخصب والنماء الذي يأتي في فصل الشتاء ، فقد" تصور الجاهلي السماء ناقة تحلب، وأن المطر هو در هذه الناقة "[٢]. وقد بدا هذا التصور كثيرا في الشعر الجاهلي، فهذا دريد بن الصمة يشير إلى فكرة الحلب والإدارة بقوله:[٣]

غَداةَ رَأَونا بِالغَريفِ كَأَنَّنا حَبِيٌّ أَدَرَّتهُ الصَبا مُتَهَلِّلُ

ويقول الحادرة:[٤]

كَغَريضِ سارِيَةٍ أَدَرَّتهُ الصَبا مِن ماءِ أَسجَرَ طَيِّبِ المُستَنقَعِ

ويقول المسيب بن علس:[٥]

أَو صَوبُ غادِيَةٍ أَدَرَّتهُ الصَبا بِبَزيلِ أَزهَرَ مُدمَجٍ بِسَياعِ

---

(١) الرحلة في القصيدة الجاهلية، وهب رومية، بيروت ، لبنان، الشركة المتحدة، ط٣، ١٩٨٢م، ص١٧٦.

(٢) . الإبل في الشعر الجاهلي، د. أنور أبو سويلم ،دار جرير، الأردن، ط١، ٢٠١٥م، ص٢٦٣.

(٣) . ديوانه،ص١٤٥ والغريف : ماء بين الشجر .

(٤) . ديوانه،ص٣٠٦ و الغريض : ماء المطر أو الماء الذي يورد باكرا .

(٥) . المفضليات ،ص٧١ و الغادية : السحابة تنسأ وتمطر غدوة ، البزل : بزل الشراب أي ثقب إناءه ليسيل .

فالماء في الأبيات السابقة يشبه حليب الناقة، إذ تحلب السماء لتدرّ بالماء، وكأن السماء ناقة تدر اللبن على وليدها.

كما أن ارتباط الناقة بالخصب والنماء في فصل الشتاء، بدا في إسقاط الشعراء صفة الإلقاح والخصوبة بين الناقة والفحل على صورة السحب التي تلقح بعضها، لتلد الماء الغزير، يقول أبو دؤاد الايادي:(١)

وغيث توسّن منه الريا ح جونا عشارا وعونا ثقالا
إذا كركرته رياح الجنو ب ألقحن منه عجافا حيالا

ويظهر لنا البيتان أن السحب نوق ألقحتها الرياح بالغيث الذي تحمله، وأن من تلك النوق منُ ألقحت من قبل وأنتجت، وأنَّ منها من ألْقحت وأتى عليها عشرة أشهر من حملها فهي سود ثقال لكثرة ما تحمل في بطنها من حمل.

وللسحبِ كما للنوق جوف عظيم تحمل فيه أجنتها، وهي في السحب (قطرات الماء)، فجوفها يكبر كما يكبر بطن النوق حينما تحمل، يقول المتنخل:(٢)

هَل هاجَكَ اللَيلَ كَليلٌ عَلى أَسماءَ مِن ذي صُبُرٍ مُخيلِ
أَنشَأَ في العَيقَةِ يَرمي لَهُ جوفُ رَبابٍ وَرِهٍ مُثقَلِ
فَالتَطَّ بِالبُرقَةِ شُؤبوبُهُ وَالرَعدُ حَتّي بُرقَةَ الأَجوَلِ

ويشبه أبو ذؤيب الهذلي السحب المحملة بالمطر بالمخاضِ الحواملِ السود التي أوهنها الحمل، فتركها الرعاة حينئذ ثمة في مراعيها حتى تستريح وتضع أحمالها، يقول:(٣)

رَأَيتُ وَأَهلي بِوادي الرَجيعِ في أَرضِ قَيـلَةَ بَرقـاً مُليـحـا
يُضيءُ رَباباً كَدُهمِ المَخـا ضِ جُلِّلنَ فَوقَ الوَلايا الوَلـيحا
كَأَنَّ مَصاعيبَ غُلبَ الرِقا بِ في دارِ صِرمٍ تَلاقى مُريحا

---

(١) . ديوانه،٣٣١ و توسن : (فعل) توسن الرجل إتيانه وهو نائم ، عشار : جمع عشراء وهي ناقة مضى على حملها عشرة أشهر ، الكركرة : (اسم) صوت الضحك والتغرب فيه .

(٢) ديوان الهذليين،ج٢،ص٦ و الكليل : الضعيف أو المتعب ، العيقة : (العيق) النصيب من الماء ، البرقة : القليل من الدسم ، شؤبوبه : الجمع شآبيب والشؤبوب الدفعة من المطر .

(٣) ديوان الهذليين،ج١،ص١٢٩ الرجيع: ماء لهذيل. المليح: الذي يلمع. قيلة: مكان. الولية: البرذعة. لوليحة: العديلة. الدهم: السود.

ويشبه حميد بن ثور الهلالي أوائل السحب السود بالإبل الكلبية العشار التي تغمز في مشيها وتظلع من كثرة أحمالها، يقول:(١)

كَأَنَّ الرَّبابَ الدُّهمَ في سَرَعانِهِ عِشارٌ مِن الكَلبيةِ الجونِ ظُلَّعُ

ومن جهة أخرى ارتبطت الإبل بالكرم في فصل الشتاء، فقد كانت الإبل هي أغلى ما يقدمه الكريم في فصل الشتاء، لذلك كانوا يصفونها وصفا مفصلا، كما يصفون آلة الذبح، وطريقة الذبح، ووصف القدور والطبخ، كما يبدو في قول حاتم الطائي((٢)) :

وَفِتيانِ صِدقٍ ضَمَّهُم دَلَجُ السُرى عَلى مُسهَماتٍ كَالقِداحِ ضَوامِرِ
فَلَمّا أَتَوني قُلتُ خَيرُ مُعَرَّسٍ وَلَم أطرَحِ حاجاتِهِم بِمَعاذِرِ
وَقُمتُ بِمَوشِيّ المُتونِ كَأَنَّهُ شِهابُ غَضاً في كَفِّ ساعٍ مُبادِرِ
لِيَشقى بِهِ عُرقوبُ كَوماءَ جَبلَةٍ عَقيلَةِ أُدمٍ كَالهِضابِ بَهازِرِ
فَظَلَّ عُفاتي مُكرَمينَ وَطابِخي فَريقانِ مِنهُم بَينَ شاوٍ وَقادِرِ
شَآمِيَةٌ لَم يُتَّخَذ لَهُ حاسِرُ ال طَبيخِ وَلا ذَمَّ الخَليطِ المُجاوِرِ
يُقَمِّصُ دَهداقَ البَضيعِ كَأَنَّهُ رُؤوسُ القَطا الكُدرِ الدِقاقِ الحَناجِرِ
كَأَنَّ ضُلوعَ الجَنبِ في فَوَرانِها إِذا اِستَحمَشَت أَيدي نِساءٍ حَواسِرِ
إِذا اِستُنزِلَت كانَت هَدايا وَطُعمَةً وَلَم تُختَزَن دونَ العُيونِ النَواظِرِ
كَأَنَّ رِياحَ اللَحمِ حينَ تَغَطمَطَت رِياحُ عَبيرٍ بَينَ أَيدي العَواطِرِ

فالشاعر يصف لحظة عقر الإبل، لإكرام الضيف ، وما جرى في أثناء ذلك وبعده شاملا في وصفه كل فعل في ذلك الموقف، كالشوي والطبخ، ولم ينس تصوير قطع اللحم وهي تفور داخل القدر ، وتشبيهها بصور طريفة ؛ مرة برؤوس القطا ، وأخرى بأيدي نساء حواسر ، ثم

---

(١) . ديوان حميد بن ثور الهلالي ، صنعة عبد العزيز الميمني ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ،). ١٩٥١ م ، ص ١٠٧و الجون : الأسود تخالطه الحمرة .

(٢) ديوان حاتم ص٥٣، و الدلج : السير في أول الليل ، السرى : سير عامة الناس ،المعرس : مكان ينزل فيه المسافر اخر الليل ، معاذر : عذر وحجة يتأسف بها لرفع اللوم والحرج ، الشهاب : شعلة ساطعة من نار .

إطعامها وإهدائها ، وعدم خزنها عن الحاضرين، ولم يغفل التعبير عن شعوره ، عندما شبه رائحتها برائحة العطر .

و يذكر الأعشى أن انقطاع اللبن كان سببا دفعه لعقرها لإطعام ضيفه ، و وصف ما يفعله السيف بها حين يقدم على نحرها ، ولم يرده عن ذلك عتق ولا كرم، مهما كانت مكانة الناقة، وذلك تقديرا للضيف، ويتباهى أكثر حين يشبه اثار الدماء حولها في الأرض بنقوش ثياب منشورة ، تعبيرا عن فخره بذلك، فقال :(١)

إِذا اِحمَرَّ آفاقُ السَماءِ وَأَعصَفَت رِياحُ الشِتاءِ وَاِستَهَلَّت شُهورُها

تَرَي أَنَّ قَدري لا تَزالُ كَأَنَّها لِذي الفَروَةِ المَقرورِ أُمٌّ يَزورُها

مُبَرَّزَةٌ لا يُجعَلُ السَترُ دونَها إِذا أُخمِدَ النيرانُ لاحَ بَشيرُها

إِذا الشَولُ راحَت ثُمَّ لَم تَفِدِ لَحمَها بِأَلبانِها ذاقَ السِنانَ عَقيرُها

يُخَلّى سَبيلُ السَيفِ إِن جالَ دونَها وَإِن أُنذِرَت لَم يَغنَ شَيئاً نَذيرُها

كَأَنَّ مُجاجَ العِرقِ في مُستَدارِها حَواشي بُرودٍ بَينَ أَيدٍ تُطيرُها

وَلا نَلعَنُ الأَضيافَ إِن نَزَلوا بِنا وَلا يَمنَعُ الكَوماءَ مِنّا نَصيرُها

وتتكرر هذه الصورة التي في الشعر الجاهلي، يقول سحيم مفتخرا بأنهم يعقرون النوق السمينة في فصل الشتاء حين يتفشى الجوع ويعم القحط : (٢)

هُمُ يَعقِرونَ الكومَ في كُلِّ لَزبَةٍ إِذا الشَّولُ راحت مُقشعِرّاً ضُروعُها

ويقول حسان بن ثابت:(٣)

وَأَنشُدُكُم وَالبَغيُ مُهلِكُ أَهلِهِ إِذا ما شِتاءُ المَحلِ هَبَّت زَعازِعُه

إِذا ما وَليدُ الحَيِّ لَم يُسقَ شَربَةً وَقَد ضَنَّ عَنهُ بِالصَبوحِ مَراضِعُه

وَراحَت جِلادُ الشَولِ حُدباً ظُهورُها إِلى مَسرَحٍ بِالجَوِّ جَدبٍ مَرابِعُه

أَلَسنا نَكُبُّ الكومَ وَسطَ رِحالِنا وَنَستَصلِحُ المَولى إِذا قَلَّ راقِعُه

---

(١) . ديوانه،ص٢٧١ و المقرور : الذي أصابه القر أي البرد ، الشول : البقية من اللبن في الضرع ، السنان : كل ما يسن عليه السكين ، عقيرها : العقير هو صوت البكاء المرتفع .

(٢) . ديوانه،ص٥٢ و الزبة : الشدة والأزمة.

(٣) . ديوانه،ص٣٢٠ و المحل : الأجدب الضي انقطع عنه المطر ، زعازعه : رياح شديدة تحرك الأشياء وتقلع الشجر بشدة هبوبها.

فالشاعر يفتخر بأنه إذا اشتد الزمان والقحط في فصل الشتاء ،وبلغ المحل أقصاه، وراحت النوق الجليدة قد احدودبت ظهورها هزلا وجوعا ،بأنهم ينحرون النوق الكوم، ويستصلحون ابن العم إذا قل ماله ، ويعقرون النوق الضخمة العالية السنام .

وترثي جنوب الهذلية أخاها عمرا مذكرة بكرمه فتقول: (١)

وَلَيلَةٍ يَصطَلي بِالفَرثِ جازِرُها يَختَصُّ بِالنَقَرى المُثرينَ داعيها

لا يَنبَحُ الكَلبُ فيها غَيرَ واحِدَةٍ مِنَ العِشاءِ وَلا تَسري أَفاعيها

أَطعَمتَ فيها عَلى جوعٍ وَمَسغَبَةٍ شَحمَ العِشارِ إِذا ما قامَ باغيها

فالمرثي كريم ينحر النوق العشار لأضيافه، ويطعمهم شحمها ولحمها في ليلة من ليالي الشتاء شديدة البرودة، فلشدة برودتها ترتجف الأيدي والأرجل حتى أن الجازر يدخل يده في كرش ذبيحته متلمسا الدفء.

وترثي الخنساء خاها، فتصفه بأنه كان ينحر النوق في الشتاء قائلة: :(٢)

وَإِنَّ صَخراً لَوالِينا وَسَيِّدُنا وَإِنَّ صَخراً إِذا نَشتو لَنَحّارُ

وَإِنَّ صَخراً لَمِقدامٌ إِذا رَكِبوا وَإِنَّ صَخراً إِذا جاعوا لَعَقّارُ

فالمرثي كريم ينحر النوق في فصل الشتاء، وخاصة إذا عم الجوع بين الناس.

وهذا كردم بن شعبة الفزاري يفتخر بأنه ينحر النوق لأضيافه ويقدم لهم أفضل أجزاء لحمها، وهو شحم السنام ،يقول (٣):

هُـم المُطْعِمونَ سَديف العِشار والشَّحمَ في الليلة الباردهْ

---

(١) . شرح أشعار الهذليين،ص٥٨٢ و تصطلي : اصطلى أي عانى شدته ، الفرث : بقايا الطعام الراسب ، الفرث ، الشبعان ، مسغبة : مجاعة

(٢) . ديوانها، ص٥١ و المقدام ، الجريء لا يهاب الموت ، عقار ، مبالغة عاقر .

(٣) التذكرة السعدية في الأشعار العربية، محمد بن عبد الرحمن بن عبد المجيد العبيدي، تحقيق: عبد الله الجبوري، منشورات المجمع العلمي العراقي، مطابع النعمان، النجف، ١٣٩١ هـ / ١٩٧٢ م، ص ١٧٣، السديف : لحم السنام المقطع، العشار: الإبل التي مضى على حملها عشرة أشهر، الشحم : سنام الإبل.

وهذا حجر بن خالد الثعلبي يفتخر بأنه يقدم للضيف سنام الناقة في فصل الشتاء ، لما في سنامها من دهن يشعر الضيف بالدفء، يقول:(١)

ويحلب ضرس الضيف فينا إذا شتا سديف السنام تستريه أصابعه

ولم يكتفوا بنحر الإبل الكبيرة إذا انتابهم العسر والضيق في فصل الشتاء، بل تعدوها إلى ذبح فصائلها ، وإطعام الناس والضيفان ، يقول خفاف بن ندبة:(٢)

أَخي ثِقَةٍ إِذا الضَراءُ نابَت وَأَهلِ حَياءِ أَضياف وَنَحرِ
إِذا الحَسناءُ لَم تَرحَض يَدَيها وَلَم يُقصَر لَها بَصَرٌ بِسِترِ
قَروا أَضيافَهُم رَبَحاً بِبُحٍّ تَجيءُ بِعبقَرِيٍّ الوَدقِ سُمرِ

وهكذا يبدو لنا مما تقدم أثر العلاقة بين فصل الشتاء والناقة التي تنحر للأضياف والجائعين، فقد كان مجالا خصبا للفخر ، فالشعراء يفخرون بهذه الأفعال ، ويبالغون في التعبير عنها مبالغة شديدة ، ويحرصون على تفاصيلها ، بوصفها أقوى الدلائل على كرمهم.

أما العلاقة الأخيرة التي ارتبطت بها الناقة بفصل الشتاء عند الشعراء الجاهليين، فهي ناقة الميسر ، فقد كان العرب في الشتاء وعند شدة البرد وجدب الزمان وتعذر الأقوات على أهل الضر والمسكنة يتقامرون بالقداح على الإبل، ثم يجعلون لحومها لذوي الحاجة منهم والفقراء، يقول سنان المري:(٣)

وَقَد يَسَرتُ إِذا ما الشَولُ رَوَّحَها بَردُ العَشِيِّ بِشَفّانِ وَصُرّادِ
ثُمَّتَ أَطعَمتُ زادي غَيرَ مُدَّخِرٍ أَهلَ المَحلَّةِ مِن جارٍ وَمِن جادِ

وقد أكثر الشعراء الجاهليون من الفخر بالميسر في وقت الشتاء ، فالجاهليون كانوا يعتمدون على غيث السماء ، فإذا قلت الأمطار ، وأصيب الناس بالقحط والجدب ، انتشر الفقر بينهم وشاع الجوع ، لذلك افتخروا به عند الشتاء وقلة المطر ، يقول زهير:(٤)

---

(١) الحماسة بشرح التبريزي،ج١نص٨٦

(٢) شعره، ص ٥٠ و الربح : المغنم والفائدة ، الودق ، المطر شديده وهينه .

(٣) . الأصمعيات،ص٢٤٣ و الشفان : الريح الباردة ، صراد : ريح باردة تخالطها رطوبة أو غيم رقيق لا ماء فيه .

(٤) شعره،ص٢٤٧ و الأنواء :(النوء) العطاء والمطر الشديد.

أَيسارُ صِدقٍ ما عَلِمتُهُمُ عِندَ الشِتاءِ وَقِلَّةِ الأَنواءِ

وفي الشتاء ترتفع أثمان الجزور ، ويرتفع نصيب الأيسار فيها ، فنجدهم يفتخرون في هذا الظرف، ويشير إلى ذلك طرفة مفتخرا بقومه وكيف أنهم ييسرون ، ويدخلون الذي لهم عليه دين في الميسر ويغرمون عنه ، يقول:(١)

وَهُمُ أَيسارُ لُقمانٍ إِذا أَغلَتِ الشَتوَةُ أَبداءَ الجُزُر

لا يُلِحّونَ عَلى غارِمِهِم وَعَلى الأَيسارِ تَيسيرُ العَسِر

ويشير زهير بن أبي سلمى في مدح هرم بن سنان والحارث بن عوف وقومهما ، بأنهم يأخذون سمان الجزر ولا ينحرون إلا غاليه، ويمنحون أموالهم من يسألهم من المحتاجين في السنة الشهباء شديدة البرد، يقول:(٢)

إِذا السَنَةُ الشَهباءُ بِالناسِ أَجحَفَت وَنالَ كِرامَ المالِ في الجَحرَةِ الأَكلُ

رَأَيتُ ذَوي الحاجاتِ حَولَ بُيوتِهِم قَطيناً بِها حَتّى إِذا نَبَتَ البَقلُ

هُنالِكَ إِن يُستَخبَلوا المالَ يُخبِلوا وَإِن يُسأَلوا يُعطوا وَإِن يَيسِروا يُغلوا

وهذا سلامة بن جندل يشير مفتخرا إلى جوده وجود قبيلته من قصيدة بدأها بأسفه على شبابه، وكيف أن الجار والضيف والسائلين يسعدون بهم لكرمهم ومساعدتهم إياهم، وأنهم يشترون النوق المسنة بثمن غال ييسرون بها، يقول(٣):

قَد يَسعَدُ الجارُ وَالضَيفُ الغَريبُ بِنا وَالسائِلونَ وَنُغلي مَيسِرَ النيبِ

ويقول لبيد مفتخرا . في معلقته . بالميسر ، وأنه دعا ندماءه لنحر جزور أصحاب ميسر بأزلام متشابهة الأجسام ، وسهام الميسر يشبه بعضها بعضا، ويدعو بالقدح لنحر ناقة عاقر أو ناقة مطفل ، تبذل لحومها للجيران جميعهم :(٤)

وَجَزورِ أَيسارٍ دَعَوتُ لِحَتفِها بِمَغالِقٍ مُتَشابِهٍ أَجسامُها

أَدعو بِهِنَّ لِعاقِرٍ أَو مُطفِلٍ بُذِلَت لِجِيرانِ الجَميعِ لِحامُها

---

(١) ديوانه،ص٨٨

(٢) . شعره،ص٩٢ و سنة شهباء : ذات قحط وجدب ، يغلو : من الغلو أي المبالغة .

(٣) ، المفضليات،ص١٢٠

(٤) شرح المعلقات السبع، الحسين بن أحمد الزوزني، الدار العالمية، ١٩٩٣، ص٩٧ و مغالق : مفردها مغلق اسم أداة يغلق بها الباب ونحوه ، مطفل : ذات الطفل من الإنسان والحيوان .

فَالضَيفُ وَالجارُ الجَنيبُ كَأَنَّما هَبَطا تَبالَةَ مُخصِباً أَهضامُها

وقد ذكر لبيد الناقة العاقر لأنها تكون أسمن ، وذكر الناقة المطفل لأنها أنفس.

ويكون الميسر في النوق السمينة " في المنقيات" كما يقول طرفة :(١)

إنّي مِنَ القَومِ الَّذينَ إِذا أَزِمَ الشِتاءُ وَدوخِلَت حُجَرُه

يَوماً وَدونِيَتِ البُيوتُ لَهُ فَثَنى قُبَيلَ رَبيعِهِم قِرَرُه

رَفَعوا المَنيحَ وَكانَ رِزقَهُمُ في المُنقِياتِ يُقيمُهُ يَسَرُه

شَرطاً قَويماً لَيسَ يَحبِسُهُ لَمّا تَتابَعَ وِجهَةً عُسُرُه

تَلقى الجِفانَ بِكُلِّ صادِقَةٍ ثُمَّت تُرَدَّدُ بَينَهُم حِيَرُه

ويكون أيضا في الزاهقات، وفي الإبل التي عليها الأحمال ، كما يبدو من قول عوف بن عطية ابن الخرع مفتخرا :(٢)

إِمَّا تَرَيني قَد كَبِرتَ وَشَفَّني وَجَع يُقَرِّبُ في المَجالِسِ عُوَّدي

فلَقَد زَجَرتَ القِدحَ إذ هَبَّت صَباً خَرقاءُ تَقذِفُ بالحَظَارِ المُسنَدِ

في الزاهِقاتِ وَفي الحُمُولِ وَفي التي أَبقَت سَناماً كالغَرِي المُجسَدِ

فإِذا قَمَرتُ اللَّحمَ لَم أَنظُر بِهِ نَيئاً كَما هو ماؤهُ شَرقَ الغَدِ

ويكون أيضا في النوق العشار العظام كما علباء بن أرقم: (٣)

وَإِذا العَذارى بِالدُخانِ تَقَنَّعَت وَاِستَعجَلَت نَصبَ القُدورِ فَمَلَّتِ

دَرَّت بِأَرزاقِ العِيالِ مَغالِقٌ بِيَدَيَّ مِن قَمَعِ العِشارِ الجِلَّةِ

(١) . ديوانه،ص١٣٢

(٢) . الأصمعيات،ص١٩٥ و خرقاء :الخرقاء من الريح شديدة الهبوب ، الحظار : ضرب من عدو الدواب.

(٣) . الأصمعيات،ص١٨٣ و تقنعت : (تقنع) تغشى بثوب ، الجلة : الجمع جلال وهي البعر والروث .

المبحث الخامس

الشتاء والثور الوحشي

من الصور التي لجأ إليها الشعراء في تصوير معاناتهم في أيام الشتاء صورة الثور الوحشي، وما تمثله هذه الصورة من مدلولات مختلفة، فالشاعر في بعض قصائده يصف هذا الثور، وقد أصابته آثار المطر في ليلة شديدة السواد، وما يقابله في صباح اليوم التالي من صعوبات ومشاق من الصيادين، والنهاية لهذه المعاناة على أي وجه تكون.

ومن جملة صور هذا الثور عند الشعراء سأتناول ثلاث صور منفصلة: الأولى، كما أوردها النابغة، والثانية صورته عند الأعشى، والثالثة صورته عند لبيد ، بالإضافة إلى بعض الصور الجزئية عند سائر الشعراء، في محاولة لرسم صورة صادقة عن حياة الشاعر.

يقول النابغة يصف هذا الثور وقد قضى ليلته بين تساقط الأمطار ومدافعة البرد الشديد:(١)

باتَت لَهُ لَيلَةٌ شَهباءُ تَسفَعُهُ بِحاصِبٍ ذاتِ إِشعانٍ وَأَمطارِ
وَباتَ ضَيفاً لِأَرطاةٍ وَأَلجَأَهُ مَعَ الظَلامِ إِلَيها وابِلٌ سارِ

ويقول الأعشى يصف ناقته ويشببها بهذا الثور الخارج من الغابة التي اشتد عليها هطول الأمطار في هذه الليلة فخرج تسفع وجهه الرياح الشمالية شديدة البرودة، وبسبب الجوع الذي تركه فيه هذا الجو القاسي خرج ضعيفاً لا يقوى على شيء: (٢)

كَأَنّي وَرَحلي وَالفِتانَ وَنُمرُقي عَلى ظَهرِ طاوٍ أَسفَعِ الخَدِّ أَخثَما
عَلَيهِ دَيابوذٌ تَسَربَلَ تَحتَهُ أَرَندَجَ إِسكافٍ يُخالِطُ عِظلِما
فَباتَ عَذوباً لِلسَماءِ كَأَنَّما يُوائِمُ رَهطاً لِلعَزوبَةِ صُيَّما
يَلوذُ إِلى أَرطاةِ حِقفٍ تَلُفُّهُ خَريقُ شَمالٍ تَتَرُكُ الوَجهَ أَقتَما
مُكِبّاً عَلى رَوقَيهِ يَحفِرُ عِرقَها عَلى ظَهرِ عُريانِ الطَريقَةِ أَهيَما

ففي كلا الصورتين نجد وصفاً لهذا الثور القوي، فقد مرت عليه ليلة قاسية من ليالي الشتاء المشتملة على كل أنواع القسوة، من غزارة أمطار، وشدة برد ورياح، بالإضافة إلى عدم وجود

---

(١) . ديوانه ،ص٥٢ و الحاصب : الريح الشديدة تحمل الرياح والحصباء ، الوابل : مطر شديد القطر ضخمه .

(٢) . ديوانه ،ص١٨٨.١٨٩ و النمرق : الطنفسة التي فوق الرحل ، أخثم : من عرض أنفه أو غلظ ، الحقف : ما استطال واعوج من الرمل .

مأوى يحتمى فيه من قسوة تلك الهبات، وتعمل هذه الظروف مجتمعة في رسم صورة الجوع عند الثور، فهو لا يقوى على الخروج في هذه الأحوال بحثاً عن الطعام.

ولا يختلف ثور لبيد عمن سبقه ، إذ يقدمه الشاعر خائفا مذعورا لا يشعر بالأمن والطمأنينة، فقد شعر أن هناك صائدا يترصده، في ليلة باردة حيث الريح الشامية تسوق المطر المنهمر بشدة ، فأخذ يبحث عن مكان يلجأ إليه يكون له منجاة من عوامل الموت التي أحاطت به، فهو في صراع مرير مع الطبيعة الشتوية الباردة من جهة، ومع الصائد من جهة أخرى ، لذا يلجأ إلى شجر الأرطى ظانا بذلك أنه وصل إلى شيء من الأمان ، ونال بعضا من الأمن والهدوء، يقول(١):

أَذَلِكَ أَم نَزرُ المَراتِعِ فادِرٌ أَحَسَّ قَنيصاً بِالبَراعيمِ خاتِلا
فَباتَ إِلى أَرطاةِ حِقفٍ تَضُمُّهُ شَآمِيَةٌ تُزجي الرَبابَ الهَواطِلا
وَباتَ يُريدُ الكِنَّ لَو يَستَطيعُهُ يُعالِجُ رَجّافاً مِنَ التُربِ غائِلا

ثم تبدأ المعاناة عند الثور، فبعد ذلك الجوع والمطر الذي لم يمكنه من الأمن والاستقرار في ليلته، قدم الصائد الخبير يصحب الكلاب الجائعة المتحفزة للقتال، يقول النابغة: (٢)

حَتّى إِذا ما انجَلَت ظَلماءُ لَيلَتِهِ وَأَسفَرَ الصُبحُ عَنهُ أَيَّ إِسفارِ
أَهوى لَهُ قانِصٌ يَسعى بِأَكلُبِهِ عاري الأَشاجِعِ مِن قُنّاصِ أَنمارِ
مُحالِفُ الصَيدِ هَبّاشٌ لَهُ لَحِمٌ ما إِن عَلَيهِ ثِيابٌ غَيرُ أَطمارِ
يَسعى بِغُضفٍ بَراها فَهيَ طاوِيَةٌ طولُ اِرتِحالٍ بِها مِنهُ وَتَسيارِ

فهذا الثور يواجه قانصاً مدرباً من أشهر القبائل التي شاع فيها القنص، وهي قبيلة أنمار، تصحبه في هذه الرحلة كلاب أضعفها واوجعها طول التنقل معه.

أما الأعشى فقد أرسل إلى ذلك الثور صائداً من بني بكر، تصحبه كلابه الجائعة القوية المتهيجة للقتال، ويشبهها بمجموعة النحل عندما تهاجمها الدبر، بقول: (٣)

فَلَمّا أَضاءَ الصُبحُ قامَ مُبادِراً وَحانَ اِنطِلاقُ الشاةِ مِن حَيثُ خَيَّما

---

(١) . ديوان لبيد ،ص٢٣٨.٢٤٠ فادر : المسن أراد الثور. الرباب : السحاب

(٢) . ديوانه ،ص٥٢.٥٤ و أشاجع : جمع شجاع ، أطمار : جمع طمر وهي الأثواب المهترئة .

(٣) . ديوانه ،ص١٨٨.١٨٩ الخشرم : جماعة النحل والزنابير الواحدة خشرمة .

فَصَبَّحَهُ عِندَ الشُروقِ غُدَيَّةً كِلابُ الفَتى البَكرِيُّ عَوفِ بنِ أَرقَما

فَأَطلَقَ عَن مَجنوبِها فَاِتَّبَعنَهُ كَما هَيَّجَ السامي المُعَسِّلُ خَشرَما

وهنا تكتمل صورة المعادلة عند الثور، فهو مع ما عاناه من قلة المرعى، وعدم وجود الغذاء الوافر الذي يذهب عنه تعب ليلته بالإضافة إلى صور البرد المختلفة. جاءه ذلك الصائد يجر كلابه الضاربة التي أجاعها طول الترحل، وهذا الصائد ليس من الهواة، بل هو حاذق ماهر، أحسن صنع قوسه، واختيار أكلبه، وهو مع ذلك كله من الذين تصيب سهامهم من الفريسة مقتلاً.

أما الثور عند لبيد فيجد الصياد في الصباح الباكر الذي ينقض عليه بكلابه المدربة ، ليجد الثور نفسه في مواجهة الموت وجها لوجه، يقول: (١)

فَأَصبَحَ وَاِنشَقَّ الضَبابُ وَهاجَهُ أَخو قَفرَةٍ يُشلي رَكاحاً وَسائِلا

عَوابِسَ كَالنُشّابِ تَدمى نُحورُها يَرَينَ دِماءَ الهادِياتِ نَوافِلا

ويصور الشاعر المعركة، وهذه المعركة أطرافها الثور الجائع الذي أضعفته قسوة تلك الليلة، وفي الطرف الآخر يقف القانص وكلابه، يقول النابغة: (٢)

حَتّى إِذا الثَورُ بَعدَ النَفرِ أَمكَنَهُ أَشلى وَأَرسَلَ غُضفاً كُلها ضارِ

فَكَرَّ مَحمِيَّةً مِن أَن يَفِرَّ كَما كَرَّ المُحامي حِفاظاً خَشيَةَ العارِ

فَشَكَّ بِالرَوقِ مِنهُ صَدرَ أَوَّلِها شَكُّ المُشاعِبِ أَعشاراً بِأَعشارِ

ثُمَّ اِنثَنى بَعدُ لِلثاني فَأَقصَدَهُ بِذاتِ ثَغرٍ بَعيدِ القَعرِ نَعّارِ

وَأَثبَتَ الثالِثَ الباقي بِنافِذَةٍ مِن باسِلٍ عالِمٍ بِالطَعنِ كَرّارِ

وَظَلَّ في سَبعَةٍ مِنها لَحِقنَ بِهِ يَكُرُّ بِالرَوقِ فيها كَرَّ إِسوارِ

حَتّى إِذا ما قَضى مِنها لُبانَتَهُ وَعادَ فيها بِإِقبالٍ وَإِدبارِ

اِنقَضَّ كَالكَوكَبِ الدُرّيِّ مُنصَلِتاً يَهوي وَيَخلِطُ تَقريباً بِإِحضارِ

فهذا الثور قد انقض على الكلاب بقرنيه، فمزقها كما يمزق النجار الخشب الذي تعمل منه القداح، وبعد انتصاره فرّ سعيداً بذلك النصر الذي حققه رغم تلك الصعاب.

---

(١) . ديوان لبيد ،ص٢٤٠.٢٣٨ و قفرة : أرض خلاء ، النشاب : صيغة مبالغة من نشب والنشاب رام بالنشاب .

(٢) . ديوانه ،ص٥٤.٥٢ و نعار : صيغة مبالغة من نعر أي صياح .

وينال الثور عند الأعشى ما ناله ثور النابغة إذ ينتصر على تلك الكلاب الضارية، ويجري محلقاً كما هي الحال في نجم الشعرى اللامع في الأرض المجدبة، يقول: (١)

وَأَنحى لَها إِذ هَزَّ في الصَدرِ رَوقَهُ كَما شَكَّ ذو العودِ الجَرادَ المُخَزَّما
فَشَكَّ لَها صَفحاتِها صَدرُ رَوقِهِ كَما شَكَّ ذو العودِ الجَرادَ المُنَظَّما
وَأَدبَرَ كَالشَعرى وُضوحاً وَنُقبَةً يُواعِنُ مِن حَرِّ الصَريمَةِ مُعظَما

فقد اتضحت معالم الصورة النهائية، فالثور مع ما عاناه من قسوة لم يستسلم لما أحاطه من مخاطر، بل قدم كل ما يستطيع من جهد وطاق، فكانت النهاية أن مزقت قرونه من وصله من تلك الكلاب، فارتدت عنه صرعى مضرجة بدمائها، وفر هارباً مبتهجاً بذلك النصر، فالشاعر يشبه أثره في هذه الكلاب بأثر نوء الشعرى الذي يترك الأرض جرداء لا نبات فيها.
أما الثور عند لبيد ، فيخوض معركة لا بد منها من أجل الحفاظ على حياته وبقائه ، فأخذ يدافع الكلاب المهاجمة بقرنيه، في صورة عميقة الدلالة والمعنى على إرادة الحياة، والإصرار على البقاء عند هذا الثور الذي كتب له النصر في هذا اللقاء، وآية نصره أن ترك الكلاب صرعى دامية، يقول: (٢)

فَجالَ وَلَم يَعكِم لِغُضفٍ كَأَنَّها دِقاقُ الشَعيلِ يَبتَدِرنَ الجَعائِلا
لَصائِدِها في الصَيدِ حَقٌّ وَطُعمَةٌ وَيَخشى العَذابَ أَن يُعَرِّدَ ناكِلا
قِتالَ كَمِيٍّ غابَ أَنصارُ ظَهرِهِ وَلاقى الوُجوهَ المُنكَراتِ البَواسِلا
يَسُرنَ إِلى عَوراتِهِ فَكَأَنَّما لِلَبّاتِها يُنحي سِناناً وَعامِلا
فَغادَرَها صَرعى لَدى كُلِّ مَزحَفٍ تَرى القَدَّ في أَعناقِهِنَّ قَوافِلا

وهذا الثور في النهاية يمثل ناقة الشاعر التي تجتاز الصعاب والفلوات لتصل إلى هدفها، يقول النابغة: (٣)

فَذاكَ شِبهُ قَلوصي إِذ أَضَرَّ بِها طولُ السُرى وَالسُرى مِن بَعدِ أَسفارِ

---

(١) . ديوانه ،ص١٨٨.١٨٩ و الصريم : صفة ثابتة للمفعول من صرم : مصروم أي مقطوع .
(٢) . ديوان لبيد ،ص٢٣٨.٢٤٠ و الشعيل : الجمع شعائل وشعل والشعيل المشتعل ، اللبات : مفردها لبة وهي موضع القلادة من العنق .
(٣) . ديوانه ،ص٥٢ و القلوص : القلوص من الإبل الفتية المجتمعة الخلق .

ويقول الأعشى: [١]

فَذَلِكَ بَعدَ الجَهدِ شَبَّهتُ ناقَتي إِذا الشاةُ يَوماً في الكِناسِ تَجَرثَما

ويقول لبيد:[٢]

أَذَلِكَ أَم نَزرُ المَراتِعِ فادِرٌ أَحَسَّ قَنيصاً بِالبَراعيمِ خاتِلا

إن هذا الثور المثابر القوي الذي لم يستسلم لما أحاط به من أهوال بل تصدى لها حتى انتصر عليها هو صورة عن ناقة الشاعر القوية التي تخترق القفار حتى تصل مقصد الشاعر بعد هذه الرحلة المضنية.

ولعل الشاعر يكنى عن الناقة بشخصيته هو، وهذه الناقة تشبه الثور، ثم لا يلبث الشاعر أن يتناسى المشبه ويستطرد في الحديث عن المشبه به الثور القوي الذي احتمل قسوة الشتاء وجدبه من ناحية، وشدة أمطاره وبرده من ناحية أخرى. فالشاعر يريد أن يبرز صبره على قسوة الأحداث التي واجهها في تلك الشهور والبيئات، فاستعار صورة الثور وما لاقاه من القانص والكلاب ليعبر عن تلك التجربة. وبذلك استطاع تصوير الصعوبات التي واجهته في شتائه القاسي.

وتتكرر هذه الصورة عند الشعراء الجاهليين، فنجدها عند لبيد في معلقته، فهو يتحدث عن بقرة وحشية خرجت تبحث عن وليدها في الصباح، بعد أن نفضت عن نفسها ما علق بها من أتربة بسبب الندى والمطر الغزير في تلك الليلة. يقول ذاكراً صفات هذه الليلة الممطرة من ليالي الشتاء: [٣]

باتَت وَأَسبَلَ واكِفٌ مِن ديمَةٍ يُروي الخَمائِلَ دائِماً تَسجامُها

يَعلو طَريقَةَ مَتنِها مُتَواتِرٌ في لَيلَةٍ كَفَرَ النُجومَ غَمامُها

تَجتافُ أَصلاً قالِصاً مُتَنَبِّذاً بِعُجوبِ أَنقاءٍ يَميلُ هُيامُها

وَتُضيءُ في وَجهِ الظَلامُ مُنيرَةً كَجُمانَةِ البَحرِيِّ سُلَّ نِظامُها

حَتّى إِذا اِنحَسَرَ الظَلامُ وَأَسفَرَت بَكَرَت تَزُلُّ عَنِ الثَرى أَزلامُها

---

(١) . ديوانه ،ص١٨٨

(٢) . ديوان لبيد ،ص٢٣٨.٢٤٠ فادر : المسن أراد الثور. الرباب : السحاب

(٣) . ديوانه ،ص٣٠٥ و الخمائل : جمع خميلة وهي الشجر الكثير الملتف .

فهذه البقرة الوحشية بعد أن أرهقتها الأمطار المتواصلة التي استمرت أياماً دون انقطاع، ما كان منها إلا أن التجأت إلى الأشجار لتختبئ تحت أغصانها، ولكن أنى لها ذلك، فهذه الأشجار لا تقيها المطر أو كثبان الرمل التي بدأت بالانهيار عليها. وعند الصباح أخذت هذه البقرة تنفض نفسها لتزيل ما علق بها من أتربة وبقايا المياه.

وتواجه في الصباح ذلك الصائد الماكر وأكلبه، فما كان منها إلا أن تصدت للكلاب بقرونها حتى ردتها صريعة ثم فرت منتصرة، وهو بذلك شبه ناقته التي يخترق بها الفلوات، ولعلها تشبه نفسه القوية المثابرة الصابرة على مشاق الحياة في أيام الشتاء القاسية.

وتتكرر صورة هذا الشتاء القاسي عند عبيد بن الأبرص، فهو يشبه ناقته بذلك الثور الوحشي الذي ألهبه برد رياح الشتاء الشمالية القارصة، يقول [١] :

أَو شَبَبٌ يَحفِرُ الرُخامى تَلُفُّهُ شَمأَلٌ هُبوبُ

فهذا الثور يعاني من هذه الأجواء القاسية التي لم ترحمه، فقد هبت عليه بكل ما تحمله من قسوة وشدة، فعصفت به الرياح، وأصابته مياه الأمطار، وتركه الجوع ضعيفاً لا يقوى على شيء، لكنه مع هذا كله قوي لا يعرف اليأس، فكان النصر في النهاية حليفه على كل تلك الظروف التي أحاطته.

ويذكر الأعشى كذلك برد تلك الليلة وما فيها من رياح وبرد يقتم لون الوجه لشدته ولما فيه من أتربة وكيف صبت كل حمولتها على ذلك الثور الملتجئ إلى إحدى الأشجار يقول الأعشى:[٢]

كَأَنَّها طــاوٍ تَضَيَّفَهُ ضـرَ بُ قِطارٍ تَحتَهُ شَمأـــل
باتَ يَقولُ بِالكَثيبِ مِنَ الـ ـغَبيَةِ أَصبِح لَيلُ لَو يَفعَل
مُنكَرِساً تَحتَ الغُصونِ كَما أَحنى عَلى شِمالِهِ الصَيقَل

ويصور الأسود بن يعفر الثور الوحشي الذي قضى ليلته يبحث عند الدفء في ليلة ماطرة شديدة البرودة ، فأخذ يلوذ بالأرطى ويحتمي بها، يقول:[٣]

---

(١) . ديوانه ،ص٣٠ و الشبب : الشاب كمن الثيران والغنم .

(٢) . ديوان الأعشى،ص٣١٥. مكنرسا مندسا الصقيل الذي يشحذ السيوف

(٣) . ديوان الأسود بن يعفر،ص٤٠

كأنه ناشطٌ هاج الكلابُ به من وحش خَطمة في عرنينه خنسُ
بانت عليه من الجوزاء أسميَةٌ وقيل بالسبَط العاميّ يَمترسُ
ثم أتى دف أرطاةٍ بحَنينَةٍ من الصريمة أواه لها الدّلسُ

ويصف عبيد بن الأبرص ثوراً على قسوة الشتاء وشدة أمطاره حتى جاء الربيع فرعى روضة أصابتها أمطار الولي، فنقعت الأرض وأصابتها بالبلل وامتد أثر هذه الأمطار فكسا الأرض خضرة وجمالاً، يقول [١]:

باتَت عَلَيهِ لَيلَةٌ رَجَبِيَّةٌ نَصباً تَسُحُّ الماءَ أَو هِيَ أَسوَدُ
يَنفي بِأَطرافِ الأَلاءِ شَفيفَها فَغَدا وَكُلُّ خَصيلِ عُضوٍ يُرعَدُ
كَالكَوكَبِ الدِرّيءِ يَشرَقُ مَتنُهُ خَرِصاً خَميصاً صُلبُهُ يَتَأَوَّدُ
في رَوضَةٍ ثَلَجَ الرَبيعُ قَرارَها مَولِيَّةٍ لَم يَستَطِعها الرُوَّدُ

فهو يصف ثوراً مر على تلك الروضة التي نمت فيها النباتات بفعل أمطار الوسمي، وزادت في قوتها أمطار الولي الغزيرة التي نفعت الأرض، فظهرت بذلك المظهر الخلاب الذي دفع الشاعر للتغني بها، فاقتات عليها الثور، وطرد ما عاناه من قسوة لياليه الباردة.

ويصف النابغة البّرد الذي سقط بفعل نوء الجوزاء فأصاب ذلك الثور، وقد كان هذا البّرد شديد القسوة شديد التماسك، فزاد من معاناته، يقول [٢]:

سَرَت عَلَيهِ مِنَ الجَوزاءِ سارِيَةٌ تُزجي الشَمالُ عَلَيهِ جامِدَ البَرَدِ

ويحدد في صورة أخرى بأنها ليلة من جمادى شديدة المطر ، يقول:[٣]

أَو ذو وُشومٍ بِحَوضى باتَ مُنكَرِساً في لَيلَةٍ مِن جُمادى أَخصَلَت دِيَما

بينما يذكر بشر بن أبي خازم بأنها كانت ليلة رجيبية شديدة البرودة شديدة الريح غزيرة المطر ، يقول خازم:[٤]

بِأَدماءَ مِن سِرِّ المَهارى كَأَنَّها بِحَربَةَ مَوشِيُّ القَوائِمِ مُقفِرُ

---

(١) . ديوانه ،ص٦٠

(٢) . ديوانه ،ص٣١

(٣) . ديوانه ،ص ص١٠٣

(٤) . ديوان بشر بن أبي خازم ،ص٨٢ و مهارى : إبل مهرية نجائب تسبق الخيل .

فَباتَت عَلَيهِ لَيلَةٌ رَجَبِيَّةٌ تُكَفِّئُهُ ريحٌ خَريقٌ وَتُمطِرُ

ويقول زهير بن مسعود يذكر هذا الثور وما قاساه من برد وشدة ريح وحلكة ليل وقسوة أمطار [١]:

تَلُفُّهُ ريحٌ خَريقٌ وَلَي لٌ حالِكُ النُقبَةِ غَربيبُ
فَباتَ مقرروا مُكِباً عَلى روقَيهِ وَالماءُ شآبيبُ
كَأَنَّما الماءُ عَلى مَتنِهِ لؤلؤُ مَتنٍ جالَ مَثقوبُ

ويصور ضابئ بن الحارث البرجمي ثورا ألجأته قسوة الشتاء إلى بعض الأشجار ، لكن ريح الشمال لم تتركه، بل تبعته ورمته بما تحمله من حبات البرد التي تشبه استدارتها ولمعانها حبات اللؤلؤ ، فدفعته هذه الهبات من هذه السحب الليلية إلى ربوة ذات رملة عريضة قد انهارت بفعل هذه الأمطار المتساقطة، يقول:[٢]

فَباتَ إِلى أَرطاةِ حِقفٍ تَلُفُّهُ شَآمِيَّةٌ تُذري الجُمانَ المُفَصَّلا
يُوائِلُ مِن وَطفاءَ لَم يَرَ لَيلَةً أَشَدَّ أَذىً مِنها عَلَيهِ وَأَطوَلا
وَباتَ وَباتَ السارِياتُ يُضِفنَهُ إِلى نَعِجٍ مِن ضائِنِ الرَملِ أَهيَلا

ولعلي أزعم أن قصة الثور ارتبطت بحياة الشاعر الجاهلي فقد شاع وانتشر ليشمل الكثير من القصائد، ولهذا الارتباط دوره في حياة الشاعر، فهو يشكل نوعاً من الارتباط الأسطوري الذي يتعلق بقضية الحياة والموت، وهو مع هذا البعد الأسطوري ليشير من صوره إلى اعتقاد ديني قد عم العديد من الحضارات الإنسانية، فنحن نجد هذا الثور بقرونه الضخمة والكلاب تتبعه والصائد الحاذق في علم النجوم عند اليونان والرومان والهنود، فهذه المعتقدات قد تشكلت لدى الشاعر الجاهلي وارتبطت بوجدانه فرسم تلك الصور الحية لبيئته الصحراوية تلك.

بهذه الصور استطاع الشاعر تصوير معاناته بمختلف صورها، فالشتاء لم يكن طرفاً واحداً يواجه الشاعر، بل جاء مشتملاً على العديد من الصعوبات التي تريد العصف به، لكنه كان صابراً قوياً، فانتصر على قسوة الرياح والبرد، وعلى شدة الأمطار والسيول، ولم يقف عاجزاً

(١) . قصائد جاهلية نادرة،ص٩٣ و شأبيب : جمع شؤبوب وهو الدفعة من المطر .

(٢) . الأصمعيات، رقم ٦٣ و الحقف : استطال في اعوجاج ، أهيلا : من أهيل وهي التصغير .

أمام الجدب والقحط الذي كان يصيبه في تلك الأشتية المتتالية. فغامر بأمواله حتى يعلو ذكره، وصبر على قسوة تلك الأحداث، فما كان من الشتاء في النهاية إلا أن ولى عنه مكافئاً إياه على هذا الصبر بربيع مزهر كثير الرياض. تحلق فيه نفس الشاعر مأخوذة بذلك الخير الوفير الذي سيكون عتاده في أيامه المقبلة.

الفصل الثالث

الصورة الفنية للشتاء في الشعر الجاهلي

أولا :مفهوم الصورة في النقد العربي:

الصورة لغةً:

تفتقر المعاجم العربية إلى تعريف محدّد أو كاف لمدلول لغوي للفظة " صورة " على الرغم من ورود بعض الإشارات إلى ذلك في كتب البلاغة واللغة.

وقد ذكر الزمخشري في معجم أساس البلاغة مادة "صور" دون أن يتوسع في دلالتها، إذ يقول: "وصوّره فتصوّر وتصورت الشيء ولا أتصور ما تقول... ومن المجاز: هو يصور معروفه إلى الناس"(١). وهو كلام لا يُبلغ الفائدة لبيان المدلول اللغوي للفظة "صورة ".

وفي معجم لسان العرب لم يزد ابن منظور على سابقيه كلاما يحمل عمقا دلاليا للفظة "صورة" سوى أنه يشير إلى أن "صور: في أسماء الله تعالى: المصوّر؛ وهو الذي صوّر جميع الموجودات ورتبها وأعطى كل شيء منها صورة خاصة وهيئة متفردة يتميز بها على اختلافها وكثرتها"(٢) ثم يضيف: "يقال: صورة الفعل كذا وكذا أي هيئته، وصورة الأمر كذا وكذا أي صفته..."(٣).

أما في تاج العروس : " الصورة ترد في كلام العرب على ظاهرها وعلى معنى حقيقة الشيء وهيئته وعلى معنى صفته ... وأنّ الصورة ضربان ضرب محسوس يدركه الخاصة والعامة... والثاني معقول يدركه الخاصة دون العامة"(٤).

وجاءت الإشارة إلى الضربين في القرآن الكريم في قوله تعالى: "ولَقدْ خَلقْنَاكُم ثم صَوّرْنَاكم"((٥))وفي قوله تعالى : "وصَوَّركم فأحْسَنَ صُوَرَكُم"(٦).

---

(١) الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر، أساس البلاغة، بيروت .لبنان ، دار صادر ، ١٩٧٩. صور

(٢) لسان العرب مادة " صور " .

(٣) لسان العرب مادة " صور " .

(٤) تاج العروس مادة " صور "

(٥) الأعراف : ١١ .

(٦) التغابن : ٣ .

أي أن الصورة " إمّا مادية حسية وإما معنوية تُدرك بالعقل والتمثل الخيالي"[١].

الصورة في مفهوم النقد العربي القديم :

كان أقدم نص ورد مشيرا إلى مفهوم الصورة ما ذكره الجاحظ متحدثا عن الشعر من أن المعاني مطروحة... فإنما الشعر صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير"[٢] وهو يشير إلى المقدرة على التصوير وبراعة الشاعر وخياله في رسم صوره وتفرده، فالصورة عنده نسج جمالي متقن تشترك في بنائه مهارة الشاعر وشاعريته المتميزة.

ويتحدث قدامة بن جعفر عن الصورة وقد استعملها نصّا، ألا وهو قدامة بن جعفر عندما تحدث عن الشعر قائلاً : "المعاني للشعر بمنزلة المادة الموضوعة، والشعر فيها كالصورة..."[٣]. أي أنها الإطار الخارجي العام لشكل الشعر.

وبعد منتصف القرن الخامس الهجري يظهر عبد القاهر الجرجاني واضع نظرية النظم في البلاغة العربية ليعطي مفهوما يقترب من فهم الجاحظ للتصوير وقدامة في فهمه للمعاني مادة للشعر، فيقول: "ومعلوم أن سبيل الكلام سبيل التصوير والصياغة، وأن سبيل المعنى الذي يُعبر عنه، سبيل الشيء الذي يقع التصوير والصوغ فيه، كالفضة والذهب يُصاغ منها خاتم أو سوار"[٤].أي "أن التصوير والصياغة سبيلا الكلام الفني، وأن المعنى مادة الصورة والصوغ الشعريين من الناحية الفنية"[٥] وأن اختلاف الصورة بين شاعر وآخر يعود إلى الشاعر نفسه وما يتمتع به من المهارة، مثل صانع السوار والخاتم من ذهب كان أو من فضّة تكون الصورة الأمثل والأجمل.

---

(١) التونجي، محمد، المعجم المفصّل في الأدب. دار الكتب العلمية، بيروت ، ١٩٩٩م .: ٢ / ٥٩١ .

(٢) الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر، كتاب الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، بيروت . لبنان، المجمع العلمي العربي الإسلامي ، ط٣ ، ١٩٦٩،: ٣ / ١٣١ .

(٣) نقد الشعر ، قدامة بن جعفر ، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي. دار الكتب العلمية ، بيروت ، د. ت: ٦٤ – ٦٥

(٤) دلائل الإعجاز عبد القاهر الجرجاني، ، تصحيح الشيخ محمد عبدة والشيخ محمد محمود الشنقيطي. ط دار المعرفة ، بيروت، ١٩٧٨م: ١٩٦ . وينظر : ٣٨٨ – ٣٨٩ .

(٥) مستقبل الشعر وقضايا نقدية عناد غزوان،. دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ١٩٩٤م ،ص ١١٦.

ومهما اختلفت الآراء فما أبداه عبد القاهر يصلح أن يكون نواة لما استقر عليه المصطلح النقدي للصورة لدى المحدثين، والصورة عنده ليست الشيء نفسه وإنما هي مميزاته التي تميزه من غيره، وقد تكون هذه المميزات في الشكل أو في المضمون(١)، فضلا عن تركيزه على الناحية الجمالية وإخضاع الصورة للذوق الفني، لأن المادة إذا عُرِضتْ في صورة جميلة بدت رائعة تخطف الألباب، وهي نفسها إذا عُرِضَتْ في صورة قبيحة ذهبت جودتها(٢).

وأخيرا لا بدّ من الإشارة إلى آراء نقاد آخرين أدلوا بدلائهم في بيان الرأي بصدد مفهوم الصورة، مثل أبي هلال العسكري، إذ جعل الصورة شرطا في البلاغة " لأن الكلام إذا كانت عباراته رثة ومعرضه خلقا لم يُسمَّ بليغا "(٣) ، وكذلك كان لناقد آخر من نقاد القرن السابع الهجري وهو القرطاجني رأيه في ذلك حينما جعل الصورة قائمة على أسس نفسية، وصلات ترتبط بالخيال وما يتركه من أثر في نفس المتلقي ضمن إدراكه لطبيعة الشعر الحسية ، من حيث أثره النفسي في حب الشعر أو النفور منه وذلك حسبما يذكر " بما يتضمن من حسن تخيّل له ومحاكاة مستقلة أو متصورة بحسن هيئة تأليف الكلام أو قوة صدقه أو قوة شهرته أو بمجموع ذلك "(٤) لأن الشعر بمفهومه وليد الانفعالات النفسية ومن قيام الشعر بوصف هذه الانفعالات تتولد المعاني الشعرية(٥).

وبهذا نكون قد قدمنا بعض آراء القدماء من النقاد ممن كان لهم رأي في مفهوم الصورة، وقد ظهر ترجيح ذلك المفهوم عند أكثر الدراسات بما جاء به عبد القاهر الجرجاني.

---

(١) الصورة الفنية في المثل القرآني ، محمد حسين علي الصغير: ، دار الهادي للنشر والتوزيع ، ١٩٩٢،ص٢٩ .

(٢) الصورة في شعر بشار بن برد ،عبد الفتاح صالح نافع. ، دار الفكر للنشر والتوزيع ، عمان ، ١٩٨٣م ،ص ٥٤

(٣) الصناعتين الكتابة والشعر ، أبو هلال العسكري،. تحقيق: محمد علي البجاوي و محمد أبو الفضل إبراهيم ،ط٢ مطبعة الباب الحلبي وشركاؤه ، د.ت .ص١٠٥

(٤) منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، حازم القرطاجي، تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجي. دار الكتب الشرقية، تونس، ١٩٦٦م: ٧١ص . وينظر :ص ٨٩ ، ٩٠

(٥) تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، إحسان عباس ، ، دار الأمانة ، بيروت ، ١٩٧١ : ص٥٤٣ .

الصورة في النقد العربي الحديث:

تعد الصورة الفنية عنصرا أساسيا في صنعة الشعر، إذ لا يمكن أن يكون هناك شعر بمعزل عنها، فالصورة ليست شيئا جديدا، والشعر العربي قائم على الصورة منذ أن وجد[١]، ولا نستطيع تصور العمل الفني مجردا من هذا العنصر، أو قائما على غير هذا الأساس.

والصورة على الرغم من مكانتها وأهميتها فإنها تعد من أكثر الاصطلاحات غموضا في النقد العربي، وذلك بسبب الخلط بين الأدب العربي الموروث والنقد الذي يدين في الغالب إلى الفكر والأدب الغربيين(٢)، لذلك تعددت دلالات الصورة واصطلاحاتها وأنواعها، وكان لكل باحث أو دارس تقسيمه الخاص به، حسب انتمائه الفكري، حتى ليحس القارئ وهو يجول بين هذه الدراسات والمباحث أن أمر التسميات قد أفلت من قبضة الضوابط والمقاييس، فهناك الصورة الحسية، والصورة الذهنية والجزئية والكلية[٣].

ويرى جابر عصفور أن النظر إلى الصورة يجب أن يقع من زاويتين تراعي كل منهما جانبا من جانبي الصورة، يتوقف الجانب الأول عند الصورة باعتبارها نوعا بلاغيا، وهي بمثابة انتقال أو تجوز في الدلالة لعلاقة مشابهة، كما يحدث في الكناية وأضرب المجاز المرسل، ويعالج الجانب الثاني طبيعة الصورة باعتبارها تقديما حسيا للمعنى[٤].

أما نصرت عبد الرحمن فقد ربط ـ في دراسته للصورة ـ بين معتقد الشاعر وشعره، إذ يرى أن معرفة معتقد الشاعر الجاهلي هي السبيل لكشف شعره، لأن الشعر رمز يلتقي فيه الباطن بالخارج، يُكوِّن الباطن الخارج بألوانه، والشاعر الجاهلي وثني ينظر إلى الأشياء نظرة تساوق معتقده، فيعكسها في صوره[٥].

---

(١) فن الشعر ، أرسطو ، ترجمة إحسان عباس، بيروت ـ لبنان، دار الثقافة ، ط٣ ، د.ت، ص ٢٣٠.

(٢) الصورة الفنية في النقد الشعري ، عبد القادر الرباعي، الرياض ـ السعودية، دار العلوم والطباعة والنشر، ط١، ١٩٨٤، ص٤٢.

(٣) الصورة الفنية في شعر الشماخ ، محمد علي ذياب، ، وزارة الثقافة، عمان الأردن، ٢٠٠٣، ص ١٧ ـ ٢٦. الصورة الفنية في الشعر الجاهلي في ضوء النقد الحديث، نصرت عبد الرحمن ، عمان ـ الأردن، مكتبة الأقصى، ١٩٧٦ ص٨-١٤.

(٤) الصورة في التراث النقدي والبلاغي، جابر عصفور، القاهرة ـ مصر، دار المعارف، دت، ص ٨-٩.

(٥)الصورة الفنية في الشعر الجاهلي، نصرت عبد الرحمن ، ص١٨٧.

وذهب البعض إلى ربط مصطلح الصورة بشكلها، على شاكلة ما فعل علي البطل الذي يعرف الصورة:" بأنها تشكيل لغوي، يكونها خيال الفنان من معطيات متعددة، يصف العالم المحسوس في مقدمتها"(١).

في حين ذهب آخرون إلى ربط الصورة بالعقل وعدها تشكيلاً عقلياً مثل الرباعي الذي يقول: إن الصورة في المفهوم الفني أية هيئة تثيرها الكلمات الشعرية بالذهن، شريطة أن تكون هذه الهيئة معبرة وموحية في آن(٢).

والحديث عن الصورة في الشعر العربي "هو دراسة موضوعية وفنية ، غايتها الكشف عن أصول هذه الصورة، وفهمها فهما صحيحا، وبيان وسائل الشعراء الفنية في ملاحظة العلاقات المختلفة التي تربط بين أطرافها المتناقضة، وخلق هذه العلاقات أحيانا، وتحويرها بما يجعل فيها على الرغم من النمطية والتكرار صورا فنية متجددة، ومتنوعة الرموز والإشارات(٣).

وسنحاول في الصفحات القادمة رصد صورة الشتاء في الشعر الجاهلي والوقوف على أشكالها البلاغية والنفسية.

التشكيل البلاغي :

لعل الصورة البلاغية التي تعتمد في بنائها على الأشكال البلاغية المختلفة من أكثر الصور شيوعا في الشعر الجاهلي، والسمة الغالبة على شعرنا العربي القديم عموما، إذ اعتبرها الجرجاني من الأصول التي تتشقق منها جل محاسن الكلام إن لم يكن كلها، وفي ذلك يقول:" وأوَّلُ ذلك وأوْلاه، وأحقّهُ بأن يستوفِيَهُ النظر ويتَقَصَّاه، القولُ على التشبيه و التمثيل و الاستعارة،

---

(١) الصورة في الشعر العربي حتى نهاية القرن الثاني الهجري ، علي البطل ، بيروت . لبنان ، دار الأندلس للنشر والتوزيع، ١٩٨٢ ، ص٣٠

(٢) الصورة في النقد الأوروبي ، عبد القادر الرباعي، مجلة المعرفة السورية، دمشق، عدد٢٠٤، سنة ١٩٧٩، ص٤٢

(٣) الشعر الجاهلي: قضاياه الفنية والموضوعية، إبراهيم عبد الرحمن ، بيروت . لبنان، دار النهضة العربية، ١٩٨٠، ص١٩٦.

فإن هذه أصولٌ كبيرة، كأنَّ جُلَّ محاسن الكلام إن لم نقل: كُلَّها متفرّعة عنها، وراجعة إليها، وكأنها أقطابٌ تدور عليها المعاني في مُتصرَّفَاتها، وأقطارٌ تُحيط بها من جهاتها.(١)"

وتتخذ صورة الشتاء أربعة أنواع أو أشكال بلاغية، هي:الصورة التشبيهية، والصورة الاستعارية، والصورة المجازية ، والصورة الكنائية.

أولا. الصورة التشبيهية:

يعرف ابن رشيق التشبيه بأنه " صفة الشيء بما قاربه وشاكله، ومن جهة واحدة أو جهات كثيرة لا من جميع جهاته؛ لأنه لو ناسبه مناسبة كلية لكان إياه " (٢)والصورة التشبيهية: هي الصورة التي يتجسم فيها المعنى على هيئة علاقة بين حدين (٣)، وهذه العلاقة التي تجمع بين المتماثلين قد تكون حسية. وقد تكون معنوية، وهي في الحالة الأولى لا تخلو من العلاقة المعنوية، وهي الحالة الأولى أو التماثل .كما يسميه عبد القادر رباعي– كامنة في النفوس والشعور (٤).

وقد استعمل الشعراء جميع ضروب التشبيه تقريبا في رسم صورهم ، فمن أنواعه: التشبيه المجمل المرسل وهو كل تشبيه ذكرت فيه الأداة وحذف منه وجه الشبه أو ما يستلزمه(٥)، ومن أمثلته قول أوس بن حجر (٦):

يَنْزِعُ جِلْدَ الْحَصَى أَجَشُّ مُبْتَرِكٌ كَأَنَّهُ فَاحِصٌ أَوْ لاَعِبٌ دَاحِي

فالشاعر يشبه المطر الذي يسوق كل شيء يعترضه على وجه الأرض من الحصى وغيره بالرجل الفاحص يضرب تراب الأرض فيفرقه، أو برجل داحٍ يلعب بالمدحاة.

---

(١) اسرار البلاغة،ص٩٢

(٢) العمدة في محاسن نقد الشعر وتمحيصه، ابن رشيق، أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني، شرح وضبط عفيف نايف حاطوم ، بيروت .لبنان ، دار صادر ، ط١ ، ٢٠٠٣ ، ص ٢٤١ .

(٣) عبد الرحمن، نصرت ،الصورة الفنية في الشعر الجاهلي ، ص ٨

(٤) الرباعي، الصورة الفنية في شعر أبي تمام ،ص١٦٤

(٥) انظر: الإيضاح في علوم البلاغة ، الخطيب أبو عبد الله بن زكريا بن محمد القزويني، تحقيق عبد المنعم خفاجي، دار الكتاب اللبناني – بيروت،د ت،ص ٣٧٣ ،٣٨٨

(٦) ديوان أوس بن حجر ، جمع وتحقيق محمد يوسف نجم ، دار صادر، بيروت ، ١٩٧٩،ص ١٦ وأجش: صفة مشبهة تدل على الثبوت من جش وجش المكان أي كنسه ونظفه.

ويصورعبد الله بن سلِمة الغامدي آثر رياح الشتاء الشديدة، حيث يشبه فعل الرياح وطمسها معالم ديار الأحبة، بآثار ذيل العروس وجرها له في صحن الدار، يقول:[١]

وَكأَنَّما جَرُّ الرَوامسِ ذيلَها في صَحنِها المعفوِّ ذَيلُ عَروسِ

ومن أمثلة هذا التشبيه ما يصور النار في وقت الشتاء ، كما في قول النابغة :[٢]

إلا إنما نيرانُ قَيس إذا اشتَوَوا لطارقِ ليلٍ مثلُ نارِ الحباحبِ

حيث شبه نيران قيس في ليالي الشتاء بنار الحباحب، ووجه الشبه محذوف يدل عليه السياق وهو يدل على الضآلة ، فالتعبير بصيغة الجمع (نيران يدل على الكثرة ، وطارق الليل يدل على الاهتداء، وإضافة النيران إلى قيس مدح لهذه القبيلة بالكرم، ودليل على شهرتها في هذا الوقت من السنة، وهي صورة حسية بصرية استمدها الشاعر من البيئة الطبيعية.

ومن هذا النمط من التشبيه ما يصور السيف والناقة معا في أثناء العقر لحظة قدوم الضيف في فصل الشتاء ، كما في قول حاتم الطائي :[٣]

فَلَمّا أَتَوني قُلتُ خَيرُ مُعَرَّسٍ وَلَم أطَرِح حاجاتِهِم بِمَعاذِرِ

وَقُمتُ بِمَوشِيٍّ المُتونِ كَأَنَّهُ شِهابُ غَضاً في كَفِّ ساعٍ مُبادِرِ

لِيَشقى بِهِ عُرقوبُ كَوماءَ جَبلَةٍ عَقيلَةِ أُدمٍ كَالهِضابِ بَهازِرِ

شَآمِيَةٌ لَم يُتَّخَذ لَهُ حاسِرُ ال طَبيخِ وَلا ذَمَّ الخَليطِ المُجاوِرِ

فالشاعر شبه السيف بشهاب الغضى في البريق واللمعان، وهذا تشبيه جزئي يبين صفة في السيف وهي لمعانه وسرعته ، وكذلك تشبيه الناقة لحظة العقر ، حيث شبهها بالهضاب في الضخامة والارتفاع ، وهذا يدل على صفة في الناقة يجعل السخاء بها يرقى أعلى درجات الكرم ، ليوحي بالتشبيهين إلى سرعة إكرامه للضيف ، وجوده بأعتق الإبل وأنفسها .

---

(١) المفضليات، ص ١٠٦ والروامس : جمع رامسة وهي الريح التي تثير التراب وتدفن الآثار .

(٢) . ديوانه،ص٢٢٨ والطارق : الوافد ليلا ، نار الحباحب : ما تطاير من شر النار في الهواء من تصادم الحجارة أو نحو ذلك .

(٣) . ديوانه،ص١٩٨ والمتون : المتن من كل شيء ما صلب ظهره ، عرقوب : عضو من أعضاء رجل الدواب بين الساق والوظيف ، عقيلة : أحسن الشي فعقيلة الناقة أحسنها .

ومن أمثلته قوله أيضا مصورا اللحم في القدر: [1]

يُقَمِّصُ دَهداقَ البَضيعِ كَأَنَّهُ رُؤوسُ القَطا الكُدرِ الدِقاقِ الحَناجِرِ

كَأَنَّ ضُلوعَ الجَنبِ في فَوَرانِها إِذا اِستَحمَشَت أَيدي نِساءٍ حَواسِرِ

إِذا اِستُنزِلَت كانَت هَدايا وَطُعمَةً وَلَم تُختَزَن دونَ العُيونِ النَواظِرِ

بنى الشاعر هذه الصورة المتكاملة على التشبيه ، حيث يشبه قطع اللحم برؤوس القطا ، ثم يشبه ضلوع الجنب بأيدي النساء الحواسر، ثم يشبه رائحة اللحم برائحة العطر ، وكل هذه الصور صور حسية تقدم تصورا شكليا لقطع اللحم ، باستثناء تصوير رائحة اللحم التي تعبر عن مشاعر حاتم لحظة نضج اللحم وسروره بذلك ليقري ضيفه.

وقد استعمل الشعراء التشبيه المرسل المفصل في رسم صورهم :"هو التشبيه الذي ذكرت فيه الأداة ووجه الشبه" [2]ومن أمثلته قول الحطيئة يصف جفنة ضخمة رآها ملأى من القرى في وقت الشتاء وأيام البرد الشديد حين يقل الطعام ، يقول: [3]

يا جَفنَةً تَرَكَ اِبنُ هَوذَةَ خَلفَهُ مَلأى لِصُحبَتِهِ كَحَوضِ المُقتَرِي

كَعَريضَةِ الشيزى يُكَلَّلُ فَوقَها شَحمُ السَنامِ غَداةَ ريحٍ صَرصَرِ

فقد شبه الشاعر هذه الجفنة بحوض المقتري وبعريضة الشيزى في السعة والامتلاء ، حيث ملأها الكريم بالطعام الذي كلله بشحم السنام في وقت يقل فيه مثل هذا الطعام ، وقد بين التشبيه حجم هذه الجفنة بصورة محسوسة ، فالصفة في المشبه هي السعة في الحوض والعرض في الشيزى واضحة مدركة ، غير خافية على الحواس ، وهي تجعل سعة الجفنة قريبة من الذهن ، وغرض الشاعر من ذلك كله المبالغة في تصوير حجم هذه الجفنة في ضوء التصور المعروف لها واقعيا .

---

(١) . ديوانه،ص١٩٩ والدهاق : دهق يدهق دهقا ودهاقا فهو داهق والمفعول مدهوق ودهق الشيء كسره وقطعه ، حواسحر : جمع حاسر والحاسر من النساء : المكشوفة الرأس والذراعين .

(٢) الإيضاح في علوم البلاغة ، القزويني ، ص٣٧٤

(٣) . ديوانه،ص١٩٨ والجفنة : وعاء للطعام من خزف أو نحوه ، الريح الصرصر : شديدة البرودة أو شديدة الصوت .

ومن أمثلة هذا النمط من التشبيه ، ما نجده عند الأعشى مصورا أثر الكرم على أهل الحاجة من الفقراء ، وذلك في معرض مدحه لقيس بن معد يكرب، يقول : [1]

أَثَراً مِنَ الخَيرِ المُزَيّنِ أَهلَهُ كَالغَيثِ صابَ بِبَلدَةٍ فَأَسالَها

يستمد الشاعر صورته من فصل الشتاء ، حيث يشبه أثر النعمة على من نالها بأثر الغيث على البلدة، ووجه الشبه الخير والزينة للإنسان والأرض، وهذه الصفة في المشبه به حسية وفي المشبه كذلك، ولكنها في المشبه به أقوى، وهي تكشف بجلاء ووضوح أثر النعمة على الناس، وتشي بأبعاد نفسية عميقة لمكانة الغيث في نفوس الناس في تلك البيئة.

وقد استعمل الشعراء التشبيه المؤكد المفصل: و هو ما حذف منه الأداة، و ذكر فيه وجه الشبه، فالتأكيد باعتبار حذف الأداة، والتفصيل باعتبار ذكر الوجه. و من أمثلته قول الخنساء:[2]

إذا نَزَلَت بِهِم سَنَةٌ جَمادٌ أَبِيَّ الدَرِّ لَم تُكسَع بِغُبرِ

هُناكَ يَكونُ غَيثَ حَياً تَلاقى نَداهُ في جَنابٍ غَيرِ وَعرِ

حيث شبهت الشاعرة صخرا بالغيث ، وساوت بينهما في الصفة ، ووجه الشبه (حيا) ، حيث أضافت المشبه به إلى وجه الشبه ، وكل من الكريم والغيث فيه حياة للناس وللأرض ، فالغيث يجعل الأرض لينة سهلة ، والكرم يجعل جانب صخر سهلا لينا وبخاصة عند إطعام الهلكى ، وهذه الصفات مشتركة بين المشبه والمشبه به ، وعبر بأسلوب شرطي فيه بين الكرم ووقت الشتاء ذلك الوقت الذي يشتد فيه الجوع في السنة.

ومن أمثلة هذا النمط أيضا قولها في رثاء أخيها صخرا : [3]

رَبيعُ هُلّاكٍ وَمَأوى نَدىً حينَ يَخافُ الناسُ قَحطَ القِطار

فقد شبهته بالربيع في أن كلا منهما مأوى يأتي اليهما الهلاك ، ويجدون عندهم الندى، وذلك وقت القحط وانقطاع المطر ، وحذفت الأداة فيه دلالة على تساوي الطرفين في التشبيه واتحادهما في المشابهة.

---

(١) . ديوانه ،ص٣١

(٢) ـ ديوانها ،ص٣٧

(٣) ـ ديوانها ،ص٧٤ وقحط :المجاعة أو الجفاف .

ومن أمثلته ما نجده عند لبيد في تصويره لشدة البرد في فصل الشتاء ،وذلك في قوله:[١]

وَخَوَّدَ فَحلُها مِن غَيرِ شَلٍّ بِدارَ الريحِ تَخويدَ الظَليمِ

شبه النعام في السرعة ، والتخويد نوع من السير السريع ، فالفحل من شدة الريح والبرد يحاول مبادرة الريح وسبقها إلى مبيته ليحتمي به من البرد .

ومن الصور التشبيهية ما حذفت فيه الأداة ووجه الشبه [٢]، وهو أبلغ أنواع التشبيه حيث يصير فيه المشبه به هو المشبه نفسه، وهذا النوع من التشبيه يقوي انطباع الصورة في ذهن المتلقي لأن حذف الأداة يقرب التشبيه من الاستعارة، ومن أمثلته قول بشر بن أبي خازم في رثاء أخيه :[٣]

يا سُمَيرٌ مَن لِلنِساءِ إِذا ما قَحَطَ القَطرُ أُمَّهاتِ العِيالِ

كُنتَ غَيثاً لَهُنَّ في السَنَةِ الشَهـ باءِ ذاتِ الغُبارِ وَالإِمحالِ

المُهينُ الكومَ الجِلادَ إِذا ما هَبَّتِ الريحُ كُلَّ يَومِ شَمالِ

يتحسر الشاعر في الأبيات السابقة على فراق أخيه ، مبينا دوره في إطعام النساء الجائعات في أوقات الشدة وخاصة في فصل الشتاء حين يعم الجدب والقحط البلاد ، وينتشر الجوع بين الناس ، فقد شبه سميرا بالغيث وحذف الأداة، ووجه الشبه هو الإنقاذ في وقت الشدة ، وذكر تلك التفاصيل التي توحي بوجه الشبه بين الطرفين ، فذكر النساء أمهات العيال يدل على الحاجة إلى الإطعام ، وقحط القطر في السنة الشهباء ذات الإمحال يدل على أن الأرض بحاجة إلى مطر .

ومن أمثلة هذا النمط من التشبيه قول النمر بن تولب [٤]

وَلَكِن دَعَتني هِمَّتي حينَ أَبلَغَت إِلَيكَ وَخالٌ مِن نَوالِكَ هاضِبُ

يستمد الشاعر صورته السابقة من فصل الشتاء، حيث يرى السحاب ملامسا لسطح الأرض في كثير من الأحيان، إذ يشبه بعض نوال ممدوحه بالخال، وهو السحاب القريب ، وحذف الأداة ،ووجه الشبه تقديره النفع في الكل ، وليس في بناء الصورة فيما يخص الطرفين

---

(١) . ديوانه،ص١٠٤ وخود : التخويد نوع من المشي السريع .

(٢) جواهر البلاغة، أحمد الهاشمي، دار إحياء التراث العربي ، بيروت،١٩٨٣ ص٢٧٠

(٣) . ديوانه،ص١٨٧ والغيث : مطر غزير يجلب الخير ، الشهباء : عام أشهب أي مجدب .

(٤) . ديوانه ،ص ٣٧ ونوالك : نوال فاعل من نال والنوال النصيب والعطاء .

ما يوحي بوجه الشبه بينهما، وإن كان يوجد في السياق ما يوحي بذلك خارج إطار البناء ، فذكر الهمة التي دعته إلى الذهاب من دوافع الرحيل ، والدافع الثاني هو العطاء، وهما مختلفان، فهذا من شأن المتحدث والعطاء من شأن المخاطب.

ومن أساليب التشبيه التي استعملها الشعراء في رسم صورهم التشبيهية التشبيه الضمني ، وهو:" "تشبيه لا يوضع فيه المشبه والمشبه به في صورة من صور التشبيه المعروفة بل يلمح المشبه والمشبه به ويفهمان من المعنى، ويكون المشبه –دائما– برهانا على إمكان ما أسند إليه المشبه ... وفي ذلك تلميح بالتشبيه في غير صراحة، وليس على صورة من صور التشبيه المعروفة، بل إنه تشابه يقتضي التساوي، وأما التشبيه فيقتضي التفاوت"[١] ومن أمثلة هذا النوع من الصورة التشبيهية قول سلمة بن الخرشب في وصف فرس عدوه مستمدا التشبيه من فصل الشتاء ، يقول : [٢]

فلو أنها تجري على الأرض أدركت ولكنها تهفو بتمثال طائر

خدارية فتخاء ألثق ريشها سحابة يوم ذي أهاضيب ماطر

فشبه فرسه بطائر أو جعل فرسه طائرا ثم بين نوعه من الطير فهو عقاب خدارية أصاب المطر ذي الدفعات ريشها فبلّله فهي تسابق هذا المطر بدفعاته كي تصل إلى وكرها.

ومن أساليب التشبيه التي اتبعها الشعراء ما يسمى بالتشبيه الدائري، وهو "التشبيه التي يحدثه الشاعر بين شيئين أو أشياء في تركيب فاتحته نفي بحرف: (ما) خاصة، وخاتمته إثبات بحرف (الباء) واسم التفضيل الذي على وزن (أفعل) وغالبا ما يكون بين الفاتحة والخاتمة وصف للاسم المنفي –وهو المشبه به عادة– قد يطول وقد يقصر حسب حاجة الشاعر النفسية إلى ذلك" [٣]ومن هذا النمط من الصور تلك الصورة التي رسمها لطيب فم محبوبته ، وفيها يأخذ المطر الذي نزل في شهر رجب ، أي في الشتاء دورا بارزا ، يقول : [٤]

---

(١) جواهر البلاغة، ص ٢٧٤

(٢) . المفضليات،ص١٦٥ والخدارية : العقاب ، الفتخاء : العقاب لينة الجناحين .

(٣) الرباعي، عبد القادر، الطير في الشعر الجاهلي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ،ط١، ١٩٩٨ ، ١٠٣.

(٤) . شرح أشعار الهذليين،ص١٤٢ والأجادل : جمع أجدل والأجدل الصقر ، مباءة : مباءة النحل مبيته في الجبل ، نواصل : جمع ناصل وسهم ناصل خرج منه سهمه.

وَما ضَرَبٌ بَيضاءُ يَأوي مَليكُها إِلى طُنُفٍ أَعيا بِراقٍ وَنازِلِ
تُهالُ العُقابُ أَن تَمُرَّ بَريدِهِ وَتَرمي دُروعٌ دونَهُ بِالأَجادِلِ
تَنَمّى بِها اليَعسوبُ حَتّى أَقَرَّها إِلى مَألَفٍ رَحبِ المَباءَةِ عاسِلِ
فَلَو كانَ حَبلٌ مِن ثَمانينَ قامَةً وَسَبعينَ باعاً نالَها بِالأَنامِلِ
تَدَلّى عَلَيها بِالحِبالِ مُوَثِّقاً شَديدَ الوَصاةِ نابِلٌ وَابِنُ نابِلِ
إِذا لَسَعَتهُ الدَبرُ لَم يَرجُ لَسعَها وَخالَفَها في بَيتِ نوبٍ عَواسِلِ
فَحَطَّ عَلَيها وَالضُلوعُ كَأَنَّها مِنَ الخَوفِ أَمثالُ السِهامِ النَواصِلِ
فَشَّرجَها مِن نُطفَةٍ رَجَبِيَّةٍ سُلاسِلَةٍ مِن ماءِ لِصبٍ سُلاسِلِ
بِماءٍ شُنانٍ زَعزَعَت مَتنَهُ الصَبا وَجادَت عَلَيهِ ديمَةٌ بَعدَ وابِلِ
بِأَطيَبَ مِن فيها إِذا جِئتَ طارِقاً وَأَشهى إِذا نامَت كِلابُ الأَسافِلِ

فهذه الصورة التشبيهية مبنية على التشبيه الدائري حيث قدم فيها المشبه به على المشبه، وهذا ما يلفت أنظارنا لهذه الصورة المتعددة الصفات الدقيقة الوصف، إذ يبدأ الشاعر التشبيه بقوله: (وَما ضَرَبٌ بَيضاءُ يَأوي مَليكُها) ، فيذكر مكان النحل وهو أعلى جبل شاهق صعب غلب كل راق أو نازل منه ، وحتى العقاب فإنه يخشاه ويسقط دونه ، وعلى الرغم من ذلك فإن المستشار يتدلى إليه بالحبال مهما كانت المسافة فينال العسل ، وهذا العسل ممزوج بماء بارد نزل في شهر رجب، وكان رجب حينذٍ في فصل الشتاء، وهذا الماء عذب كان في شق من الجبل ، وقد هبت عليه الصبا فبردته ، وتتابع عليه المطر الكثير ليزداد نقاء، ولعل ما يزيد حرصنا على المتابعة كون الجملة على طولها لم يتم ركنها وهو خبر ما النافية إلا في البيت الحادي عشر من الصورة حيث فضل طيب فم محبوبته حين ينام الناس وتتغير الأفواه على هذا الماء العذب البارد الذي مزج بالعسل.

وتختلف أدوات التشبيه التي استعملها الشعراء في هذه الصور ، فقد كان أكثرها استعمالا " كأن وكاف التشبيه " ، فاستعمال كأن آت من ميل الشعراء إلى إلغاء الحواجز بين الحدود المتشابهة ،وفيه نوع من التوكيد باستخدام الكاف "وأن" التوكيدية(١).

ومن الصور التشبيهية ما حذفت فيه الأداة ووجه الشبه، وهو أبلغ أنواع التشبيه حيث يصير فيه المشبه به هو المشبه نفسه ، وهو أسلوب قليل في شعر الشتاء إذا ما قورن بالتشبيه الذي

(١)الصورة الفنية في شعر أبي تمام ، الرباعي ، ص١٦٥ والطارق : الوافد ليلا .

تذكر فيه الأداة ،وهذا النوع من التشبيه يقوي انطباع الصورة في ذهن المتلقي لأن حذف الأداة يقرب التشبيه من الاستعارة.

ثانيا . الصورة الاستعارية :

تعد الاستعارة من مقومات الصورة، وهي ألصق بالشعر من التشبيه، وذلك أن التشبيه يفيد الغيرية لا العينية، بينما تتعدى الاستعارة حدود الواقع، لتسرح بالخيال إلى أبعد مما يمكن أن يتخيله الإنسان، فتلغي الحدود بين الأشياء، وتوحد بين المتشابهين في الصفات من دون الإشارة إلى مشابهة بينهما(١). فمن الصور الاستعارية قول لبيد مصورا فصل الشتاء:(٢)

وَيَومٍ هَوادي أَمرِهِ لِشَمالِهِ يُهَتِّكُ أَخطالَ الطِرافِ المُطَنَّبِ

يُنيخُ المَخاضَ البُركَ وَالشَمسُ حَيَّةٌ إِذا ذُكِّيَت نيرانُها لَم تَلَهَّبِ

يصور الشاعر دور ريح الشمال وشدة هبوبها في أحد ايام الشتاء الباردة، فقد شخص الشمال في ذلك اليوم البارد بصورة إنسان شديد القوة يقطع أطناب البيوت ولا تستطيع الإبل مواجهته، فينيخها ويسيطر عليها ، وشبهه بذلك الانسان القوي وحذف المشبه به وأشار الى شيء من لوازمه وهو قطع الحبال وإناخة الابل على سبيل الاستعارة المكنية ، وتصوير ذلك اليوم وتلك الشمال بهذه الشدة يبرز الأثر الذي تركه في الحي بأكمله في تحريك القوم لمواجهته، فدور الريح والبرد أكبر من أن يكون ظرفا عاديا يمر على الناس ، فقد شخصته الاستعارة بدور خيالي مبالغ فيه في شدة التصرف والتأثير .

ومن الصور الاستعارية قول زهير: (٣)

تَاللَهِ قَد عَلِمَت قَيسٌ إِذا قَذَفَت ريحُ الشِتاءِ بُيوتَ الحَيِّ بِالعُنَنِ

أَن نِعمَ مُعتَرَكُ الحَيِّ الجِياعِ إِذا خَبَّ السَفيرُ وَمَأوى البائِسِ البَطِنِ

فقد شخص ريح الشتاء، وجعلها تتسلط على الحي وترمي البيوت بما تحمله معها من شدتها، حيث شبهها بقوي متسلط على بيوت اهل الحي بجامع الشدة والاذى في الكل ، وحذف

---

(١)الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي ، جابر عصفور، ص١٩٢

(٢) . ديوانه،ص١٦ ويهتك : من هتك أي جذب فأزال من موضعه ، المطنب : فيه إطناب وتطويل ، اسهاب .

(٣) . ديوانه،ص٢٨١ والعنن : الجمع عنن وعنان وهو العجز في الشيء .

المشبه به وأشار إلى شيء من لوازمه وهو القذف والرمي الذي هو من خصائص الكائن الحي، وهذا التشخيص أعطى للريح دورا مماثلا لما ورد في بيت لبيد السابق .

ومن الصور الاستعارية قول الخنساء: (١)

فَمَن لِلضَيفِ إِن هَبَّت شَمالٌ مُزَعزِعَةٌ تُجاوِبُها صَباها

وَأَلجا بَردُها الأَشوالَ حُدباً إِلى الحُجُراتِ بادِيَةً كُلاها

فقد شخصت البرد كما الريح والشتاء حيث شبهتها براع شديد يسوق الإبل إلى مكان تحجر فيه ليقيها من البرد ، وحذف المشبه به وأشارت إلى شيء من لوازمه على سبيل الاستعارة المكنية، وهذا التشخيص تأكيد لدور الاستعارة في إبراز آثار هذه الظروف الطبيعية وبيان دورها في التأثير في عملية الكرم.

ومنها قول الحطيئة في وصف أثر البرد على الحيوان: (٢)

إِذا أَجحَرَ الكَلبَ الصَقيعُ اِتَّقَينَهُ بِأَثباجِ لا خورٍ وَلا قَفِراتِ

فقد شخص الصقيع ، وهو من أحوال البرد الشديدة وصوره من خلال الاستعارة المكنية بصورة إرادة وتصرف يتسلط على الإبل وعلى الكلب ويدخله جحره، بجامع شدة التأثير وقوته، وحذف المشبه به وأشار إلى شيء من لوازمه، وهذا امتداد لدور الاستعارة في إبراز دور تلك الظواهر وتأثيرها.

ومنها قوله: (٣)

إِذا نَزَلَ الشِتاءُ بِدارِ قَومٍ تَجَنَّبَ دارَ بَيتِهِمُ الشِتاءُ

حيث شخص الشتاء بالصورة نفسها، وبالخصائص ذاتها، وإبراز الدور نفسه، والتشخيص من وظائف الاستعارة في التعبير، وقد تجلى بوضوح من خلال ما ورد منها في شعر الشتاء

وهذا جران العود يبني صورته على الاستعارة في قوله واصفاً شدة البرد : (٤)

وَأَلجَأَتِ الكِلابَ صَباً بَليلٌ فَآلَ نُباحُهُنَّ إِلى الهَريرِ

---

(١) . ديوانه،ص٩٧ والصبا : ريح تهب من جهة الشرق .

(٢) . ديوانه،ص١١٥ وأثباج : جمع ثبج والثبج وسط الشيء تجمع وبرز .

(٣) . ديوانه،ص٨٨

(٤) . ديوانه،ص٢٧ والهرير : صوت الكلب بدون النباح .

لقد شبه الصبا بالإنسان الذي يظهر قوته بإرادته التي منحه الله. ثم حذف المشبه به وأبقى لازماً من لوازمه وهو الإلجاء في استعارة مكنية جميلة أوصلت ما يريد بيانه من وصف شدة البرد .

ويستعير المتنخل صورة الإنسان للرياح على سبيل الاستعارة المكنية، حيث يصور الرياح التي ترمي بيوت الحي بورق الأشجار بالإنسان لأن الرمي فعل إنساني ، وذلك في قوله: (١)

إذا ما الحَرجَفُ النَكباءُ تَرمي بُيوتَ الحَيِّ بِالوَرَقِ السِقاطِ

وفي معرض تصوير فصل الشتاء يستعير صخر الغي للرعد صوت الرجل الذي فيه بحة، يقول:(٢)

لِشَمّاءَ بَعدَ شَتاتِ النَوى وَقَد كُنتُ أَخيَلتُ بَرقاً وَليفا

أَجَشَّ رِبَحلاً لَهُ هَيدَبٌ يُكَشِّفُ لِلخالَ رَيطاً كَشيفا

فقد شبه الشاعر صر الرعد بصوت الرجل ذي الصوت الغليظ الشديد الذي فيه بحة بجامع شدة الصوت ، ثم استعير اللفظ الدال على المشبه به للمشبه عى سبيل الاستعارة التصريحية.

ويصور لنا لبيد اليوم المطير باستعارة ريح الجنوب التي تحلب الغمام مثلما تحلب الناقة، يقول:(٣)

مَرَتِ الجَنوبُ لَهُ الغَمامَ بِوابِلٍ وَمُجَلجِلٍ قَرِدِ الرَبابِ مُديمِ

إن الاستعارة من وسائل المجاز المميزة في بنائها الذي يقوم على ثلاث خصائص؛ الاسناد العقلي والمشابهة واللغة، ويتم من خلال تلك الخصائص تحقيق الغرض من التعبير بها كالمبالغة وجلاء المعنى والتشخيص، والتقديم الحسي للمعنى.

ولم يكتف التعبير في شعر الشتاء بالاستعارة، بل شمل أنواع المجاز الأخرى، ومنها المجاز المرسل، وهو الذي ستقف عنده الدراسة في الصفحات الآتية.

---

(١) . شرح أشعار الهذليين ، ،ص١٢٧٠ والحرجف : الحرجف من الرياح الباردة الشديدة الهبوب مع الجفاف ، النكباء : ريح انحرفت ووقعت بين ريحين كالصبا والشمال .

(٢) . شرح أشعار الهذليين،ص٢٩٤ وأجش : الصوت الغليظ ، الهيدب : المتسلل المنصب من الدموع .

(٣) ديوانه. مرت: حلبت. قرد الباب: قرد: مجتمع. الرباب: السحاب الذي تراه كأنه متدلي، مديم: دائم.

المجاز المرسل:

هو مجرد تحرير لغوي بسيط ناب فيه شيء عن شيء لعلاقة فعلية بينهما [١]. ومن أمثلته قول معود الحكماء:[٢]

إذا نَزَلَ السَحابُ بِأَرضِ قَومٍ رَعَيناهُ وَإِن كانوا غِضابا

فقد أطلق الشاعر السحاب وأراد المطر على سبيل المجاز المرسل الذي علاقته السببية، ثم أطلق المطر المضمر في كلمة "السحاب" وأراد الكلأ على سبيل المجاز المرسل أيضا، أما المستوى العميق فإن الصورة المجازية ترمز إلى الجدب والقحط الذي يعم الجزيرة العربية في فصل الشتاء مما يفضي إلى الصراع والحروب بين القبائل.

ومنه قول أبي دؤاد: [٣]

ولقد نظرت الغيث تحفزه ريح شآمية إذا برقت

فقد ذكر الغيث وأراد السحاب، والقرينة قوله: ريح شآمية، والغيث مسبب عن السحاب، وذكره في هذا السياق أبلغ،إذ يدل على أنه هو المرجو، لأنه أهم نتائج السحاب.

ومن الصور المجازية ما كانت علاقتها حالية، ومن أمثلتها قول لبيد: [٤]

تُوَزِّعُ صُرّادَ الشَمالِ جِفانُهُم إِذا أَصبَحَت نَجدٌ تَسوقُ الأَفائِلا

فقد ذكر نجدا وأراد أهلها، والقرينة قوله : تسوق، وهي من أفعال البشر ، وذكر نجد جاء هنا للدلالة على الشدة وعمومها كل أهل نجد.

وقوله أيضا :[٥]

وَالحَيِّ إِذ بَكَرَ الشِتاءُ عَلَيهِمُ وَعَدَت شَآمِيَةٌ بِيَومٍ مُقمِرِ

فقد ذكر الحي وأراد أهل الحي ، وبخاصة أهل الحاجة والفقراء منهم، فهم الذين يتأثرون بالشتاء وقسوته ، وذكر الحي يشي بأن كرمه عم جميع من فيه من الفقراء والمحتاجين.

---

(١)الصورة الفنية في شعر أبي تمام، الرباعي، ص ١٦٣

(٢) . المفضليات،ص٣٥٩

(٣) . دراسات في الأدب العربي،ص٢٩٧

(٤) . ديوانه،ص٢٤٩ والصراد : ريح باردة تخالطها رطوبة .

(٥) . ديوان لبيد،ص١٦٦

وكذلك قول الخنساء:[١]

الحَيُّ يَعلَمُ أَنَّ جَفنَتَهُ تَغدو غَداةَ الريحِ أَو تَسري

فقد ذكر الحي وأراد أهل الحي ، والقرينة قولها يعلم ، والعلم من السمات الإنسانية، ودلالته تشمل الفقراء وأهل الحاجة وغيرهم.

أما الصور المجازية التي كانت علاقتها الزمانية فمنها قول الحطيئة: [٢]

إِذا نَزَلَ الشِتاءُ بِدارِ قَومٍ تَجَنَّبَ دارَ بَيتِهِمُ الشِتاءُ

فقوله:" تَجَنَّبَ دارَ بَيتِهِمُ الشِتاءُ " مجاز مرسل ، لأن المقصود بالشتاء الجوع والقحط ، فالمجاز هنا مجاز مرسل علاقته الزمانية لأن الشتاء هو الجدب والقحط .

وقول زهير: [٣]

تَاللَهِ قَد عَلِمَت قَيسٌ إِذا قَذَفَت ريحُ الشِتاءِ بُيوتَ الحَيِّ بِالعُنَنِ

فقد ذكر الشتاء وأراد به شدة الجوع والقحط ، لأن الشتاء زمنهما. وقد خصه بالذكر لكثرة الحاجة فيه وانتشار الجوع.

ومن الصور المجازية المستمدة من فصل الشتاء قول حسَّان في وصف ديار بني الحسحاس:[٤]

دِيارٌ مِن بَني الحَسحاسِ قَفرٌ تُعَفّيها الرَوامِسُ وَالسَماءُ

وقول زهير بن أبي سلمى: [٥]

فَذو هاشٍ فَميثُ عُرَيتِناتٍ عَفَتها الريحُ بَعدَكَ وَالسَماءُ

أراد كلا الشاعرين أن يشيرا إلى سبب زوال الديار، وكيف تحوَّلت من عِمران إلى خراب، فلم يستخدما اللفظ الذي يدلُّ على هذه الحقيقة، بل عمِدا إلى التعبير عنها مجازا بلفظة (السماء) آخذين بعين الاعتبار علاقة المجاورة بين المطر والسماء، فالسماء هي مكان السحب ونزول المطر، ومن ثمَّ سُميت العلاقة المحلية.

---

(١) . شرح ديوان الخنساء،ص٤٥ وجفنته : الكريم المضياف .

(٢) . ديوانه،ص٨٨

(٣) . ديوانه،ص٢٨١ والعنن : مفردها عنة وهو النقص يصيب الشيء .

(٤) . ديوانه،ص ١٧ والروامس : المفرد رامسة وهي الريح التي تثير التراب وتدفن الآثار .

(٥) . ديوانه،ص١٢٢

ومن المجاز المرسل قول المثقِّب العبدي : [1]

فلما أتاني والسماء تبله فلقيته أهلا وسهلا ومرحبا

في قوله "والسماء تبله" مجاز مرسل، علاقته المحلية. حيث ذكر المحل، وهو السماء والمراد الحال فيه وهو السحاب، إذ أن مصدر البلل، أي: المطر هو السحاب، وليس السماء، فالسماء إذا لم يكن فيها سحاب لا يسقط منها مطر.

والشاعر آثر استعمال لفظ (السماء) بدلا من السحاب، ليدل على إحاطة مصدر البلل بالضيف، وأنه ليس مجرد سحابه صغيرة يمكن اتقاءها، ولكنها سماء تبله، وعليه؛ فلا بد له من ملجأ ومستكن منها. وجاءت جملة (والسماء تبله) معترضة وهي حال بين حاله والتي تحتاج إلى عناية، وهنا يظهر المضيف الكريم الذي خرج في تلك الأجواء المبلله بالمطر ليؤويه ويستضيفه ويتلقاه بشعار الترحيب بالضيف "أهلا وسهلا ومرحبا".

الكناية :

تعد الكناية من أهم وسائل تشكيل الصورة الشعرية، إذ أن التعبير بالكناية له منزلة التصور بالاستعارة، فكل منها يصدر عن ذائقة فنية وقيمة بلاغية تتعلق بفن القول [2]. والصورة الكنائية هي عبارة صورية عرضية مباشرة تشير إلى معنى غير معناها الأصلي، [3]وقد أكثر الشعراء من الكنايات في معرض حديثهم عن الكرم وتقديم الطعام في فصل الشتاء ، وخاصة في الفترات التي تقل فيها الأمطا، يقول أبو خراش مصورا كرم أبي الرماد في الشتاء :[4]

كأبي الرَمادِ عَظيمُ القِدرِ جَفنَتُهُ عِندَ الشِتاءِ كَحَوضِ المَنهَلِ اللَقِفِ

فالشاعر يكني بـ " عظيم القدر" عن كرم أبي الرماد في فصل الشتاء ، وشبه جفنته بحوض المنهل المتهدم من كثرة مائه.

---

(١) . ديوانه،ص١١٩

(٢) الصغير، محمد حسين، أصول البيان العربي في ضوء القران الكريم، بيروت . لبنان ، دار االمؤرخ العربي، ١٩٩٩، ص ١٤٤

(٣)الصورة الفنية في شعر أبي تمام ، الرباعي، ص ١٦٢

(٤) . شرح اشعار الهذليين،ص١٢٢٨ والجفنة : وعاء للطعام من خزف او نحوه ، المنهل : مورد وموضع للشرب .

وقد أكثر الشعراء من الكنايات التي تشير إلى القحط والجدب الذي يعم الناس في فصل الشتاء ومن ذلك قول أبي ذؤيب مفتخرًا بكرم قومه : (١)

لنا صرم ينحرن في كل شتوة إذا ما سماء الناس قل قطارها

فالشاعر يكني بقوله "قل قطارها" عن الجدب والقحط في فصل الشتاء .

ومن الصور الكنائية ما كان يصور قسوة فصل الشتاء، كما قول صخر الغي واصفًا تأثير البرد على أبي المثلم، وقد تقشر أعلى أنفه بفعل الرياح الباردة: (٢)

إذا هو أمسى بالحلاءة شاتيًا تقشر أعلى أنفه أم مرزم

فالشاعر يكني بـ "تقشر أعلى أنفه" عن شدة البرد وتأثيره في أبي المثلم في منطقة الحلاءة عند المساء، وفيه يكون البرد شديدًا ،وقد تقشرت أعلى أنف أبي المثلم بفعل الرياح الباردة. فهو وصف دقيق لأن الشتاء يجفف جسم الإنسان مما يصبح متقشرًا وخصوصًا أطراف الإنسان لأنها أكثر عرضة للبرد .

ومن الصور الكنائية قول جنوب الهذلية: (٣)

لا يَنبَحُ الكَلبُ فيها غَيرَ واحِدَةٍ مِنَ العِشاءِ وَلا تَسري أَفاعيها

فالشاعرة تكني عن شدة برده هذه الليلة بإسكات الكلب عن النباح ، وحبس الأفاعي عن السريان ليلا.

ومن الكنايات التي عبر بها الشعراء عن شدة البرد " هَبَّت شِمالاً" كما في قول سويد بن أبي كاهل: (٤)

وَإِذا هَبَّت شِمالاً أَطعَموا في قُدورٍ مُشبَعاتٍ لَم تُجَع

---

(١) شرح اشعار الهذليين،،ص٧٨ والصرم : صرم الشيء جزه وقطعه .

(٢) شرح اشعار الهذليين،ص٢٢٦ وأم مرزم : الريح أو ريح الشمال الباردة .

(٣) . شرح اشعار الهذليين،ص٥٨٢

(٤) . ديوانه،ص٢٧

التشكيل النفسي :

تشكل الحواس النافذة التي يستقبل بها الذهن رياح الحياة والتجربة، والذهن في كثير من اعتمالاته واجتهاداته يحتاج إلى هذه الحواس، لترجمة تلك الاعتمالات، فتكون الحواس – بهذا المنحى أهم وسائل الذهن في الاستقبال والبث (١).

والصور الشعرية إذ تشكل رسما بالكلمات لمناظر أو مشاعر، فإنها تشكل ذلك الرسم من خلال معطيات الحواس، وتتوجه في توصيل ذلك الرسم إلى خبرات الحواس لدى المتلقي، وقد يستثمر الشاعر حاسة البصر ومعطياتها في رسم معالم الصورة الشعرية، فنسمي ذلك النمط من الصور بالصور البصرية، وإذا ما استثمر حاسة الذوق، فإننا نسمي الصورة بالصورة الذوقية، وإذ ما كانت حاسة السمع في الصورة هي الأساس، فإننا نسمي تلك الصورة بالصورة السمعية، وإذا ما استثمر حاسة الشم، فإننا نسمي الصورة المترشحة من ذلك بالصورة الذوقية، وإذا ما استثمر حاسة اللمس فإننا نسمي تلك الصورة بالصورة اللمسية.

أما المرجع في تقسيم هذه الصور إلى هذه الأنواع النفسية، فهو الإحساس لأن كل صورة قابلة لأن تحس بأكثر من حاسة. (٢)

أولًا . الصور البصرية:

العين هي النافذة الوحيدة للرؤية البصرية، لذلك فهي الأداة الأقرب للإحساس بالجمال أو القيم وتصويرها، فعن طريق العين تختزن الذاكرة آلاف الصور التي تردها نتيجة الرؤية، وكثير من الأشياء التي تميز بالعين لا تُميز بالحواس الأخرى، كالأشكال، والأحجام، والألوان، وغيرها. والصورة البصرية هي الأكثر ورودا في الشعر عامة قديمه وحديثه، فالطابع الأعم للصور هو كونها مرئية، وكثير من الصور التي تبدو غير حسية لها في ذلك ترابط مرئي باهت ملتصق بها (٣).

---

(١) الصورة الفنية معياراً نقدياً " منحى تطبيقي على شعر الاعشى الكبير " عبد إلاله الصائغ ، وزارة الثقافة والإعلام " دار الشؤون الثقافية العامة " ، ط١ ، ١٩٨٧ ، ص٤٠٦ .

(٢) الرباعي ، الصورة الفنية في شعر أبي تمام ، ص١٤٨

(٣) الصورة الشعرية، سيسل داي لويس ، ترجمة أحمد الجنابي ورفاقه، بغداد . العراق ، وزارة الثقافة والإعلام، ١٩٨٥ ، ص ٢١ .

ويلجأ الشعراء في صورهم البصرية إلى الوصف والتجسيم ، فهذا أوس بن حجر يرسم صورة بصرية يعتمد فيها على التجسيم ، يقول:(١)

وَعَزَّتِ الشَمأَلُ الرِياحَ وَقَد أَمسى كَميعُ الفَتاةِ مُلتَفِعا

فعبارة " أَمسى كَميعُ الفَتاةِ مُلتَفِعا "صورة بصرية وصفية مجسمة لحال الرجل في الشتاء،إذ يقعده البرد الشديد عن خدمة أهله حتى أنه ينام متلفعا دون زوجه، ولكنها تشير في الوقت نفسه إلى معنى أخر إشاري يفهم بقليل من التأمل والتفكير ، وهو الإشارة إلى شدة برد الشتاء.

ويأتي امرؤ القيس في وصفه للمطر بصورة بصرية يعتمد فيها على التجسيم، حيث يجعل من الجبل وقد جلله المطر رجلا كبيرا سيد أناس، قد تلفف بكساء مخطط، يقول(٢)

كأن ثبيرا في عرانين وبله كبير أناس في بجاد مزمل

وهذا ملحة الجرمي يرسم صورة بصرية للسحب في فصل الشتاء، حيث يصور مجموعة السحب الكثيفة المتوالية بجبال لبنان الممتدة العالية، يقول ملحة الجرمي:(٣)

كأن الشماريخ الألى من صبيره شماريخ من لبنان بالطول والعرض

وفي صورة بصرية أنجزها لبيد بن ربيعة يصور فيها أثر ريح الشمال الباردة على النوق الحوامل فتجعلهن يبركن من شدة البرد، قال لبيد(٤):

وَيَومٍ هَوادي أَمرِهِ لِشَمالِهِ يُهَتِّكُ أَخطالَ الطِرافِ المُطَنَّبِ

يُنيخُ المَخاضَ البُركَ وَالشَمسُ حَيَّةٌ إِذا ذُكِّيَت نيرانُها لَم تَلَهَّبِ

ويرسم حسان بن ثابت صورة بصرية للسحاب المثقل بالماء من خلال تشبيهه بالجبل الأسود الشامخ الضخم، يقول:(٥)

ضَعيف العُرى دان مِنَ الأَرضِ بَركُهُ مُسِفّ كَمِثلِ الطَودِ أَكظَم أَسحَم

---

(١) . ديوانه،ص٥٤ وملتفع : اسم مفعول من التفع والتفع بالثوب أي اشتمل به حتى يجلل جسده .

(٢) . ديوانه ص٢٥ وبجاد : كساء مخطط .

(٣) . ديوان الحماسة، ص ٣٧٧ وشماريخ : جمع شمروخ أعالي السحاب .

(٤) . ديوانه،ص١٦المطنب : فيه إطناب وتطويل مسهب .

(٥) ديوانه ص ٢٣٣، مسف : أسف السحاب دنا من الأرض ، أسحم : سواد كلون الغراب .

ويعتمد لبيد على التجسيم في وصفه لصورة السيل الذي يتشكل بفعل الأمطار الغزيرة في فصل الشتاء ، فهو ينهمر غزيرا على رأس ذلك الجبل، فيبدو وكأنه يحيط به من كل جانب، يقول:(١)

فَباتَ السَيلُ يَركَبُ جانِبَيهِ مِنَ البَقّارِ كَالعَمِدِ الثَقالِ

يشبه الشاعر صورة الجبل (البقار) والماء يغمره ويحيط به من كل جانب ، بصورة البعير البطئ، وقد أثقل سنامه بالأحمال ، (من ناحية الهيئة أو الشكل)، ويستعين الشاعر بالتشبيه التمثيلي، في هذه الصورة الشعرية ، التي يقابل بين طرفيها، ليظهر مدى قوة السيل ، وما فعله بهذا الجبل، حيث بدأ – لناظر الشاعر– مثقلا بحمل الماء ينوء ويشتكي من أحماله.

كما يعزز هذا التشبيه بالبنيه الاستعارية (السيل يركب) حين يستعير صفة الركوب للسيل، في اشارة إلى قوة السيل وتعاظمه، الذي وصل إلى قمة ذاك الجبل، فغمره وغطاه ، وكأنه يركب على ظهره، ويعتلي صهوته.

ويرسم تميم بن مقبل صورة بصرية للرياض التي نمت بفعل مطر الولي قائلا:(٢)

ليَالِيَ بَعْضُهُمْ جِيرَانُ بَعْضٍ بِغَوْلٍ فَهْوَ مَوْلِيٌّ مُرِيضُ

فالشاعر يصور تقارب ديار الأصحاب والجيران في تلك البقعة من الأرض بصورة النباتات التي نتجت بفعل الولي فكانت لكثافتها تظهر متلاصقة.

وفي صورة بصرية أنجزها، عمرو بن قميئة يصور الأطلال قائلا: (٣)

أَمِن طَلَلٍ قَفرٍ وَمِن مَنزِلٍ عافِ عَفَتهُ رِياحٌ مِن مَشاتٍ وَأَصيافِ

فالشاعر يصف أثر رياح الشتاء المختلفة إلى جانب رياح الصيف السافية في تغيير معالم الديار.

ومن الصور البصرية التي تصور منظرا واقعيا قول سحيم عبد بني الحسحاس مصورا سيلا اعترضه مكان مرتفع فتغير مجراه ناحية الوادي ، يقول : (٤)

تَهادِي سَيلٍ في أَباطِحَ سَهلَةٍ إِذا ما عَلا صَمداً تَفَرَّعَ واديا

---

(١) ،ديوانه،ص١١٠ والبقار : من يرعى الأبقار ويتعهدها .

(٢) . ديوانه،ص١٨٢ والغول : التراب الكثير .

(٣) . ديوانه،ص٧٠ وقفر : الخلاء من الأرض لا ماء فيه ولا ناس ولا كلأ .

(٤) . ديوانه،ص١٩ أباطح : جمع أبطح وهي الأرض المنبسطة فسيحة الأرجاء .

و يصور لبيد فعل ريح الشتاء الباردة القاسية ، حيث تكسر أغصان الأشجار ، وتعري السماء من الغيوم، فتبدو ليلتها مقمرة شديدة البرودة ، يقول في رثاء أربد:(١)

وَعَينِ هَلّا بَكَيتِ أَربَدَ إِذ أَلوَت رِياحُ الشِتاءِ بِالعَضَدِ

ويصور أوس بن حجر كيف ملأت مياه الشتاء الذي يسميه ربيعا الواديان في منطقة ذي وقا، فارتفعت المياه في الأودية فأخصبت ، وعمت ما جاورها، يقول: (٢)

يالَ تَميم وَذو قارٍ لَهُ حَدَبٌ مِنَ الرَبيعِ وَفي شَعبانَ مَسجورُ

فهذه الأمطار قد امتد هطولها، وزادت من مخزون تلك الأودية حتى دخل شهر شعبان وهي ما تزال على ذلك الامتلاء.

وينزع الجاهليون في رسم صورهم البصرية حين يصورون فصل الشتاء إلى استخدام الألوان،" فالألوان من أغنى الرموز اللغوية التي فتحت بابا واسعا أمام الشعراء لاستخدامها في إبداعاتهم وإخضاعها بما تحمله من دلالات موروثة أو مستحدثة لصالح التعبير الشعري، ومحاولة رسم المحسوسات كما انطبعت ذواتها أو معانيها في عقل الشاعر ونفسه وقلبه"(٣)،ويمكن أن نلمح دلالة الألوان في قول مالك بن خالد الهذلي ذاكرا المطر الذي أصاب تلك البقاع ، وما نتج عنه من خضرة نشرت الخير في تلك البقاع ، لذلك سموا هذا المطر ربيعا:(٤)

كانَت بِأَودِيَةٍ مَحلٍ فَجادَ لَها مِنَ الرَبيعِ نِجاءٌ نَبتُهُ دِيَمُ

ويركز امرؤ القيس في تصوير السحاب على لونه لما له من أثر في بيان شدة المطر وغزارته في فصل الشتاء، فهو سحاب أسحم اللون غزير المطر، يقول : (٥)

ديار لسلمى عافيات بذي خال ألح عليها كل أسحم هطال

---

(١) . ديوان لبيد،ص١٦٠ والعضد : ما نثر من أوراق الشجر .

(٢) ، ديوانه،ص٤٤ والمسجور : الممتلئ .

(٣) . شنوان، يونس، اللون في شعر ابن زيدون، منشورات جامعة اليرموك،د.ت، اربد،١٩٩٩،ص١٤

(٤) . ديوان الهذليين، ج٣،ص١٤

(٥) . ديوانه،ص٢٧ وأسحم :أسحمت السماء أي صبت ماءها .

ويأتي امرؤ القيس بصورة بصرية أخرى للون من خلال المزج بين اللون الأحمر والغيث والورد، فيقول: (١)

وَغَيثٍ كَأَلوانِ القَنا قَد هَبَطتُهُ تَعاوَرُ فيهِ كُلُّ أَوطَفَ حَنّانِ

فالصورة هنا تمثلت بالبنية التشبيهية(وغيث كألوان الفنا)، فقد أضمر الشاعر ذكر الزهر، الذي انبته الغيث، ليصرح بلفظه الغيث فقط، سبب وجود هذا الزهر وقوام حياته، فيشبه هذا الزهر بحب القنا"أحمر اللون، وفي إشارة الى القوة والحياة، وقدوم الربيع حيث تتفتح الأزهار ويورق الشجر، وما يأتي على هذه الروضة من أمطار غزيرة مصحوبة بالرعد.

والصورة البصرية بدت واضحة في قوله:(قد هبطته) فالشاعر نزل بهذه الروضة ورأى ألوان الزهر ، فكان اللون الأحمر أظهرها وأبرزها لناظره، كما يربط الشاعر بين الحركة واللون في هذه الصورة (تعاور فيه كل أوطف حنان) ، فالأمطار داومت الهطول على هذه الأزهار والورود في حركة متتالية، ملؤها القوى والغزارة.

ويبرز اللون الأسود في الصورة البصرية التي رسمها الأفوه الأودي في مدحه لكريم ، حيث يصور سواد قدره لكثرة الطبخ في فصل الشتاء، يقول:(٢)

فينا لِثَعلَبَةَ بنِ عَوفٍ جَفنَةٌ يَأوي إِلَيها في الشِتاءِ الجُوَّع

وَمَذانِبٌ ما تُستَعارُ وَجَفنَةٌ سَوداءُ عِندَ نَشيجِها ما تُرفَع

إن هذا الكريم مشهور بقدره التي تنصب للأضياف خاصة في أوقات جدب الشتاء، وعند ذلك يقصدها المحتاجون من شتى الأمكنة، وقدره هذه سوداء لكثرة إشعال النيران، وهذه القدر تبقى على النار أطول فترة ممكنة حتى ينضج الطعام ، فيكون أكل الأضياف لهذا الطعام الذي قد نضج أكثر ، فيسر الكريم بذلك.

وفي صورة بصرية يأخذ فيها اللون الأحمر دورا بارزا في الدلالة على شدة فصل الشتاء وقسوته ، يقول الأعشى :(٣)

إِذا اِحمَرَّ آفاقُ السَماءِ وَأَعصَفَت رِياحُ الشِتاءِ وَاِستَهَلَّت شُهورُها

---

(١) . ديوانه،٤٩١ ووطف : وطف المطر أي انهمر .

(٢) . ديوانه،ص٩٢ وجفنة : وعاء للطعام من خزف أو نحوه ، النشيج : بكاء أو تنهد بأنفاس سريعة .

(٣) . ديوانه،ص٣٧١ والشول : البقية من اللبن في الضرع ، الكوماء : كوم الشيء أي عظم وغلب استعماله في سنام البعير .

تَرَي أَنَّ قَدري لا تَزالُ كَأَنَّها لِذي الفَروَةِ المَقرورِ أُمٌّ يَزورُها
مُبَرَّزَةٌ لا يُجعَلُ السَترُ دونَها إِذا أُخمِدَ النيرانُ لاحَ بَشيرُها
إِذا الشَولُ راحَت ثُمَّ لَم تَفدِ لَحمَها بِأَلبانِها ذاقَ السِنانَ عَقيرُها
يُخَلّى سَبيلُ السَيفِ إِن جالَ دونَها وَإِن أُنذِرَت لَم يَغنَ شَيئاً نَذيرُها
كَأَنَّ مُجاجَ العِرقِ في مُستَدارِها حَواشي بُرودٍ بَينَ أَيدٍ تُطيرُها
وَلا نَلعَنُ الأَضيافَ إِن نَزَلوا بِنا وَلا يَمنَعُ الكَوماءَ مِنّا نَصيرُها

لقد رسم الشاعر في صورة بصرية حالة التهيؤ والاستعداد لملاقاة فصل الشتاء، حيث تغيرت آفاق السماء إلى اللون الأحمر إيذانا بقدوم الشتاء ، فالسنة الحمراء تحمل معها المصاعب والمصائب ففيها يحصل الجدب وينحبس المطر وتعسر أحوال الناس ويقل طعامهم، وفي هذه السنة تنحر الشول من النوق لإطعام الأضياف لأن لبنها خف بفعل الجفاف الذي حطم الأعشاب والكلأ،فترى القدور منتصبة على الأثافي تنتظر الجياع وأمست للعافي والبردان كالأم الحنون تمنحه الدفء وتطعمه.

إن تغير ألوان الأفق في فصل الشتاء علامة يستدل بها على مجيء البرد الذي يحمل معه الصقيع والقحط ، يقول طرفة بن العبد:(١)

وَإِنّا إِذا ما الغَيمُ أَمسى كَأَنَّهُ سَماحيقُ ثَربٍ وَهيَ حَمراءَ حَرجَفُ
وَجاءَت بِصُرّادٍ كَأَنَّ صَقيعَهُ خِلالَ البُيوتِ وَالمَنازِلِ كُرسُفُ
وَجاءَ قَريعُ الشَولِ يَرقُصُ قَبلَها إِلى الدِفءِ وَالراعي لَها مُتَحَرِّفُ
نَرُدُّ العِشارَ المُنقِياتِ شَظيُّها إِلى الحَيِّ حَتّى يُمرِعَ المُتَصَيَّفُ
تَبيتُ إِماءُ الحَيِّ تَطهي قُدورَنا وَيَأوي إِلَينا الأَشعَثُ المُتَجَرِّفُ

إن العنصر اللوني أساس لهذه الصورة البصرية بالإضافة إلى الاعتماد على العناصر الأخرى (اللمسي والحركي) ، فقد شبه السماء لقلة أمطارها وهبوب الرياح الحمراء الشديدة البرد بشحم الشاة الرقيق على بطنها، ومثل هذا الغيم يتصف بالبرد الشديد وانخفاض درجة الحرارة حد التجمد ، وينعدم فيه المطر وينزل بدلا عنه جليد منهمر كأنه القطن الأبيض ، فتكتسي البيوت والمراعي بطبقة بيضاء، مما يدفع الإبل والماشية إلى أن تؤوب قافلة إلى حظائرها

(١) . ديوانه،ص٦٨ وسماحيق : مفردها سمحوق الطويل الدقيق ، ثرب : غشاء شحمي يغشي الكرش والأمعاء ، الصراد : ريح باردة تخالطها رطوبة ، الأشعث : أشعث الشعر مغبر متبلد .

مسرعة يتقدمها فحل الإبل ينشد الدفء وقد غاب عنها الراعي ففي مثل هذا الوقت، أي حين اشتداد البرد لا ترسل العشار إلى المرعى لأجل النحر وإطعام الأضياف، حيث ستسهر الإماء مع النيران لإنضاج الطعام.

وفي صورة أخرى يأخذ اللون الأصفر دورا بارزا في الدلالة على شدة فصل الشتاء وقسوته ، يقول أوس بن حجر:

مَطاعينُ في الهَيجا مَطاعيمُ لِلقِرى إذا اِصفَرَّ آفاقُ السَماءِ مِنَ القَرسِ

فالشاعر هنا يرسم صورة لقسوة فصل الشتاء من خلال الكناية اللونية " اِصفَرَّ آفاقُ، التي تدل على تغير لون السماء بوصفه علامة يستدل بها على مجيء البرد الذي الذي يحمل معه الصقيع والقحط.

ويتردد اللون الأبيض كثيرا في شعر الشتاء ، فمن ذلك قول عمرو بن شأس الذي يفتخر بكرمه في فصل الشتاء، الفصل الذي يندر فيه الطّعام ، وتزداد حاجة النّاس إلى من يساعدهم معتمدا في ذلك على صورة يأخذ فيها العنصر اللوني دورا بارزا، فالثّلج الأبيض المتساقط الذي يشبه الملح في بياضه يغطي سهول الأرض ، ويكسو مرتفعاتِها، يقول:(١)

وَإِنّي لَأُعطي غَثَّها وَسَمينَها وَأَسري إِذا ما اللَيلُ ذو الظُلمَةِ اِدلَهَم

إِذا الثَلجُ أَضحى في الدِيارِ كَأَنَّهُ مَناثِرُ مِلحٍ في السُهولِ وَفي الأَكَم

ويرسم سلامة بن جندل صورة لجود قومه بني سعد في فصل الشتاء، فهم يجودون في أشد الأوقات صعوبة حين يغطي الثلج الأرض ، حتى تبدو الوديان، وكأنها قد شابت لبياضها من الجدب والصقيع(٢):

كُنّا نَحُلُّ إِذا هَبَّت شَآمِيةٌ بِكُلِّ وادٍ حَطيبِ البَطنِ مَجدوبِ

شيبِ المَبارِكِ مَدروسٍ مَدافِعُهُ هابي المَراغِ قَليلِ الوَدقِ مَوظوبِ

ومن الصورة اللونية تلك الصور التي دأب الشعراء فيها على نعت السنة المجدبة بالسنة الشهباء كناية عن الجليد والثلج المنهمر المتساقط الذي يغطي الأرض فيقتل الزرع والعشب

---

(١) . شعر عمرو بن شأس" ، ص ٤٦ والأكم : التل والمكان المرتفع .

(٢)"المفضليات" ، المفضل الضبي، ص١٢٤، البيتان ٣٤-٣٥ .شآمية : من ناحية الشأم . حطيب الجوف : كثير الحطب . مجدوب : مذموم . المبارك : أراد الوادي كله . وجعلها شيبا لبياضها من الجدب والصقيع . هابي المراغ : لم يتمرّغ عليه بعير . الودق : المطر

،فهذا تميم بن مقبل يمدح قومه بني عامر ، الذين يجودون في السّنة الشّهباء التي تنضح بالثّلج[١] :

هُمُ حَيٌّ ذِي البُرْدَيْنِ لاَ حَيَّ مِثْلُهُمْ إِذَا أَصْبَحَتْ شَهْبَاءُ بِالثَّلْجِ تَنْضَحُ

وهذا زهير بن أبي سلمى يذكر بجود هرم بن سنان بن أبي حارثة المري والحارث ابن عوف في السّنة الشّهباء ، إذ يَعُمّ القحط والجدْب فيها لكثرة الثّلج ، فيتقاطر ذوو الحاجات إلى بيوتهم التي فتحوا أبوابها لاستضافتهم[٢] :

إذا السَنَةُ الشَهباءُ بِالناسِ أَجحَفَت وَنالَ كِرامَ المالِ في الجَحرَةِ الأَكلُ

رَأَيتُ ذَوي الحاجاتِ حَولَ بُيوتِهِم قَطيناً بِها حَتّى إِذا نَبَتَ البَقلُ

ويشتري ممدوح الأسود بن يعفر النهشلي حسْنَ الثّناء بماله في تلك السّنة الشهباء التي يعم القحط والجدْب فيها لكثرة الثّلج [٣] :

فَتىً يَشتَري حُسنَ الثَّناء بِمالِه إِذا السنةُ الشهباءُ أعوَزها القطرُ

وهكذا نلاحظ أن الصور اللونية من أكثر الصور البصرية دورانا عند الشعراء، وتبرز من خلال التصريح باللون أو من خلال ما يذكر دلالة عليه، ولعل الجدير بالملاحظة أن الشعراء ميزوا بين الألوان بدقة متناهية، وهذه الدقة في وصف اللون تثبت واقعية الصورة الشعرية دونما تكلف أو كذب، معتمدة على دقة ملاحظة الشاعر في إثبات صدق تجربته الشعرية.

وتبرز الصورة الضوئية عند الشعراء، إذ أعطوها أهمية ملموسة وخاصة عند حديثهم عن البرق ونار القرى ، فهذا أبو ذؤيب يصور البرق بالمصباح لمعانا وإضاءة ، يقول :[٤]

---

(١)- "ديوان ابن مقبل" ، تحقيق: د. عزة حسن، دار الشرق العربي ،بيروت –لبنان، ١٩٩٥ ، ٥٦ .أصبحت : صارت . شهباء : يعني سنة شهباء ، أي بيضاء من الجدب وكثرة الثلج .

(٢)- "شعر زهير بن أبي سلمى "، ٩٢-٩٣ .الشّهباء : البيضاء من الجدب، لكثرة الثّلج . الحَجْرة : السّنة الشّديدة . القطين : أهل الرّجل، والمعنى : يلزمونهم فيسكنون عندهم . الاستخبال : أن يستعيد الرّجل من الرّجل إبلاً فيشرب أَلبانها . ييسروا : من الميسر .

(٣)- "ديوان الأسود بن يعفر" ، ص ٣٥ .

(٤) شرح اشعار الهذليين: ١ / ١٦٧ – ١٦٨ ، امنك: اي من نحو منزلك من الشق الذي أنت به، أرقبه : أنظر أين لمعه، عراض الشام : نواحيها، يجش رعدا: يستخرج رعدا، ضحضاح: كثير في لغة هذيل

أَمِنكِ بَرقٌ أَبيتُ اللَيلَ أَرقُبُهُ كَأَنَّهُ في عِراضِ الشامِ مِصباحُ

ويصور امرؤ القيس البرق بصورة تجسم لمعانه وضياءه، حيث شبه لعمان البرق بحركة اليدين، واختار البرق الوليف لمناسبته حركة اليدين، ثم يشبهه بمصباح الرهبان إضاءة ولمعانا، يقول(١):

أَحارِ تَرى بَرقاً أُريكَ وَميضَهُ كَلَمعِ اليَدَينِ في حَبِيٍّ مُكَلَّلِ

يُضيءُ سَناهُ أَو مَصابيحَ راهِبٍ أَهانَ السَليطَ في الذَبالِ المُفَتَّلِ

وفي صورة أخرى للبرق يعتمد امرؤ القيس في صورته على العنصر الضوئي ،فللبرق وميض يضيء قمم الجبال البيضاء، يقول:(٢)

أَعِنّي عَلى بَرقٍ أَراهُ وَميضِ يُضيءُ حَبِيّاً في شَماريخَ بيضِ

وقد أكثر الشعراء الجاهليون من تصوير النار في فصل الشتاء، فهذا هبيرة بن أبي وهب يرسم صورة يأخذ فيها العنصر الضوئي دورا بارزاً مثلا بالنار؛ إذ أوقد الشاعر نيرانه في ليلة قحط وبرد من شهر جمادى، فباتت نيرانه تتوهج كالبرق، ليدعو إليها الضيفان والعفاة، يقول:(٣)

وليلة من جمادى ذات أندية جربا جمادية قد بت أسريها

لا ينبح الكلب فيها غير واحدة من القريس، ولا تسري أفاعيها

أوقدت فيها لذي الضرا جماجمة كالبرق ذاكية الأركان أحميها

أورثني ذاكم عمرو ووالده من قبله، كان بالمشتى يغاليها

ففي صورهم الشتائية كانت نار القرى رمزًا للضيافة ، فقد ذكروا أن من علامات الجود أن توقد في ليالي الشتاء الباردة، حين تهب الريح الجافة، ويشتد البرد، فلا يستطيع الكلب أن يخرج من وجاره ، يقول عمرو بن الأهتم:(٤)

وليلة يصطفي بالفرث جازرها يختص بالنقرى المثرين داعيها

---

(١) . =يوانه،ص٢٢ والذبال : فتيلة السراج تشعل فيها النار فتضيء .

(٢) . ديوان امرئ القيس ، ص ٧٢ والشماريخ : أعالي السحاب .

(٣) . ابن هشام، السيرة النبوية، مج ٣، ص ١٣١

(٤) . شعر بني تميم في العصر الجاهلي: جمع وتحقيق عبد الحميد محمود المعيني، ص ١٧٤ والفرث : بقايا الطعام في الكرش ، العلياء : كل شيء مرتفع كالسماء والشرف .

لا ينبح الكلب فيها غير واحدة من العشاء ولا تسري أفاعيها
رفعت ناري على علياء مشرفة يدعى بها للقرى، والحق ساريها

ويصور المثقب العبدي معاناة ضيف تاه في الصحراء، وأخذ يتخبط في ظلمات الليل، لا يهتدي طريقًا، ولا يعرف سبيلا، ومما زاد الأمر وعورة أنها كانت ليلة ماطرة باردة؛ فما كان من المثقب إلا أن طلب إلى موقدي ناره أن يشباها ويرفعا سناها، وزادت توهجها ريح عاصف هبت تلك الليلة، حتى بدت النار لذلك الضال كوكبًا في السماء، فأكذب نفسه، وما كان يصدق أنها نار بشر،يقول المثقب العبدي:(١)

وَسارٍ تَعَنّاهُ المَبيتُ فَلَم يَدَع لَهُ طامِسُ الظَلَماءِ وَاللَيلِ مَذهَبا
رَأَى ضَوءَ نارٍ مِن بَعيدٍ فَخالَها لَقَد أَكذَبَتهُ النَفسُ بَل راءَ كَوكَبا
فلَمّا اِستَبانَ أَنَّها اِنسِيَّةٌ وَصَدَّقَ ظَنّاً بَعدَ ما كان كَذَّبا
رَفَعتُ لَهُ بِالكَفِّ ناراً تَشُبُّها شآمِيَّةٌ نَكباءُ أَو عاصِفٌ صَبا
وَقُلتُ اِرفَعاها بِالصَعيدِ كَفى بِها مُنادٍ لِسارٍ لَيلَةً إِن تَأَوَّبا
فَلَمَّا أَتاني وَالسَماءُ تَبُلُّهُ فَلَقَّيتُهُ أَهلاً وَسَهلاً وَمَرحَبا

إن الشاعر قد اعتمد في صورته السابقة على العنصر الضوئي(النار) بشكل كبير، فالحال التي كان عليها الضيف حال رثة، فهو في صراع عنيف مع قسوة الشتاء، وظروف الطبيعة المهلكة، وهو بحاجة إلى من ينقذه وينتصر لحياته ضد موت محقق، فكانت النار هي ذلك الرمز الذي انتصر به على الموت ، وتجاوز الظروف المهلكة لفصل الشتاء.

وفي قبالة هذه الصور الضوئية تقف بعض الصور العاتمة التي تطمس بعتمتها كل لون، فهذا معقل بن خويلد يصور إحدى ليالي الشتاء ، حيث تعتم الدنيا لتتحول إلى دهمة سوداء لكثرة الأمطار والظلمة والغيوم المجتمعة في السماء ، يقول معقل الهذلي:(٢)

فَيا رُبَّ حَيرى جُمادِيَّةٍ تَنَزَّلَ فيها نَدىً ساكِبُ

وتقترب من هذه الصورة المظلمة تلك الصورة التي رسمها أبو خراش قائلا :(٣)

---

(١) . ديوانه،ص١١٧.١١٩ ونكباء : ريح انحرفت ووقعت بين ريحين كالصبا والشمال .

(٢) . شرح اشعار الهذليين،ص٣٨٩

(٣) . شرح اشعار الهذليين،ص١٢٠٢ ودجن : دجن الليل اسود ، ساجية : ليلة ساجية أي ساكنة البرد والريح والسحاب وغير مظلمة ، غثاء : ما يحمله السيل من رغوة ومن فتات الأشياء التي على وجه الأرض.

وَلَيلَةِ دَجنٍ مِن جُمادى سَرَيتُها إِذا ما اِستَهَلَّت وَهِيَ ساجِيَةٌ تَهمي
إِذا اِبتَلَّت الأَقدامُ وَالتَفَّ تَحتَها غُثاءٌ كَأَجوازِ المُقَرَّنَةِ الدُهمِ

فالشاعر يصف إحدى ليالي الشتاء وما فيها من أمطار غزيرة مصاحبة لحلكة الليل ، فلسوادها ولعتمتها سماها الشاعر (حيرى) ، فالراكب فيها لا يهتدي إلى الدرب الذي يقصده، فالنجوم التي تساعده على ذلك قد حجبت، كما أن علامات الطريق قد اختلطت لكثرة الأمطار التي جعلت الأرض المبتلة متضاربة الأثر.

وللعنصر الحركي بوصفه أحد عناصر الصورة البصرية دور كبير في إخراجها من حالة الجمود والصمت إلى حالة الحركة والصراخ، لتصبح صورة حية نابضة بالحياة، زاخرة بالحركة والنشاط.، إذ "تمتاز الصورة الحركية عن بقية الصور بعنايتها بإبراز الفاعلية والنشاط الحركي، الذي ينساب على سلسة من لحظات متعاقبة" [١]، بينما تعني بقية الصور بتصوير مادة ثابتة،كما يبدو في قول النابغة الذبياني يصور أثر فصل الشتاء في الديار التي عفا عليها الزمن، يقول: [٢]

أَهاجَكَ مِن أَسماءَ رَسمُ المَنازِلِ بِرَوضَةِ نُعمِيٍّ فَذاتِ الأَجاوِلِ
أَرَبَّت بِها الأَرواحُ حَتّى كَأَنَّما تَهادَينَ أَعلى تُربِها بِالمَناخِلِ
وَكُلُّ مُلِثٍّ مُكفَهِرٍ سَحابُهُ كَميشِ التَوالي مُرثَعِنَّ الأَسافِلِ
إِذا رَجَفَت فيهِ رَحىً مُرجَحِنَّةٌ تَبَعَّقَ ثَجّاجٌ غَزيرُ الحَوافِلِ

يرسم صورة لعناصر الطبيعة في فصل الشتاء(الرياح والسحب والمطر)من خلال الاتكاء على العنصر الحركي ، فقد تمثلت الحركة في الأفعال (أربت، رجفت، تعبق) كما تمثلت في البنية التشبيهية (أَرَبَّت بِها الأَرواحُ حَتّى كَأَنَّما تَهادَينَ أَعلى تُربِها بِالمَناخِلِ)، ليؤكد من خلال هذه الحركة على فعل الرياح القوية ودورها في تغيير معالم الديار.

ويأتي عبد مناف الهذلي بصورة حركية أخرى يصور فيها عناصر الطبيعة في فصل الشتاء، حيث الديمة والرياح والماء، فيقول:[٣]

فَالطَعنُ شَغشَغَةٌ وَالضَربُ هَيقَعَةٌ ضَربَ المُعَوِّلِ تَحتَ الديمَةِ العَضَدا

---

(١) الصورة الفنية في شعر ابي تمام ، الرباعي، ص ١٥٤

(٢) . ديوانه،ص١٤١ والمكفهر : السحاب الغليظ الأسود .

(٣) . شرح اشعار الهذليين،ص٦٧٤.٦٧٥

وَلِلقِسِيِّ أَزاميلٌ وَغَمغَمَةٌ حِسَّ الجَنوبِ تَسوقُ الماءَ وَالبَرَدا

يبدو عنصر الحركة في هذه الصورة من خلال الطعن والضرب ووقع المطر، ولكن هذه الحركة تتجلى بوضوح في الاستعارة الأخيرة(حسّ الجنوب تسوق الماء)، حيث شبه القوس بالإبل التي يسوقها حاديها إلى مورد الماء، وكأن الشاعر يرى هذه الحركة التي تقوم بها الرياح، فأرادها أن تكون أوقع في النفس وأجمل في التعبير.

ومن قبيل الصور الحركية المستمدة من فصل الشتاء، قول طرفة بن العبد في تشبيه ناقته في قوتها وحركتها بمرور سحاب مرعد وسط ريح عاصفة ، حيث يقول:(١)

مَوضوعُها زَولٌ وَمَرفوعُها كَمَرِّ صَوبٍ لَجِبٍ وَسطَ ريح

إن هذه الصورة البصرية المتمثلة في التشبيه، قد تشكلت من خلال العنصر الحركي ، حيث شبه الشاعر سير ناقته وعدوها مسرعة بسرعة مرور وحركة المطر المصوت الذي تسوقه ريح سريعة.

ومن الصور الحركية التي تصور أحد عناصر الطبيعة في فصل الشتاء، قول ملحة الجرمي مصورا السحاب الذي يسير في جو السماءِ متنقلا مَن مكان إلى آخر، وفيه تتجمع مزن محملة بالماء فلا تقوى على الحركة وتترنح مثاقلةً كأنها سكارى، يقول(٢)

أرقت وطال الليل للبارق الومض حبياً سرى مجتاب أرض إلى أرض

نشاوى من الإدلاج كدري مزنه يقضي بجدب الأرض ما لم يكد يقضي

وفي المقابل تتراءى الصور المقابلة ، وهي الصورة السكونية ، وإن كان وجودها أقل بكثير من الصور الحركية النشطة ، إلا أنها تشغل جزءا ملحوظا في شعر الشتاء ، و إن كانت هذه الصور في معظمها قد جاءت مغلفة بنوع من الحركة، وذلك في محاولة من الشعراء لكسر جمودها ، وتخفيف شدة سكونها ، كما في قول مشبها السحب في السماء بالإنسان الذي قُيد بالأغلال عندما يخطو:

أَرِقتُ لَهُ مِثلَ لَمعِ البَشي رِ يُقَلِّبُ بِالكَفِّ فَرضاً خَفيفاً

فَأَقبَلَ مِنهُ طِوالُ الذُرا كَأَنَّ عَلَيهِنَّ بَيعاً جَزيفا

وَأَقبَلَ مَرّاً إِلى مَجدَلٍ سِياقَ المُقَيَّدِ يَمشي رَسيفا

---

(١) ، ديوانه،ص١٤٦ واللجب : صهيل الخيل .

(٢) ديوان الحماسة،ص٣٧٧ والبارق : سحاب ذو برق ، الإدلاج : السير في الليل .

فالشاعر وإن كان قد وصف سكون السحاب بعبارة المُقَيَّدِ إلا إنه لجأ إلى أسلوب آخر غلف به حالة السكون هذه ، وهو قوله: " يَمشي رَسيفا " ، دلالة على مضي الوقت ، ودوران الزمن السريع ، كاسراً بذلك جمود الحركة ، فالصورة وإن سكنت من جانب نراها تحركت من جانب آخر.

وتظهر كذلك الصورة السكونية ، عند عروة بن الورد الذي صور السحب المحملة بالماء أثناء سيرها البطيء بحركة الكسير الذي كُسِرت رجلاه فلا يستطيع المشي عليهما بل يزحف زحفاً،يقول:(١)

أَرِقتُ وَصُحبَتي بِمَضيقِ عُمقٍ لِبَرقٍ في تِهامَةَ مُستَطيرِ
إِذا قُلتُ اِستَهَلَّ عَلى قَديدٍ يَحورُ رَبابُهُ حَورَ الكَسيرِ

ثانيًا. الصورة السمعية :

تتجه الصورة فيها إلى الأذن وتخاطب حاسة السمع، وبشكل عام يمكن القول إن الصورة السمعية رصدت صوت عناصر الطبيعية في فصل الشتاء كالمطر والرعد والريح ، فهذا ساعدة بن جؤية يشبه صوت الرعد بهدر الفحل ،يقول :(٢)

لَمّا رَأَى عَمقاً وَرَجَّعَ عَرضُهُ رَعداً كَما هَدَرَ الفَنيقُ المُصعَبُ

ويشبه امرؤ القيس صوت الرعد بصوت الرحى(٣)،يقول:

إذا رَجفتْ فيه رحىً مُرجَحِنّةٌ تَبَعَّجَ بالرعد الحَبيُ مُسَيَّرا

ويرسم البريق الخناعي صورة صوتية للرعد ، من خلال تشبيه صوت الرعد بالمرتجز، وذلك لتوالي الصوت وتقاربه، يقول: (٤)

سَقى الرَحمنُ جِزعَ نُبايِعاتٍ مِنَ الجَوزاءِ أَنواءً غِزارا
بِمُرتَجِزٍ كَأَنَّ عَلى ذُراهُ رِكابَ الشامِ يَحمِلنَ البُهارا

---

(١) . ديوانه ص٦٣ ومستطير : استطار البرق انتشر في أفق السماء ، قديد : لحم مقطع مملح مجفف في الشمس والهواء.

(٢) . شرح أشعار الهذليين،ص١١٠٤ وهدر : من الهدير وهو صوت شديد قوي دوي .

(٣) امرؤ القيس: ديوانه ص ٢٦٦.

(٤) . شرح أشعار الهذليين،ص ص٧٤٢

وضمن لوحة الطلل يصور بشر بن أبي خازم صوت الرعد بصوت اليراع: [١]

عَفاها كُلُّ هَطّالٍ هَزيمٍ يُشَبَّهُ صَوتُهُ صَوتَ اليَراعِ

ويرسم النابغة الذبياني صورة سمعية للسحاب المصحوب بالرعد، فهو ذو صوت غليظ، يقول:[٢]

أَجَشَّ سماكيّاً كأنَّ رَبابَهُ أراعيلُ شتّى منْ قلائِصَ أُبَّدِ

ومن السحاب ما يكون لصوت زجل، كأنه الغناء كما يقول عمرو بن قميئة:[٣]

فسقى منازلها وحلَّتَها قَرِدُ الرَّبابِ لصوتهِ زَجَلُ

ويصور أوس بن حجر صوت السحاب بأصوات نوق عشار أتى عليها عشرة أشهر من حملها، وكذلك الإبل المسنة، والنوق التي اشتد فصيلها وقوي، تلك جميعها (تحنّ) وفي صوتها تطريب وهي ترعى ما أمرعت به الأرض بعد الغيث، فانسجم الحنين مع صوت السحاب المثقل بالماء، يقول :[٤]

هَبَّتْ جنَوبٌ بأعلاهُ ومالَ بهِ أعجازُ مُزْنٍ يَسُحُّ الماءَ دَلاّحِ

كأنَ فيهِ عِشاراً جِلّةً شُرفاً شُعْثاً لها ميمَ قد هَمّتْ بإرشاحِ

ونسمع للمطر صوتاً عند بشر من خلال لفظة "الودق" التي تعني المطر الشديد الدائم الواسع القطر، وذلك في قوله:[٥]

أَرَّب على مغانيها مُلِثٌّ هزيمٌ ودْقُهُ حتّى عَفاها

وللمطر عند امرئ القيس جلبة لشدة وقعه، وقد استخدم لفظة (الودق) أي شدة المطر ،يقول:[٦]

---

(١) . ديوانه،ص١٠٩ وأنواء : النوء المطر الشديد ، مرتجز : ارتجز الرعد سمع له صوت متتابع .

(٢) ديوانه: ص١٠٠ وأجش: أجشّ الصوت: غِلَظُ الصوت، أراد أنه سحاب ذو رعد. سماكياً، منسوب إلى نوء السماك، والسماك طائفة من النجوم وهو نوء غزير الأمطار. أراعيل: طائفة من الناس أو الأنعام: شبّه السحاب بذود من النوق. الرباب: السحاب. أبّد: أي قد توحشت.

(٣) ديوان عمرو بن قميئة، تحقيق: خليل إبراهيم العطية، دار صادر بيروت –لبنان، ط٢، ١٩٩٤، ص٥٢ والرباب : سحاب أبيض متوسط الإرتفاع .

(٤) ديوان أوس بن حجر: ص١٦–١٧والمزن : سحاب يمطر .

(٥) ديوان بشر بن أبي خازم: ص ٢٢٠°

(٦) ديوان امرؤ القيس: ص٥١.

خفاهُنَّ منْ انفاقِهِنَّ كأنّما خَفاهُنَّ وَدْقٌ منْ عَشّيٍ مُجَلِّبِ

ومن الصور السمعية تلك الصور التي كنى بها الشاعر عن شدة البرد وقسوة الظروف في فصل الشتاء، والتي كانت مدعاة للكرم كما في قول الخنساء: (١)

فَمَن لِلضَيفِ إِن هَبَّت شَمالٌ مُزَعزِعَةٌ تُجاوِبُها صَباها

فالكناية السمعية (هبت شمال) تدل على قسوة الظروف في فصل الشتاء والتي كانت مدعاة للكرم.

ومن الصور السمعية تلك الصور التي شبه بها الشعراء الكتائب وسرعتها وشدتها بالريح تسوق السحاب. كما يبدو في قول معقل بن خويلد (٢)

فجاءوا عارضًا بردًا وجئنا كهيج الريح تقذف بالغمام

وقول: الأعشى :(٣)

ثم ولوا عند الحفيظة والصبر كما تطحر الجنوب الجهاما

وقول بشر بن أبي خازم :(٤)

فلما رأونا بالنسار كأننا نشاص الثريا هيجتها جنوبها

ومن الصور السمعية قول الحارث بن حلزة مصورا وقع سيوف قومه على رؤوس أعدائهم بوقع المطر على البيت من الجلد، يقول:(٥)

وحَسِبْتِ وَقْعَ سُيُوفِنا بِرُؤُوسِهِمْ وَقْعَ السَّحَابِ عَلَى الطِّرَافِ المُشْرَجِ

فهي صورة لأصوات السيوف في الرؤوس تشبه وقع المطر على بيت من جلد منصوب، فتوحي لنا بدرجة الصوت أولا وبتواليه وشموله ثانيا، فسرعة الضرب متوالية شاملة لكل أجزاء الرأس كسرعة وشمولها حبات المطر.

---

(١) . ديوانها ٧٧ وصباها : الصبا ريح مهبها من المشرق .

(٢) شرح أشعار الهذليين،ص١٠٥

(٣) . ديوانه ،ص٣٩٩ والجهام : سحاب لا ماء فيه .

(٤) . ديوانه،ص١٦

(٥) المفضليات، ص ٢٦٥ .السحاب: المطر مجاز مرسل علاقته السببية. الطراف: البيت من إلادم أي الجلد. المشرج: المدخلة عراه في بعضها وبمعنى المشدود وهو المراد في الصورة اللسان مادة "شرج" .

نلاحظ أن الصوت . في الأمثلة السابقة . مهم في توضيح جوانب الصورة الفنية، وإخراجها من حالة الجمود والصمت إلى حالة الحركة والصراخ، لتصبح صورة حية نابضة بالحياة، ومشهدا متكاملا بعناصره جميعا.

ثالثًا. الصورة الشمية :

وفيها تتجه الصورة إلى حاسة الشم، وقد استثمر الشعراء هذه الحاسة عند رسمهم لصور الكرم في فصل الشتاء ، فهذا حاتم الطائي يفتخر بكرمه في فصل الشتاء قائلا:(١)

شَآمِيَةٌ لَم يُتَّخَذ لَهُ حاسِرُ ال طَبيخِ وَلا ذَمَّ الخَليطِ المُجاوِرِ
يُقَمِّصُ دَهداقَ البَضيعِ كَأَنَّهُ رُؤوسُ القَطا الكُدرِ الدِقاقِ الحَناجِرِ
كَأَنَّ ضُلوعَ الجَنبِ في فَوَرانِها إِذا اِستَحمَشَت أَيدي نِساءٍ حَواسِرِ
إِذا اِستُنزِلَت كانَت هَدايا وَطُعمَةً وَلَم تُختَزَن دونَ العُيونِ النَواظِرِ
كَأَنَّ رِياحَ اللَحمِ حينَ تَغَطمَطَت رِياحُ عَبيرٍ بَينَ أَيدي العَواطِرِ

تبدو في هذه اللوحة العناصر البصرية والحركية والشمية مجتمعة، فقطع اللحم في قدور حاتم وكأنها رؤوس القطا، وكأن أعضاء الجزور سواعد النساء اللواتي كشفن عن أيديهن، ليبرز في أخر اللوحة اعتماد الشاعر على حاسة الشم في استجلاء الصورة وإبرازها فرائحة اللحم كأنها رائحة العبير بين أيدي نساء يتعطرن به.

ويكثر الشعراء من استعمال عناصر الطبيعة في فصل الشتاء في رسم صور شمية لمجبوباتهم، ففي صورة تعتمد على حاسة الشم يصور حسان بن ثابت رائحة محبوبتة بالمسك الذي مزج بماء السحابة، يقول:(٢)

تَبَلَت فُؤادَكَ في المَنامِ خَريدَةٌ تَشفي الضَجيعَ بِبارِدٍ بَسّامِ
كَالمِسكِ تَخلِطُهُ بِماءِ سَحابَةٍ أَو عاتِقٍ كَدَمِ الذَبيحِ مُدامِ

(١) . ديوانه ص١٩٨ ودهداق : الممتلئ ، الحواسر : الحاسرة من النساء مكشوفة الرأس والذراعين .

(٢) . ديوانه،ص٢٩ وخريدة : عذراء بكر لم تمس .

وهذا كعب بن زهير يصور الأمطار التي تسقي الديار في فصل الشتاء، فتنبت النباتات ذات الرائحة الطيبة (الغفو والريحان)، فترعى بين جنباتها الحيوانات، وتزدهر الحياة في الأطلال، فتوحي بدورة حياة متجددة فيها، يقول:(١)

لازَالتِ الريحُ تُزجي كُلَّ ذي لَجَبٍ غَيثاً إذا ما وَنَتهُ ديمةٌ دَفَقا
فَأَنبَتَ الغَفوَ وَالريحانَ وابِلُهُ وَالأَيهُقانَ مَعَ المُكنانِ وَالذُرَقا
فَلمَ تَزَل كُلُّ غَنّاءٍ البُغامِ بِهِ مِنَ الظِباءِ تُراعي عاقِداً خَرِقا

رابعا . الصورة الذوقية :

هي الصورة التي تعتمد على حاسة الذوق، وأكثر ما نلتقي هذه الصورة عند حديث الشعراء عن المرأة، فهذا الحطيئة يستمد من فصل الشتاء صورة ذوقية حين يصور ريق المرأة وثغرها، ويربطه بالمطر العذب والخمر، يقول: (٢)

إذا ذقت فاها ذقت طعم مدامة بنطفة جون سال منه الأباطح

وفي صورة أخرى يصور فيها ثغر الحبيبة الذي يكشف عن أشعة بيضاء من أسنانها، وريق عذب مزج بما قطر من ماء المطر والعسل والخمر، فيقول:(٣)

وتبسم عن عذب مجاج كأنه نطافة مزن صفقت بشمول

في حين يصور المسيَّب بن علَس ريق محبوبته الظاعنة بماء سحابة غادية لقحتها الصبا– وهي أحمد الرياح– وضع في إبريق أبيض ووضع حوله الطين ليبرده. فالماء لذيذ طيب بارد،
يقول:(٤)

---

(١) ديوان كعب بن زهير، ص:٢٣٤ والأيهقان : عشب طويل عريض الورق زهره كزهر الكرنب ، البغام : صوت الظبية .

(٢) ديوان الحطيئة :١٥٢ والمدامة : الخمر ، الأباطح : أرض منبسطة فسيحة الأرجاء .

(٣) ديوان الحطيئة :٣٥. نطافة مزن : ما قطر منها والنطافة : الماء ، حجاج : حجاج النحل ما يقلس من العسل ، شمول : الغمر .

(٤) المفضليات ، ص ٦١ . مهاً: بلور شبه ثغرها به لصفائه. عانية: خمر منسوبة إلى عانة بلد بالعراق. شجت: خلطت ومزجت. يراع: قصب أي ماء جدول في حافتيه قصب. صوب: مطر غادية: سحابة غدت أي صبحت أراد سحابة أتت مع الفجر فمطر الليل عندهم أحمد. الصبا: ريح الصبا وهي ريح سهلة يكون

أَرَحَلْتَ مِن سَلْمَى بغيرِ مَتَاعِ قبلَ العُطَاسِ ورُعتْهَا بوَدَاعِ

ومَهاً يَرِفُّ كأَنه إِذْ ذُقْتَهُ عانِيَّةٌ شُجَّتْ بماءِ يَرَاعِ

أَو صَوْبُ غادِيَةٍ أَدَرَّتْهُ الصَّبَا بِبَزِيلِ أَزْهَرَ مُدْمَجٍ بِسَيَاعِ

ويصف الحادرة ريق سمية بأنه عذب المذاق فهو في برودته كالماء الذي أتى به السحاب الذي استخرجته ريح الصبا، يقول:(١)

وإذا تنازعك الحديث رأيتها حسنًا تبسمها، لذيذ المكرع

بغريض ساريةٍ أدرته الصبا من ماءٍ أسجر طيب المستنقع

ظلم البطاح له انهلال حريصةٍ فصفا النطاق له بعيد المقلع

لعب السيول به فأصبح ماؤه غلاً لا تقطع في أصول الخروع

ومن الصور الذوقية المستمدة من فصل الشتاء قول أبي ذؤيب مصورا أثر ريح الشمال الطيب في الخمر :(٢)

وَما إِن رَحيقٌ سَبَتها التِجا رُ مِن أَذرِعاتٍ فَوادي جَدَر

سُلافَةُ راحٍ تُريكَ القَذى تُصَفَّقُ في بَطنِ زِقٍّ وَجَر

وَتُمزَجُ بِالعَذبِ عَذبِ الفُرا تِ زَعزَعَه الريحُ بَعدَ المَطَر

تَحَدَّرَ عَن شاهِقٍ كَالحَصي رِ مُستَقبِلَ الريحِ وَالفَيءِ قَر

فَشَجَّ بِهِ ثَبَراتِ الرِصا فِ حَتّى تَزَيَّلَ رَنقُ المَدَر

فَجاءَ وَقَد فَصَلتُهُ الشَما لُ عَذبَ المَذاقَةِ بُسراً خَصِر

بِأَطيَبَ مِنها إِذا ما النُجو مُ أَعنَقنَ مِثلَ تَوالي البَقَر

ويصف امرؤ القيس المياه العذبة التي أنزلتها السحب في فصل الشتاء، فتجمعت في قيعان الصخور، ثم أخذت هذه المياه ومزجت بالخمر، فزادتها عذوبة وبرودة، يقول:(٣)

إِذا قامَتا تَضَوَّعَ المِسكُ مِنهُما نَسيمَ الصَبا جاءَت بِريحٍ مِنَ القُطُر

معها المطر. بزيل: مابزل أي ثقب إناؤه. أزهر: أبيض أي دن أبيض. مدمج: ملطخ ومغطى. س‌اياع: طين وذلك أبرد له

(١) . ديوانه،ص٣٠٦.٣٠٨

(٢) . شرح اشعار الهذليين،ص١١٥.١١٧

(٣) . ديوانه، ص٩٩. ١٠٠

كَأَنَّ التُجارَ أُصعِدوا بِسَبيئَةٍ مِنَ الخِصّ حَتّى أَنزَلوها عَلى يَسَر
فَلَمّا اِستَطابوا صُبَّ في الصَحنِ نِصفُهُ وَشُجَّت بِماءٍ غَيرِ طَرقٍ وَلا كَدِر
بِماءِ سَحابٍ زَلَّ عَن مُتنِ صَخرَةٍ إِلى بَطنِ أُخرى طَيِّبٍ ماؤُها خَصِر

يرسم امرؤ القيس في هذه اللوحة صورة للخمر التي شربها ، ويركز فيها على العنصر الذوقي ، فهذه الخمر قد أتت من الشام في أيام البرد، وقد صب الخمر إلى نصف الصحن والنصف الآخر كان من الماء، وهذا الماء . بعد أن جادت به السماء. تحدر عن ظهور الصخور إلى أن وصل إلى بطن صخرة عظيمة، فصفا فيها الماء ورق، فازداد عذوبة وبرودة ، فرق طعمه وطاب.

الموسيقى الشعرية

تمنح الموسيقى الشعرية النص بُعداً إيحائياً خاصاً من خلال تناسب الألفاظ والإيقاع والبحر المناسب للأغراض الشعرية، والموسيقى ليست مجرّد قالب شعري تُصاغ في حدوده القصيدة ، بل هي مجموعة من دلالات تُعدُّ صدىً لما يختلج الشاعر من أحاسيس وأفكار، فهي إنعكاس للمعاني والألفاظ التي يُمكن أن تثير فينا إيحاءات مُتعدّدة داخل بُنية القصيدة . فالوزن " يحمل دلالات شعورية عامّة مُبهمة، ويترك للكلمات بعد ذلك تحديد هذه الدلالة " [١] وما تخلقه القصيدة في المُتلقّي من طرب وتأثير مردّه إلى بنيتها الإيقاعية ، وما توفّره تلك البنية من عناصر نغميّة تجسّد أبعاد التجربة للشاعر المبدع ، لذا فقد ارتبط الشّعر القديم بالنغم [٢] ، فكانت الغنائية سمة لازمة للشعر العربي القديم ، ولهذه الأهمية فقد كانت العرب "تزن الشّعر بالغناء [٣] " . وقد نظم الشّعر الجاهليّ ليسمع ، وحتى يلقى ذلك الشّعر ذيوعاً وانتشاراً فلا بدّ من أن تستمتع الأذن بموسيقاه . وتبدو الموسيقى عنصراً مهماً في تجسيد

(١) موسيقى الشعر ، د. إبراهيم أنيس ، دار القلم ، بيروت : ٢٢

(٢) قضايا الشّعر الجاهليّ ،علي العتوم، مكتبة الرسالة الحديثة عمان، الأردن ١٩٨٥ ، ٤٠-٤١ . والأصول الفنية للشعر الجاهليّ ، سعد إسماعيل شلبي، مكتبة غريب، ١٩٨٢، ص ١١١ .

(٣) الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، محمد بن عمران بن موسى المرزباني ، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية ، ١٩٩٥، ص ٤٧ .

الإحساس الكامل في طبيعة العمل الشّعري [١] ، وأحلى الصّور الشّعرية تلك التي اختير لها بحر ذو إيقاعات تناسبها [٢] .

ولاتقلُّ الموسيقى في أهميّتها عن المعاني والألفاظ والصورة الشعرية ، بل هي جزء مكمّل لتلك الأركان فلا تهمّنا في القصيدة " المعاني وحدها وإنَّما تهمُّنا موسيقاها وألفاظها وطريقة الشاعر في تشكيل مادتها الحسية أو الصوتية "[٣].

وتتجلّى الموسيقى الشعرية في صورتين: الموسيقى الخارجية ، وتتمثل بالوزن والقافية ، والموسيقى الداخلية التي تنتج عن تكرار الألفاظ والأساليب اللغوية، و الحروف، وما يستخدمه الشعراء من مُحسّنات لفظية ، كالجناس والطباق ، والتصريع، وغيرها .

الموسيقى الخارجية :

تتشكل الموسيقى الخارجية من الوزن والقافية. ويعرف الوزن بأنه " كلام يستغرق التلفظ به مدّة من الزمن مُتساوية الكمّية "[٤]. ويعدُّ الوزن أهمّ جزء في القصيدة فهو" أعظم أركان الشعر وأولاها به خُصوصيّة وهو مُشتمل على القافية وجالب لها الضرورة "[٥].

وقبل الولوج إلى فاعلية الوزن الشعري وأثره في تصوير فصل الشتاء في الشعر الجاهلي لا بدّ من الوقوف عند قضية هامة وهي علاقة الوزن بالموضوع، فقد تطرق النقاد قديما وحديثا إلى أهمّية مناسبة الوزن لموضوع القصيدة ، فحازم القرطاجنّي ، يقول: " فإذا قصد الشاعر الفخر حاكى غرضه بالأوزان الفخمة الباهية الرصينة، وإذا قصد في موضوع قصداً هزلياً أو

---

(١) الشّعر الجاهليّ منهج في دراسته وتقويمه، د. محمد النويهي ، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة ، بدون، ٤٧/١ .

(٢) – نفسه : ٦٠/١ .

(٣) في النقد الأدبي ، د. شوقي ضيف ، دار المعارف . القاهرة ، ط٢ ،(١٩٦٦) : ١٢٦ .

(٤) الإيقاع في الشعر العربي من البيت إلى التفعيلة ، د. مصطفى جمال الدين ، النجف الأشرف ، ط٢ ، (د . ت) ص ٧٢.

(٥) العمدة في صناعة الشعر ونقده، أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني، تحقيق: د. النبوي عبدالواحد شعلان، مكتبة الخانجي، ط١، ٢٠٠٠م، ص ١٣٤ .

استخفافياً وقصد تحقير شيء حاكى ذلك بما يناسبه من الأوزان الطائشة القليلة البهاء وكذلك في كُلّ مقصد"[١].

ويربط أبو الهلال العسكري بين الوزن وموضوع القصيدة حين يقول: ((وإذا أردت أن تعمل شعراً فأحضر المعاني التي تريد نظمها فكرك ، وأخطرها على قلبك واطلب لها وزناً يتأتى فيه إيرادها ، وقافية تحتملها))[٢] ،

أما النقاد في العصر الحديث، فلعل أول من بحث قضية الربط بين الوزن وموضوع القصيدة سليمان البستاني ، الذي راح يبحث في أوزان الشّعر العربي ، وأشار إلى خصائص كل وزن، وإلى الأغراض الشّعرية التي يصلح لها كل وزن [٣] . وتابعه الدكتور عبد الله الطيب المجذوب الذي أشار إلى هذا الربط في كتابه المرشد إلى فهم اشعار العرب وصناعتها [٤] .

وذهب آخرون إلى الربط بين الوزن والعاطفة ، وفي هذا الربط يقول إبراهيم أنيس : " نستطيع ونحن مطمئنون أن نقرّر أن الشّاعر في حالة اليأس والجزع يتخيّر وزناً طويلاً كثير المقاطع يصبّ فيه من أشجانه ما ينفّس عن حزنه وجزعه ، فإذا قيل الشّعر وقت المصيبة والهلع تأثر بالانفعال النفسي ، وتطلب بحراً قصيراً يتلاءم وسرعة التنفس وازدياد النّبضات القلبيَّة [٥] " .

في حين يصف الدكتور محمد النويهي الربط بين البحر والعاطفة بالتعسف ويرى أن الصحيح هو الربط بين البحر ودرجة العاطفة[٦] .

ومن الباحثين من رفض فكرة الرّبط هذه ، لأن حقائق الشّعر الجاهليّ تنقض ذلك ، ووجدوا أن الشعراء الجاهليين كانوا يمدحون ، ويفاخرون ، أو يتغزلون في كل بحور الشّعر التي شاعت عندهم [٧].

---

(١) منهاج البلغاء وسراج الأُدباء ، حازم القرطاجنّي ، تحقيق محمد بن الخواجة ، تونس ، ١٩٦٦م :٢١٦ .

(٢) الصناعتين : ١٤٥ .

(٣) إلياذة هوميروس ، ترجمة : سليمان البستاني ، مطبعة الهلال، مصر،١٩٠٤م، ٩١/١ .

(٤) ينظر : ١ / ٧٢ وما بعدها .

(٥) موسيقى الشعر، د . إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٢، ١٩٥٢م، ١٧٧-١٧٨ .

(٦) ينظر: الشعر الجاهلي منهج في دراسته وتقويمه : ١ / ٦٢ .

(٧) النقد الأدبي الحديث ، د . محمد غنيمي هلال، دار الثقافة، بيروت،١٩٧٣م، ٤٦٧-٤٦٨ .
وفي النقد الأدبي ،د . شوقي ضيف : ١٥٢ .

وفي حديثنا عن فاعلية الوزن في تصوير الشعراء الجاهليين لفصل الشتاء وعناصره الطبيعية وظواهره الاجتماعية ، نقول: إن الشاعر الجاهلي استطاع أن يعبر من خلال الموسيقى عن ((معانيه وأحاسيسه المتناقضة التي يمتلئ بها عالمه النفسي الواقعي وتجد صداها في عالمه الشعري))[١] ، لذلك فقد استعمل معظم البحور الشعرية في تصويره لفصل الشتاء ، دون التفريق بين بحر هادئ وآخر سريع ، فالأداء الشعري كما نراه يأتي تبعاً للحالة النفسية والشعورية التي يمّر بها الشاعر ذلك أن ((إيقاع الشعر هو إيقاع نفسي يسبق الإيقاع العروضي وهو ذو طبيعة متنوعة بتنوع الأحوال النفسية لأنه انعكاس لطبيعة الانفعالات النفسية))[٢] ، ثم إن موسيقى الشعر لا تتحقق بمحض الإيقاع العام الذي يحدده البحر بل تتحقق أولا بالإيقاع الخاص لكل كلمة وثانياً بالجرس الخاص لكل حرف في البيت الشعري ثم الجرس المؤتلف الذي ينتج عن الكلمات عند اجتماعها في البيت كله ، وهذا الانسجام بين جانبي الإيقاع والجرس يتولد عنه (النغم الشعري)[٣] ، الذي هو ((اجتماع الأصوات اللغوية تحت تنظيم الإيقاع في تموج يعلو ويهبط ، ويلين ويشتد ، متلائماً مع تموج الفكرة والانفعال))[٤] . ولذلك يميل الباحث إلى عدم وجود رابط بين البحر أو الوزن الشعري وبين الموضوع، فالوزن المجرد ((لا يحمل أي دلالة خاصة، وإنما تحدد دلالته فيما بعد عناصر موسيقية أخرى ترتبط بنوع الإيقاع ودرجته))[٥]. فتصوير الشتاء موضوع دراستنا الحالية موضوع جزئي لم يستقل بقصائد ، فقد يأتي في عدة أبيات ، وقد يأتي في بيت أو جزء من بيت ، كمان أن معظم الشعراء وصفوه، فلم تقتصر الدراسة على شاعر معين ليتسنى لنا دراسة شعره وبيان أثر الوزن فيه . إذ لا سمة تجمع بين الشعراء في ذلك، فلكل منهم حالة وموقف جعله ينظم على هذا البحر أو ذاك دون قصد منه. ولا يمكن أن نعمم أن شعر الشتاء قد نظم على بحر معين دون سواه أو أن نقول أن أغلب القصائد التي نظمت فيه كانت على بحر معين فلكل شاعر حالة نفسية يمر بها خلال نظمه قصائده عامة، ومنها التي تناولت شعر الشتاء .

---

(١) الموقف النفسي عند شعراء المعلقات، مي يوسف خليف، دار غريب – القاهرة، : ٣٧ .

(٢) الايقاع النفسي في الشعر العربي ، عباس عبد جاسم ، مجلة الاقلام ، عدد ٥ ، ١٩٨٥ ، ٩٧ .

(٣) ينظر :الشعر الجاهلي منهج في دراسته وتقويمه : ١ / ٣٩.

(٤) م . ن : ١ / ٤٠ .

(٥) التفسير النفسي للأدب، د. عز الدين إسماعيل، مكتبة غريبب بدون،، ص ٦٠ .

ويجدرالوقوف عند بعض البحور التي نظم الشعراء عليها في تصوير لوحاتهم الشتائية، للتأكيد على أن الشعراء نظموا على مختلف البحور الشعرية، فهذا عمرو بن الأهتم، ينظم لوحة فنية شتائية متكاملة على البحر الطويل الذي طوعه في فخره نظرا "لامتداد نفسه وخفاء جرسه وسعته" [١]، يقول عمر بن الأهتم:[٢]

ومُسْتنْبِحٍ بعدَ الهُدُوءِ دَعْوَتُهُ وقد حانَ من نَجْم الشِّتاءِ خُفُوقُ
يُعالِجُ عِرْنيناً منَ اللَّيلِ بارداً تَلُفُّ رِياحٌ ثَوْبَهُ وبُرُوقُ
تَأَلَّقُ في عَيْنٍ منَ المُزْنِ وادِقٍ لهُ هَيْدَبٌ دَانِي السَّحَابِ دَفُوقُ
أَضَفْتُ فلم أُفْحِشْ عليهِ ولم أَقُلْ لِأحْرِمَهُ: إنَّ المكانَ مَضِيقُ
فَقلْتُ لهُ: أَهلاً وسهلاً ومَرحباً فهذا صَبُوحٌ راهِنٌ وصَدِيقُ
وقُمتُ إلى البَرْكِ الهَواجِدِ فاتَّقَتْ مَقاحِيدُ كُومٌ كالمَجَادِلِ رُوقُ
فَباتَ لَنَا منها وللِضَّيْفِ مَوْهِنا شِوَاءٌ سَمِينٌ زَاهِقٌ وغَبوقُ
وبَاتَ لهُ دُونَ الصَّبَا وهْيَ قَرَّةٌ لِحَافٌ ومَصْقُولُ الكِسَاءِ رَقِيقُ

فالشاعر نظم هذه الأبيات على البحر الطويل ، وقد افتخر فيها بقدرته على الكرم والعطاء وإغاثة الملهوف في ليالي الشتاء الباردة .

ويعد البحر الكامل "أكثر البحور حركات فالبيت منه يشتمل على ثلاثين حركة" [٣] ،وسمي كاملا لتكامل موسيقاه، ويبدو أثر هذا النغم المتكامل للإيقاع الشعري في أبيات طرفة الآتية التي يفتخر بها بقومه مصورا كرمهم في فصل الشتاء، يقول:[٤]

إنّي مِنَ القَومِ الَّذينَ إذا أَزِمَ الشِتاءُ وَدوخِلَت حُجَرُه
يَوماً وَدونِيَتِ البُيوتُ لَهُ فَثَنى قُبَيلَ رَبيعِهِم قِرَرُه

---

(١) المرشد الى فهم أشعار العرب وصناعتها ،عبد الله الطيب المجذوب ،دار الفكر– الطبعة الثانية ١٩٧٠م، ج١، ص٣٦٨

(٢) . المفضليات،ص٤٥٣.٤٦٢ ومستنبح : فاعل من استنبح : استنبح الكلب أي جعله يصوت وحمله على النباح ، العرنين : أول كل شيء كالأنف ، الغبوق : ما يشرب في العشي .

(٣) فن التقطيع الشعري والقافية: د.صفاء خلوصي ، منشورات مكتبة المثنى، بغداد، ط٥، ١٩٧٧م، ص٩٥.

(٤) . ديوانه،ص١٣٢ والمنقيات : مفردها منقية والمنقية من النوق ذات الشحم .

رَفَعوا المَنيحَ وَكانَ رِزقَهُمُ في المُنقِياتِ يُقيمُهُ يَسَرُه
تَلقى الجِفانَ بِكُلِّ صادِقَةٍ ثُمَّت تُرَدَّدُ بَينَهُم حِيَرُه
إِنّا لَنَعلَمُ أَن سَيُدرِكُنا غَيثٌ يُصيبُ سَوامَنا مَطَرُه

أما البحر البسيط فتتميز تفعيلاته بأنها" تمتلك الإيقاع المتأرجح بين الرنين السريع والامتداد الهادئ الحزين))، ويظهر ذلك جليا في قول زهير بن أبي سلمى مصورا كرم قومه [1]في فصل الشتاء :

تَاللهِ قَد عَلِمَت قَيسٌ إِذا قَذَفَت ريحُ الشِتاءِ بُيوتَ الحَيِّ بِالعُنَنِ
أَن نِعمَ مُعتَرَكُ الحَيِّ الجِياعِ إِذا خَبَّ السَفيرُ وَمَأوى البائِسِ البَطِنِ
مَن لا يُذابُ لَهُ شَحمُ النَصيبِ إِذا زارَ الشِتاءُ وَعَزَّت أَثمُنُ البُدُنِ

ومن البحور التي نظم عليها الشعراء البحر الوافر ((وسمي وافرا لوفور أوتاد أجزائه وقيل لوفور حركاته)) [٢]وفيه ((تلاحق للأجزاء وسرعة في النغمات [٣]، يقول الحطيئة:[٤]

هُمُ القَومُ الَّذينَ عَلِمتُموهُم لَدى الداعي إِذا رُفِعَ اللِواءُ
إِذا نَزَلَ الشِتاءُ بِدارِ قَومٍ تَجَنَّبَ دارَ بَيتِهِمُ الشِتاءُ

أمّا القافية ، فلا يقل اهتمام الشعراء بها عن الوزن ،فالقافية " ليست مجرد أصوات تتكرر في أواخر أبيات القصيدة، وإنما تكررها هذا يكون جزءا هامًّاً من الموسيقى الشعرية، فهي بمثابة الفواصل الموسيقية يتوقع السامع ترددها، ويستمتع بهذا التردد الذي يطرق الآذان فترات زمنية منتظمة"[٥] ، ولنستمع إلى أبيات طرفة مصورا فصل الشتاء في معرض فخره بقومه، وهو يقول:[٦]

---

(١) . ديوانه،ص٢٨١ العنن : العنان وهو السحاب ، معترك : موضع اعتراك .

(٢) فن التقطيع الشعري: د.صفاء الخلوصي،ص٨٤.

(٣) ينظر: شرح تحفة الخليل في العروض والقافية، عبدالحميد الراضي ، مطبعة العاني بغداد ١٩٦٨م ص١٥٣.

(٤) . ديوانه،ص٨٨ واللواء : العلم.

(٥) إبراهيم أنيس ، موسيقى الشعر،ص ٢٤٢.

(٦) . ديوانه،ص٣٧ والجفلى : دعوة الناس إلى الطعام دعوة عامة من غير تخصيص ، السديف : لحم السنام ، الجوابي : مفردها جابية وهو الحوض يجبى فيه الماء ، مترعة : ممتلئة .

نَحنُ في المَشتاةِ نَدعو الجَفَلى لا تَرى الآدِبَ فينا يَنتَقِر
حينَ قالَ الناسُ في مَجلِسِهِم أَقُتارٌ ذاكَ أَم ريحُ قُطُر
بِجِفانٍ تَعتَري نادِيَنا مِن سَديفٍ حينَ هاجَ الصِنَّبِر
كَالجَوابي لا تَني مُترَعَةً لِقِرى الأَضيافِ أَو لِلمُحتَضِر
ثُمَّ لا يَخزُنُ فينا لَحمُها إِنَّما يَخزُنُ لَحمُ المُدَّخِر

إن كلمات الأبيات السابقة سلسة سهلة ذات نغمة موسيقية جميلة ، وإيقاع مدو، وهذا الجمال والإيقاع الذي أحدثته القافية ممثلة بحرف الروي (الراء) الساكنة جعلت الأبيات الشعرية أشبه بالنشيد الحربي الذي تصدح به موسيقى حماسية.

وهذا بشر بن أبي خازم يصف الشتاء في معرض رثائه لأخيه سمير فيقول:(١)

كُنتَ غَيثاً لَهُنَّ في السَنَةِ الشَه باءِ ذاتِ الغُبارِ وَالإِمحالِ
المُهينُ الكومَ الجِلادَ إِذا ما هَبَّتِ الريحُ كُلَّ يَومِ شَمالِ

فحرف الروي " اللام" الذي اختاره الشاعر ، يتلاءم وإحساسه ، فقد تضمن معاني الألم والمعاناة جراء الضعف الذي ينتابه بفقد أخيه . بالإضافة إلى دور الروي البارز في إضفاء النغم على القصيدة، فلا بد من وجود ذلك الانسجام بين المضمون الذي يتضمنه النص من كلمات وصور وحرف الروي، لما له من أثر على أذن السامع.

الموسيقى الداخلية:

من الوسائل والطرق التي استخدمها الشعراء لإثارة حركة النغم الموسيقي في أبياتهم الشعرية استخدامهم الطباق و الجناس والتصريع والتكرار ، وهو ما يسمى بـ (الموسيقى الداخلية) .

يُعَدُّ الطِّباق من الوسائل الفنية الخصبة التي يعتمد عليها من أجل إقامة علاقات جيدة بين مفردات اللغة، أو التعريف بالعديد من المعاني والألفاظ، فكما يقال (بضدها تعرَف الأشياء) فيعكس صورة جميلة ومتألقة،(٢) ويمنح الأبيات جرسا موسيقيا داخليا جميلا، فمن الأمثلة على الموسيقى الداخلية التي تنتج عن الطباق ، قول امرئ القيس : (٣)

كَأَنَّ التُجارَ أُصعِدوا بِسَبيئَةٍ مِنَ الخِصّ حَتّى أَنزَلوها عَلى يَسَر

---

(١) ديوانه،ص١٨٧

(٢) الشعر في قرطبة، محمد سعيد محمد، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ٢٠٠٣ ، ص: ٥٥٠

(٣) ديوان امرىء القيس ص: ١٣٧ والسبيئة : الخمر .

بماءِ سَحَابٍ زَلَّ عَنْ ظَهْرِ صَخْرَةٍ إلى بَطْنِ أخرى طيّب مَاؤها خَصِرْ

فالطباق " ظهر صخرة ، بطن أخرى منح البيت نغماً موسيقياً جميلاً ، كما أسهم في إبراز المعنى الذي سعى إليه الشاعر وهو أن بيان مياه الأمطار والسيول تزل عن ظهر الصخور لملاستها وصلابتها ؛ مما يمنع امتصاصها لمياه الأمطار ، وينحدر عن هذه الصخور إلى صخور أخرى ، فيخترقها ويدخل أعماقها ، ليتحول بعد ذلك إلى مياه جوفية عذبة المذاق باردة تترك أثرا طيبا في الخمر وقوله " أصعدوا" و"أنزلوا".

ومن أمثلة الطباق قول المثقِّب العبدي في وصف الضيف الذي أتاه في إحدى ليالي الشتاء الباردة فأقراه وأكرمه ، يقول: (١)

فلَمّا اِستَبانَ أَنَّها أنِسِيَّةٌ وَصَدَّقَ ظَنّاً بَعدَ ما كان كَذَّبا

رَفَعتُ لَهُ بِالكَفِّ ناراً تَشُبُّها شآمِيَّةٌ نَكباءُ أَو عاصِفٌ صَبا

فقد طابق بين: (صدق ، كذب) الأمر الذي منح البيت جرسا موسيقيا جميلا ،وأضفى عليه نغما رائعا، بالإضافة إلى أنه ساهم في إبراز المعنى الذي أراده الشاعر وهو بيان الحالة النفسية للضيف الذي يسير في الصحراء الباردة في فصل الشتاء .

ومن الطباق قول طرفة :(٢)

نَحنُ في المَشتاةِ نَدعو الجَفَلى لا تَرى الآدِبَ فينا يَنتَقِر

فقد طّابق الشاعر بين الجفلى والتي تعني الدعوة العامة وبين ينتقر التي تعني الدعوة الخاصة، ولا شك أن هذه المطابقة أضفت على الأبيات جرسا موسيقيا جميلا، فضلا عن توضيح المعنى وتقويته في ذهن المتلقي ، فالشاعر يريد التأكيد على كرم قومه وخاصة في فصل الشتاء حين يعم القحط والجدب وينتشر الجوع بين الناس، وقد أسهم الطباق في توضيح هذا المعنى.

كما استخدم الشعراء الجاهليون في حديثهم عن فصل الشتاء الجناس مما منح شعرهم موسيقى داخلية انبعثت من تآلف الألفاظ وتقاربها ، ومن الأمثلة على ذلك قول الحطيئة:(٣)

إذا نَزَلَ الشِتاءُ بِدارِ قَومٍ تَجَنَّبَ جارَ بَيتِهِمُ الشِتاءُ

---

(١) . ديوانه،ص١١٧.١١٩

(٢) ديوانه،ص٧٤

(٣) . ديوانه،ص٨٨

فقد جانس الحطيئة في هذا البيت بين الشتاء بمعنى أحد فصول السنة ، وبين الشتاء بمعنى الجوع، ليضفي على أبياته جرسا موسيقيا جميلا .

ويستخدم أوس بن حجر الجناس الناقص ليضفي على أبياته ايقاعا موسيقيا داخليا جميلا ، يقول : [١]

مَطاعينُ في الهَيجا مَطاعيمُ لِلقِرى إذا اِصفَرَّ آفاقُ السَماءِ مِنَ القَرسِ

فقد جانس الشاعر في البيتين السابقين جناسا ناقصا بين :" مطاعين ، مطاعيم" ، وهذا الجناس منح الأبيات جرسا موسيقيا جميلا.

ويضفي الترصيع أو التوازي حاله حال الفنون البديعية الأخرى جرسا موسيقيا داخليا ، ونغما جميلا، ويعرف التوازي بأنه: عبارة عن عنصر بنائي في الشعر يقوم على تكرار أجزاء متساوية".[٢]، ومن الأمثلة على ذلك قول الأسود بن يعفر [٣] :

مجالس أيْسار ، وملعب سامرٍ وموقد نارٍ عهدها غير مزمن

جاء الشاعر في البيت السابق بثلاثة أقسام متساوية ، هي(مجالس أيْسار ، وملعب سامرٍ وموقد نارٍ) وقد اتّفقت مقاطع كلّ قسم منها في الحرف الأخير مما منح الأبيات إيقاعاً عالياً ، وجرْساً موسيقيّاً جميلا .

ويعد التصريع من وسائل الإيقاع الداخلي يأتي به الشاعر ليزيد من إيقاع الموسيقى، ويعرف بأنه:" تصيير آخر المصراع الأول من البيت الأول من القصيدة مثل قافيتها "[٤] . فقد أدرك الشعراء الجاهليون ما لحسن استهلال القصائد من أهمية في إثراء الحركة الموسيقية الداخلية ، ودوره في جذب انتباه السامع ، ومن الأمثلة على التصريع، قول امرئ القيس في وصف أحد عناصر الطبيعة في فصل الشتاء ، وهو البرق : [٥]

أَعِنّي عَلى بَرقٍ أَراهُ وَميضِ يُضيءُ حَبِيّاً في شَماريخَ بيضِ

---

(١) . ديوانه ص٥٢ والقرى : الضيافة والكرم ، القرس : الشيء البارد والمتجمد .

(٢) ظاهرة التوازي في قصيدة الخنساء: موسى ربابعة، ، مجلة دراسات العلوم الإنسانية ، عمان ، الجامعة الأردنية ، المجلد ٢٢، العدد٥،.١٩٩٥، ص ٢٠٣٠

(٣) – ديوانه : ص٦٣ .

(٤) نقد الشعر ، قدامة بن جعفر، ط٣ ، تحقيق: كامل مصطفى، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ص٥١ .

(٥) ديوان امرئ القيس ، ص ٧٢ .

وقول عبيد بن الأبرص في وصف البرق: [١]

أَرِقتُ لِضَوءِ بَرقٍ في نَشاصِ تَلَألَأَ في مُمَلَّأَةٍ غِصاصِ

وقول المهلمهل في وصف أثر فصل الشتاء على تغير معالم الديار : [٢]

هَل عَرَفتَ الغَداةَ مِن أَطلالِ رَهنِ ريحٍ وَديمَةٍ مِهطالِ

فكما يبدو من الأمثلة السابقة أن التزام الشعراء التصريع في مطالع قصائدهم يترك أثرا موسيقيا واضحا ، ويضفي نغما موسيقيا جميلا ، حيث يمنح الأبيات إيقاعا داخليا يجذب انتباه السامع أو المتلقي .

وقد يأتي التصريع في غير الابتداء" وذلك إذا خرج من قصة إلى قصة أو من وصف شيء إلى وصف شيء آخر فيأتي حينئذ بالتصريع إخباراً بذلك وتنبيهاً عليه"[٣]، فمن ذلك قول امرئ القيس الذي جاء بعد المطلع بثلاثة أبيات: [٤]

دِيارٌ لِسَلمى عافِياتٌ بِذي خال أَلَحَّ عَلَيها كُلُّ أَسحَمَ هَطّالِ

وقول الأعشى الذي جاء بعد المطلع بتسعة أبيات: [٥]

تَرَي أَنَّ قِدري لا تَزالُ كَأَنَّها لِذي الفَروَةِ المَقرورِ أُمٌّ يَزورُها

مُبَرَّزَةٌ لا يُجعَلُ السَترُ دونَها إِذا أُخمِدَ النيرانُ لاحَ بَشيرُها

إِذا الشَولُ راحَت ثُمَّ لَم تَفِدِ لَحمَها بِأَلبانِها ذاقَ السِنانَ عَقيرُها

يُخَلّى سَبيلُ السَيفِ إِن جالَ دونَها وَإِن أُنذِرَت لَم يَغنَ شَيئاً نَذيرُها

كَأَنَّ مُجاجَ العِرقِ في مُستَدارِها حَواشي بُرودٍ بَينَ أَيدٍ تُطيرُها

إن التصريع في أبيات الأعشى السابقة هو تصريع داخلي، وهو تصريع مشطور ، ويعني : "أن يكون التصريع في البيت مخالفاً لقافيته"[٦]،ولا شك أن هذا التصريع ترك أثرا موسيقيا واضحا ، ونغما موسيقيا جميلا ، ومنح الأبيات إيقاعا داخليا ساعد على جذب انتباه السامع.

---

(١) . ديوانه،ص٧٦

(٢) . ديوانه،ص٦٩ والغداة : ما بين الفجر وطلوع الشمس.

(٣) . العمدة،ج١،ص١٧٤

(٤) ت ديوانه ،ص٢٧ وأسحم : أسحمت السماء صبت مطرها .

(٥) . ديوانه،ص٢٧١ والشول : البقية من اللبن في الضرع ، مجاج : الريق .

(٦) المثل السائر /١ :٣٤١.

ومن العناصر التي تكسب الشعر أنغاما موسيقية ظاهرة التدوير، وهو ما أكدته نازك الملائكة بقولها:" إنه يسبغ على البيت غنائية وليونة لأنه يمده ويطيل نغماته"، والتدوير شائع في الأبيات التي صور فيها الشعراء فصل الشتاء، ومنه قول الأعشى: (١)

وَإِذا ما الدُخانُ شَبَّهَهُ الآ نُفُ يَوماً بِشَتوَةٍ أَهضاما
فَلَقَد تُصلَقُ القِداحُ عَلى النَي بِ إِذا كانَ يَسرُهُنَّ غَراما
بِمَساميحَ في الشِتاءِ يَخالو نَ عَلى كُلِّ فالِجٍ إِطعاما

وقول النابغة الجعدي: (٢)

كِراماً لَدى الضَيفِ عندَ الشِتا ءِ والجَدبِ في الزَمَنِ الأَجدَبِ

وقول أبي ذؤيب:(٣)

مَطاعيمُ لِلضَّيفِ حينَ الشِتا ءِ شُمُّ الأُنُوف كَثِيرُو الفَجَرْ

ويشكل التكرار إحدى الوسائل الفنية التي تضفي نغما موسيقا جميلا على الشعر ، وتسهم في تحقيق إيقاع داخلي يزيد من النغمة الموسيقية في الأبيات فقد يكرر الشاعر حرفا أو كلمة أو عبارة أو مقطعا بكامله ، ينتج عن ذلك إيقاع موسيقي رنان يضفي جمالا ورونقا على الأبيات.

وتجدر الإشارة إلى أن التكرار لا يسهم فقط في إضفاء نغمة موسيقية على الأبيات من خلال تكرار لفظة معينة أو حرف معين، وإنما بما تتركه هذه اللفظة أو هذا الحرف من أثر انفعالي في نفس المتلقي، وبذلك فإنه يعكس جانباً من الموقف النفسي والانفعالي،" لأن التكرار إحدى الأدوات الجمالية التي تساعد الشاعر على تشكيل موقفه وتصويره، ولابد أن يعتمد التكرار بعد الكلمة المتكررة حتى لا يصبح التكرار مجرد حشو، فالشاعر إذا كرر عكس أهمية ما يكرره

---

(١) ، ديوانه،ص١٠٣

(٢) . ديوانه ٣٣ والأجدب : صار به جدب أي فقر وقلة .

(٣) . شرح اشعار الهذليين، ص ١١٨ وشم الأنوف : قوم أباة .

مع الاهتمام بما يعده حتى تتجدد العلاقات وتثرى الدلالات وينمو البناء الشعري"[١]. فمن التكرار قول بشر:[٢]

عفاها كلُ هطّالٍ هزيمٍ يُشَبَّهُ صوتُهُ صوتَ اليَراعِ

فتكرار الألفاظ (صوته –صوت)، وحرفي الصاد والهاء، أدى ذلك إلى إشاعة النغم في البيت وتحقيق إيقاع موسيقي جميل

ومن نماذج تكرار الألفاظ عند الشعراء الجاهليين في حاتم الطائي:[٣]

أَوقِد فَإِنَّ اللَيلَ لَيلٌ قَرٌّ وَالريحَ يا موقِدُ ريحٌ صِرٌّ

عَسى يَرى نارَكَ مَن يَمُرُّ إِن جَلَبَت ضَيفاً فَأَنتَ حُرٌّ

فالشاعر يحرص في أبياته السابقة على تحقيق موسيقا داخلية من خلال تكرار بعض الألفاظ والتراكيب : فقد كرر " الليل " مرتين، وكرر :" الريح " مرتين أيضا ، وكرر"أوقد وموقد"، كما كرر الشاعر حرف الراء في الأبيات ثماني مرات ، مما أسهم في إضفاء نغمة موسيقية جميلة ، وتحقيق إيقاع داخلي للأبيات، بالإضافة إلى ما حمله هذا التكرار من توضيح المعنى وتأكيده .

ويسهم التكرار في قول دريد بن الصمة تحقيق جرس موسيقي جميل ، يقول: [٤]

يا خالِداً خالِدَ الأَيسارِ وَالنادي وَخالِدَ الريحِ إِذ هَبَّت بِصُرّادِ

يبدو في الأبيات حرص الشاعر على تحقيق موسيقا داخلية من خلال تكرار (خالد) ثلاث مرات كما أن هذا التكرار يرفع من مكانة المرثي ، لأن فائدة التكرار هي "إما للتوكيد أو لزيادة التنبيه أو للتهويل أو للتعظيم أو للتلذذ"[٥] وقد دلّ هذا التكرار على صفة الكرم عند الجدب والقحط التي أراد الشاعر أن تكون ملازمة للمرثي.

---

(١) الصورة الشعرية عند أبي القاسم الشابي ، مدحت سعيد الجيار ، الدار العربية للكتاب والمؤسسة الوطنية للكتاب، ليبيا، ١٩٨٤م ، ص٤٧

(٢) . ديوان بشر بن أبي خازم: ص١٠٩. الهزيم: السحاب الذي لرعده صوت.

(٣) ديوانه،ص٦١ والقر : البرد .

(٤) . ديوانه،ص٨٢

(٥) التكرار في الشعر الجاهلي دراسة اسلوبية : د. موسى ربايعة ، مجلة مؤته للبحوث والدراسات ، الاردن، مجلد ٥ ، عدد ١ ، ١٩٩٠ ، ١٥٧ .

ويكرر الربيع كلمة الشتاء مرتين في بيت واحد الأمر الذي حقق للبيت إيقاعا موسيقيا جميلا ، كما ساعد في توضيح المعنى وتأكيده، وهو بيان أثر فصل الشتاء على الشيوخ وكبار السن ، يقول: [1]

إذا كانَ الشِّتاءُ فأَدفِئوني فَإِنَّ الشَّيخَ يَهدِمُهُ الشِّتاءُ

ويصور امرؤ القيس منظرا طبيعيا في فصل الشتاء، وهو السيل يعتمد فيه على التكرار، يقول:[2]

كأَنَّ ثَبِيراً في عَرَانِينِ وَبْلِهِ كَبِيرُ أُنَاسٍ في بِجادٍ مُزَمَّلِ
كَأَنَّ ذُرَى رَأْسِ المُجَيمِرِ غُدْوَةً مِنَ السَّيلِ والغُثَّاءِ فَلْكَةُ مِغْزَلِ
كَأَنَّ مَكَاكِيَّ الجِواءِ غُدَيَّةً صُبِحْنَ سُلافاً مِن رَحيقٍ مُفَلْفَلِ
كَأَنَّ السِّباعَ فيهِ غَرْقَى عَشِيَّةً بِأَرْجَائِهِ القُصْوَى أَنَابِيْشُ عُنْصُلِ

يبدو لنا في الأبيات السابقة مدى حرص الشاعر على أن يمنح شعره نغما موسيقيا داخليا من خلال تكرار (كأن) في بداية كل بيت من أبياته بكلمة في معرض وصفه لصورة "السيل"، ومؤكدا أمرين: الأول ظهر في البيتين الأولين، وهو رؤوس الجبال وما فعل بها المطر، حين ينهمر عليها غزيرا فيخددها، وينزل ما عليها، وفي هذا تأكيد لقوة هذا السيل، فكأنه كبير قوم اكتسى ثوبا مخططا مميزا، وكأنه قوة غاشمة لا تترك شيئا في طريقها إلا وتحمله.

أما الأمر الثاني، فتأكيد الموت والهلاك، الذي خلفته تلك القوة التي أكدها في المرة الأولى، فكأنه طال الطيور فأسكرها، حتى بدت ثملة مترنحة، كأنها سقيت خمرا بدلا من الماء، كما أنه أغرق أقوى الوحوش، وهي السباع، إن التشبيه الذي عمد إليه الشاعر في (كأن)، وتكراره مرات كثيرة، حول المعنى إلى التأكيد، وكأنه يقول: (إن) كل ما سبق من أفعال، نتيجة قوة عظيمة جاءت مع هذا السيل.

---

(١) شعره،ص٤٣

(٢) . ديوانه،٢٤.٢٦ والثبير : جبل كبير ، بجاد ، كساء مخطط ، أنابيش : أنابيش العشب ما اقتلع وظهر منه متفرقا على وجه الأرض ، العنصل : نبات معمر من الفصيلة الزنبقية .

وقد يقع التكرار في ترديد بعض الحروف في البيت نفسه مما يضفي موسيقى داخلية على البيت الشعري، كما في قول عمر بن قميئة في بيان أثر رياح الشتاء إلى جانب رياح الصيف السافية في تغييب معالم الديار: (١)

أَمِن طَلَلٍ قَفرٍ وَمِن مَنزِلٍ عافِ عَفَتهُ رِياحٌ مِن مَشاتٍ وَأَصيافِ

فقد كرر الشاعر حرف الفاء أربع مرات ، وحرف العين مرتين وقد أسهم هذا التكرار في إضفاء نغمة موسيقية جميلة على البيت ، وتحقيق جرس موسيقي رنان بالإضافة إلى إسهامه في إبراز المعنى وتأكيده، فالشاعر أراد أن يعبر عن العفاء، فاختار حرفين من حروف الكلمة وهما العين والفاء وكررهما .

ومن تكرار الحروف ما نجده في قول سحيم : (٢)

مَساعيرُ ما حَربٍ وأَيسارُ شَتوَةٍ إِذا الرِيحُ أَلوَت بالكَنيفِ المُسَتَّرِ

فقد كرر الشاعر في البيت حرف السين ثلاث مرات وحرف الراء ثلاث مرات، وكرر حرف الحاء مرتين ، وهذا أضفى على البيت نغمة موسيقية خاصة وحقق إيقاعا داخليا جميلا.

. اللغة والأسلوب :

تعد اللغة الأداة التي يستطيع الشاعر من خلالها التعبير عما يجول في خاطره ، وهي وسيلته كذلك في تصوير انفعالاته و عواطفه ، بوضعها في قالب شعري يخدم فكرته ، لذلك تعد اللغة وسيلة الأديب للتعبير ، وهي المادة الخام التي تجعل منه كائنا ذا ملامح وسمات ، وذا نبض و حركة وحياة يحمل صورة ، كما يحمل الحجر صورة نابضة لتمثال بارع ، فكذلك اللغة في يد الشاعر أو الكاتب قادرة على أن تحمل صورة نابضة حية (٣).

فالشعر الجيد هو الذي يكشف لنا عن اهتمام صاحبه بألفاظه ، وحسن استخدام هذه الألفاظ في مواقعها الصحيحة ، التي تتناسب فيما بينها وبين المعنى المراد التحدث عنه ، بحيث يصل إلى أذهان القراء والسامعين ، ومن ثم يؤثر على نفوسهم .

---

(١) ، ديوانه،ص٧٠

(٢) . ديولنه،ص٥٢ والكنيف : الساتر .

(٣) قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، محمد زكي العشماوي، بيروت ، دار النهض العربية، ١٩٨٤، ص ٤١ .

وحين نتتبع شعر الشتاء نجد أن الشعراء لم يتركوا معنى أو مسمّى فيما يتعلق به إلا وضعوا له الألفاظ المناسبة ، التي شملت كل شيء له علاقة بالشتاء ، فقد حفظ لنا الشعر سجلًا زاخرًا بالألفاظ والمصطلحات والمسميات الخاصة به ، وبأحواله، وآثاره، ومظاهره، وعلاماته، ودوره، فلم يترك الشعراء شيئًا من مظاهره إلا وفصلوا فيه تفصيلًا شاملًا موسعًا، بحيث لا يجد الباحث صعوبة في الحصول على معجم موسع للألفاظ الخاصة به في ذلك العصر.

فمن ألفاظ بيئته الطبيعية التي جاءت في الشعر نجد ألفاظا تدل على الرياح ، وأنواعها، وأحوالها ، وشدتها، والسحب وأشكالها وألوانها ، والبرد والثلج والجليد، والمطر وأنواعه وألوانه ، ومواقع نزوله وغزراته ، وآثاره ، وكذلك ما ينتج عنه من سيول ، وأنواع هذه السيول ومجاريها. كذلك حفظ لنا شعر الشتاء ألفاظا خاصة ببعض الظواهر الاجتماعية وعادات العرب فيه، كاللعب بالميسر والقداح ، والكرم ومجالاته وأركانه ، كالضيف ، والكريم ، والقرى ، وآدابه ، ومعاملاته ، وأخلاقه ، وكذلك أدواته ، كالأثافي ، والنار، والقدر ، والجفان ، والكلب، وكذلك الأندية ، والمجالس ، والمحافل ، والبيوت، فهذه كلها مصطلحات ومسميات ترددت في شعر الشتاء كثيرًا .

وكان للحيوان نصيب وافر من شعر الشتاء ، فقد حفظ لنا شعر الشتاء ألفاظا تتصل بالحيوانات كالثور الوحشي وصفاته، وأحواله ، وكذلك الإبل إذ لم يترك العرب شيئًا مما يتصل بها ، فوضعوا الأسماء لأعمارها ، ورضاعها ، وحلبها ، وصرها ، ونعوتها في أطوالها ، وألوانها .

وفي شعر الشتاء ألفاظ عديدة حدث لها انزياح في الدلالة داخل السياق ، منها على سبيل المثال لا الحصر : الشتاء ، النار، المقرور، الندى ، الغيث، الإبل وغيرها ،وذلك بتأثير الصورة فيها عند توظيفها في التعبير ، فتكتسب دلالات جديدة يمكن متابعتها والوصول إليها من خلال بعض النماذج الشعرية للصورة .

ومن هذه الألفاظ (المقرور) التي اشتقت من القر وهو البرد في لغة العرب ، والمقرور هو اليوم البارد ، أو الرجل إذا أصابه البرد، يقول الأعشى :(١)

إِذا اِحمَرَّ آفاقُ السَماءِ وَأَعصَفَت رِياحُ الشِتاءِ وَاِستَهَلَّت شُهورُها

تَرَي أَنَّ قَدري لا تَزالُ كَأَنَّها لِذي الفَروَةِ المَقرورِ أُمٌّ يَزورُها

(١) . ديوانه،ص ٢٧١

ويقول حاتم الطائي:[١]

أَوقِد فَإِنَّ اللَيلَ لَيلٌ قَرُّ وَالريحَ يا موقِدُ ريحٌ صِرُّ

عَسى يَرى نارَكَ مَن يَمُرُّ إِن جَلَبَت ضَيفاً فَأَنتَ حُرُّ

فالمقرور والقُر لم تخرجا في شعر الأعشى وحاتم عن معناهما اللغوي العام ، ذي الدلالة المناخية ، وهي ترد كثيرًا في شعر الكرم حتى اكتسبت دلالة ظرفية زمنية ذات أبعاد اجتماعية ، حوّلت هذا الظرف إلى محرك اجتماعي لمواجهة ما يحصل فيه من حاجةٍ وجوع ، فأعطاها ذلك بُعدًا دلاليًا أصبحت فيه جزءًا من مكونات التعبير عن الكرم ، وربما أضاف إليها تحوّلًا جديدًا في دلالتها ، يمكن أن يكون إنزياحًا في الدلالة ، كما جاء في قول الأعشى يمدح المحلّق :[٢]

لَعَمري لَقَد لاحَت عُيونٌ كَثيرَةٌ إِلى ضَوءِ نارٍ في يَفاعٍ تُحَرَّقُ

تُشَبُّ لِمَقرورَينِ يَصطَلِيانِها وَباتَ عَلى النارِ النَدى وَالمُحَلَّقُ

ولتوضيح ذلك لا بد من الوقوف على شرح بعضهم للكلمة ، ثم تحليل البيت للوصول الى دلالتها داخل السياق ، لاكتشاف دلالتها الجديدة ، وما أضافته إلى معناها الحقيقي .

لقد فسّر بعض شُرّاح الأعشى كلمة (مقرورين) بالمعنى اللغوي العام للكلمة ، بقوله : (المقرور من أصابه البرد) ، وشرح المعنى كالتالي : (يستدفئان من البرد ويتنادمان) [٣]، وهذا شرح للمعنى الظاهر للفظ لا يكشف عما في البيت من أبعاد دلالية عميقة ، ولا يوضح ما أراده الشاعر من معنى ، ولتوضيح ذلك لا بد من الإشارة إلى أن الشاعر لا يقصد بالمقرورين من أصابهما البرد ، ولو كان قصده هذه الدلالة القريبة لربما أفسد المعنى ، وحطّ من مكانة النار ومكانة صاحبيها اللذين عندها ، ولكن السياق يوحي بمعنى أعمق من ذلك بكثير، ويتضح ذلك أكثر عند معرفة من بات على النار ، وعلاقته بالنار ، حيث ذكره الشاعر بآخر البيت بقوله : (وبات على النار الندى والمحَلّق) ، وقرن بينهما للدلالة على شرف الصحبة الذي لحق أحدهما من الآخر ، إذ ليس من الممكن أن نصف الندى بالمقرور ، ثم

---

(١) ديوانه،ص٦١

(٢) . ديوان الأعشى الكبير :٢٢٣ .

(٣) ديوان الأعشى الكبير :٢٢٣ .

نفسره بالذي يصيبه البرد ، ولكن الندى من الأشياء التي تُشتهر بالشتاء ، ومثله الكريم الذي لا يظهر ولا يعرف إلا وقت القُر ، فعندما يوصفان بالمقرورين لا يقصد بهذه الصفة البرد ، بل يُقصد بها صاحبها القر لشهرتهما فيه لأنهما من أعلامه ، لأن الندى يكثر في هذا الوقت فعرّف به ، ومثله الكريم الذي يظهر كرمه مثل هذا الوقت ، فهذا ما يريده الشاعر كما يدل عليه السياق ، وهو ما يوحي به التعبير ، لذا أطلق عليهما المقرورين لشهرتهما بالشتاء وليس غير ذلك ، فما دام عند هذه النار – وهي نار الكرم – فهما يصطليان عندها المجد ، لأن نار الكرم توحي بالمجد ، وهذا الذي يوحي به أيضا السياق ، لذا استطرد الشاعر في البيت التالي في التعبير عن العلاقة بين الندى والمحلق ، ولم يجعلها محدودة بمدة مقدرة عند النار فقط ، بل جعلها علاقة دائمة كعلاقة الأخوين الحليفين اللذين رضعا من ثدي واحد .

وما قيل عن المقرور في الانتقال من الإطار اللغوي العام إلى الإطار اللغوي الخاص يقال عن النار ، فدلالة النار ماديًا هي كل لهب ناتج عن احتراق ، ولها أصل لغوي ، فهي اسم مشتق من مادة (ن و ر)[١] الذي يدل على كل ما له علاقة بالإضاءة ، ثم استقرت دلالتها حتى صار هذا اللفظ (نار) اسمًا تسمى به وعلمًا تعرف به ، وأصبح لها دور حقيقيٌّ تقوم به عند الجميع ، وورودها في هذه الدلالة كثير في الشعر الجاهلي ، فأحيانًا كثيرة تأتي بمعناها المجرد ، وأحيانا ذات صلة بالكرم ، وجاءت بلفظ المفرد والجمع في الشعر الجاهلي كقول لُبيد ، يصف شدة برد أحد أيام الشتاء :[٢]

يُنيخُ المَخاضَ البُركَ وَالشَمسُ حَيَّةٌ إِذا ذُكِّيَت نيرانُها لَم تَلَهَّبِ

فالنيران في قول لبيد لم تخرج عن الدلالة اللغوية العامة ولم تكتسب معنى جديدا يتجاوز المعنى العام ، لكن عند الوقوف على قول الخنساء:[٣]

فَنِعمَ الفَتى تَعشو إِلى ضَوءِ نارِهِ كُوَيزُ بنُ صَخرٍ لَيلَةَ الريحِ وَالظُلَم

---

(١) لسان العرب نور

(٢) . ديوانه،ص١٦

(٣) . ديوانها،ص٩٠

نجد أن النار اكتسبت في هذا السياق دلالة إضافية ، أعطتها بُعدًا جديدًا هو هداية الضيف ، وربما جردوا منها مناديًا يدعو الضيف أصبحت معه النار في درجةٍ تساوي الكريم وتفعل فعله كما جاء في قول المثقّب العبدي يصف ساريًا بليل : (١)

رَفَعتُ لَهُ بِالكَفِّ ناراً تَشُبُّها شآمِيَّةٌ نَكباءُ أَو عاصِفٌ صَبا

وَقُلتُ اِرفَعاها بِالصَعيدِ كَفى بِها مُنادٍ لِسارٍ لَيلَةً إِن تَأَوَّبا

و كذلك لفظة (الشتاء) فهي من الألفاظ التي جرى لها توسع في دلالتها ، و اكتسبت من خلال كثرة ورودها في سياق الكرم دلالة إضافية ، فهي وان كان معناها العام يدل على فصل من فصول السنة ، فإنها أصبحت و كأنها فصل من فصول الكرم ، حيث قلَ أن يذكر الشتاء و أحواله إلا و معه الكرم ، وقلَ أن يذكر الكرم إلا و معه الشتاء ، و شواهده كثيرة جدًا ، و منه قول الحطيئة:(٢)

إِذا نَزَلَ الشِتاءُ بِدارِ قَومٍ تَجَنَّبَ دارَ بَيتِهِمُ الشِتاءُ

و قول طرفة مفتخراً :(٣)

نَحنُ في المَشتاةِ نَدعو الجَفَلى لا تَرى الآدِبَ فينا يَنتَقِر

وقول عروة:(٤)

أَقَبُّ وَمِخماصُ الشِتاءِ مُرَزَّأٌ إِذا اِغبَرَّ أَولادُ الأَذِلَّةِ أَسفَرا

وفي أساليب الشعراء في شعر الشتاء استخدام صيغ المبالغة، كما في قول الخنساء:(٥)

وَإِنَّ صَخراً لَوالِينا وَسَيِّدُنا وَإِنَّ صَخراً إِذا نَشتو لَنَحّارُ

وَإِنَّ صَخراً لَمِقدامٌ إِذا رَكِبوا وَإِنَّ صَخراً إِذا جاعوا لَعَقّارُ

وقول أوس بن حجر :(٦)

مَطاعينُ في الهَيجا مَطاعيمُ لِلقِرى إِذا اِصفَرَّ آفاقُ السَماءِ مِنَ القَرسِ

---

(١) . ديوانه،ص٥٢

(٢) . ديوانه،ص٨٨

(٣) ديوانه،ص٣٧

(٤) . ديوانه،ص٤١

(٥) . ديوانها،ص٥١

(٦) . ديوانه،ص٥٢

وقول امرئ القيس :[١]

دِيارٌ لِسَلمى عافِياتٌ بِذي خالٍ أَلَحَّ عَلَيها كُلُّ أَسحَمَ هَطّالِ

وقول أبو ذؤيب:[٢]

مَطاعيمُ لِلضَّيفِ حينَ الشِتا ءِ قُبُّ البُطونِ كَثيرو الفَجَر

ويشكل الإستفهام إحدى الظواهر الأسلوبية الأكثر شيوعا في الشعر الجاهلي، "ويمتلك الاستفهام قدرة طيبة على إدخال المتلقي في صميم الصورة (الشعرية)"[٣]، كما أن للاستفهام قدرة على إثارة ما يعتمل في النفس من تساؤلات وإيحاءات، وقد امتلك الشعراء قدرة وحذاقة في عرض الأسئلة، فشاع هذا الأسلوب بين الشعراء، في افتتاح قصائدهم بصيغ السؤال.

ونجد هذه الظاهرة تقترن بوصف الشتاء في مواضع كثيرة، فكثيرا ما كان الشاعر الجاهلي يبدأ بذكر البرق، فيتوجه بالسؤال إلى من يحب، فينسب البرق وما جاء معه من المطر والخير إليه، وهذا ما يظهر في الصورة التي يرسمها أبو ذؤيب الهذلي، سائلا صاحبته:[٤]

أَمِنكَ البَرقُ أَرقُبُهُ فَهاجا فَبِتُّ إِخالُهُ دُهماً خَلاجا

تَكَلَّلَ في الغِمادِ فَأَرضُ لَيلى ثَلاثاً لا أُبينُ لَهُ اِنفِراجا

فَما أَضحى هَمِيُّ الماءِ حَتّى كَأَنَّ عَلى نَواحي الأَرضِ ساجا

فالشاعر يبدأ بالسؤال – وأداته الهمزة – لصاحبته التي كانت سببا في مجيء هذا البرق، وقد يكون خيالها الذي ألم بالشاعر هو الذي جعله في حيرة من أمر هذا البرق، أو من ناحية قدومه، بدليل أنه يخاله نوقا دهما تحن إلى صغارها، في إشارة إلى صوت الرعد الذي يرافق هذه البرق (فبت إخاله دهما خلاجا)، وبعد أن افتتح أبياته بهذا السؤال، يستطرد الشاعر في وصف هذا المطر المقيم، والذي يسكب الماء بغزارة، وكأن الشاعر يحاول جلاء هذا الاستفهام، وتأكيد الحالة التي انطلق منها، وهي قدوم البرق الذي ينبئ بمطر غزير.

---

(١) . ديوانه،ص٢٧

(٢) . شرح أشعار الهذليين

(٣) . الصورة معيارا نقديا،ص٣٩٨

(٤) . ديوان الهذليين،ج١، ص١٦٤

ومن قبيل هذا الاستفهام، الصورة الشعرية التي يسوقها لبيد بن ربيعة العامري، في وصفه للبرق والمطر، مستخدما أداة الاستفهام (هل)، والتي يقرنها بالنداء، كما في قوله: [1]

يا هَل تَرى البَرقُ بِتُّ أَرقُبُهُ يُزجي حَبِيّاً إِذا خَبا ثَقَبا

فالشاعر يبدأ بسؤال نفسي، في صورة يحاول فيها استحضار من يتوجه إليه بالسؤال، ويحاول جذب انتباهه ولفت نظره إلى هذا البرق، من خلال استخدامه للنداء، ولكننا نلمس في قوله (بت أرقبه)، توجها من الشاعر بالسؤال إلى نفسه، بدليل أنه يذكر انفراده وتوحده في مراقبة هذا البرق من دون صحبة، حيث يقول:[2]

قَعَدتُ وَحدي لَهُ وَقالَ أَبو لَيلى مَتى يَغتَمِن فَقَد دَأَبا

وهكذا فالشاعر يدخلنا في صميم هذه الصورة، ويجعلنا نلتمس حالته، ونعيش أجواءها.

ومن الظواهر الأسلوبية البارزة في الشعر الجاهلي ظاهرة التكرار ، وقد توقفنا عند التكرار في الكلمة والحرف في دراستنا للموسيقى الداخلية ، وسنتناول هنا أحد أنواع التكرار وهو التكرار النمطي أو المشهدي للوحات الشعرية الشتائية ، سواء تلك التي تصور عناصر الطبيعة في فصل الشتاء أم تلك التي تصور ظواهره الاجتماعية ، ففي هذه الصور لا يقتصر التكرار على معنى كلمة واحدة، في بيت شعري واحد، بل إن التكرار يشمل المعنى العام للمشهد كاملا ، إذ تتكرر الصورة بملامحها الأساسية لدى معظم الشعراء، فمثلا عندما نقارن بين مشهدين من مشاهد الظواهر الطبيعية لفصل الشتاء ، وهو السيل تبدو لنا العناصر المشتركة التي كررها الشاعران، يقول امرؤ القيس:[3]

أَصَاحِ تَرَى بَرْقاً أُرِيكَ وَمِيْضَهُ كَلَمْعِ اليَدَيْنِ في حَبِيٍّ مُكَلَّلِ
يُضِيءُ سَنَاهُ، أَوْ مَصَابيحُ رَاهِبٍ أَهَانَ السَّلِيطَ بِالذُّبَالِ المُفَتَّلِ
قَعَدْتُ وأَصْحَابِي لَهُ بَيْنَ ضَارِجٍ وبَيْنَ العُذَيْبِ، بُعْدَ ما مُتَأَمَّل
علا قَطَنٍ بِالشَّيْمِ أَيْمَنُ صَوْبِهِ وأَيْسَرُهُ على السِّتَارِ فَيَذْبُلِ

---

(١) . ديوانه،ص٢٩ ويزجي : يلقي ويدفع .

(٢) . ديوانه،ص٢٩ ودأبا : لازم الشيء واعتاده دون فتور .

(٣) . ديوانه،٢٤.٢٦ والذبال : فتيلة تشعل للإضاءة ، كنهلا : شجر عظام ، موئل : ملجأ وملاذ ، تيماء : الأرض القفرة المهلكة ، ثبيرا : جبل عظيم ، أنابيش : أنابيش العشب ما اقتلع وظهر منه متفرقا على وجه الأرض .

فَأَضْحَى يَسُحُّ الماء حَوْلَ كُتَيْفَةٍ يَكُبُّ على الأَذْقَانِ دَوْحَ الكَنَهْبُلِ
وَمَرَّ على القَنَانِ مِنْ نَفَيَانِهِ فَأَنْزَلَ مِنْهُ العُصْمَ مِن كلّ مَوئِلِ
وَتَيْمَاءَ لَمْ يَتْرُكْ بِهَا جِذْعَ نَخْلَةٍ وَلاَ أُطُماً إلاّ مَشِيْداً بِجَنْدَلِ
كأَنَّ ثَبِيراً في عَرَانِينِ وَبْلِهِ كَبِيرُ أُنَاسٍ في بِجادٍ مُزَمَّلِ
كَأَنَّ ذُرَى رَأْسِ المُجَيمِرِ غُدْوَةً مِنَ السَّيلِ والغُثّاءِ فَلْكَةُ مِغْزَلِ
وَأَلْقَى بِصَحْراءِ الغَبِيْطِ بَعَاعَهُ نُزُولَ اليَمَانيْ ذي العِيَابِ المُحَمَّلِ
كَأَنَّ مَكَاكِيَّ الجِواءِ غُدَيَّةً صُبِحْنَ سُلافاً مِن رَحيقٍ مُفَلْفَلِ
كَأَنَّ السِّباعَ فيهِ غَرْقَى عَشِيَّةً بِأَرْجَائِهِ القُصْوَى أَنَابِيْشُ عُنْصُلِ

ويقول لبيد بن ربيعة:(١)

أَصاحِ تَرى بَرِيقاً هَبَّ وَهناً كَمِصباحِ الشَعيلَةِ في الذُبالِ
أَرِقتُ لَهُ وَأَنجَدَ بَعدَ هَدءٍ وَأَصحابي عَلى شُعَبِ الرِحالِ
يُضيءُ رَبابُهُ في المُزنِ حُبشاً قِياماً بِالحِرابِ وَبِالإِلالِ
كَأَنَّ مُصَفَّحاتٍ في ذُراهُ وَأَنواحاً عَلَيهِنَّ المَآلي
فَأَفرَعَ في الرُبابِ يَقودُ بُلقاً مُجَوَّفَةً تُذُبُّ عَنِ السِخالِ
وَأَصبَحَ راسِياً بِرُضامِ دَهرٍ وَسالَ بِهِ الخَمائِلُ في الرِمالِ
وَحَطَّ وُحوشَ صاحَةَ مِن ذُراها كَأَنَّ وُعولَها رُمكُ الجِمالِ
عَلى الأَعراضِ أَيمَنُ جانِبَيهِ وَأَيسَرُهُ عَلى كورَي أُثالِ
وَأَردَفَ مُزنَةَ المِلحَينِ وَبلاً سَريعاً صَوبُهُ سَرِبَ العَزالي
فَباتَ السَيلُ يَركَبُ جانِبَيهِ مِنَ البَقّارِ كَالعَمِدِ الثَقالِ
أَقولُ وَصَوبُهُ مِنّي بَعيدٌ يَحُطُّ الشَثَّ مِن قُلَلِ الجِبالِ

إن مقارنة سريعة بين هذين المشهدين لصورة الماء، تبين مدى التقاء وتداخل العناصر الأساسية لهذه الصورة، في ملامحها العامة، وكذلك في الألفاظ المستخدمة لدى الشاعرين فالتكرار النمطي هاهنا، تجلى في المعنى العام أو الصورة التي تناولها كل شاعر، فكلاهما يعرض لصورة سيل عنيف تشكل بعد مطر غزير، تعاظم حتى طال قمم الجبال فغمرها، وقضى على

(١) . ديوانه،ص٨٨،٩٣ والثقال : الثقال من الدواب وغيرها : البطيء الثقيل الذي لا ينبعث إلا كرها ، الشث : الكثير من كل شيء .

الأحياء فيها وحدر العصم من ذراها، ولا يقتصر هذا الوصف والتكرار على هذين المشهدين، إذ إن الشعر الجاهلي يزخم بمثل هذه المشاهد.

ولم يقتصر التكرار على المعنى العام للمشهد، وإنما هناك كثيرا من الألفاظ والمعاني التي تكررت في كلا المشهدين، وذلك منذ البداية في تكرار مطلع الأبيات (أصاح ترى برقا، أصاح ترى بريقا)، فكلاهما يبدأ بنداء صاحبه ليشهد معه وميض هذا البرق، وكأن هناك حاجة حقيقية وراء هذه الصحبة.

ومن قبيل التكرار في اللفظ والمعنى في هذين المشهدين، (البرق والبريق)، (مصابيح راهب، مصباح الشعيلة)، (يضيء سناه، يضيء ربابه)، (أيمن صوبه، أيمن جانبيه)، (وأيسره على الستار فيذبل، وأيسره على كوري أثال)، (من السيل، فبات السيل)، وفي هذا التكرار قرب وتقابل بين أسلوب الشاعرين، وطريقة اختيارهما للألفاظ.

ومن قبيل التكرار النمطي أو المشهدي الذي يتناول إحدى الظواهر الاجتماعية في فصل الشتاء ، وهي قرى الضيف التائه في الصحراء ، نتوقف عند قول عمرو بن الأهتم:[1]

ومُسْتنْبِحٍ بعدَ الهُدُوءِ دَعْوَتُهُ ... وقد حانَ من نَجْم الشِّتاءِ خُفُوقُ

يُعالِجُ عِرْنيناً منَ اللَّيلِ بارداً ... تَلُفُّ رِياحٌ ثَوْبَهُ وبُرُوقُ

تَأَلَّقُ في عَيْنٍ منَ المُزْنِ وادِقٍ ... لهُ هَيْدَبٌ دَانِي السَّحَابِ دَفُوقُ

أَضَفْتُ فلم أُفْحِشْ عليهِ ولم أَقُلْ ... لِأحْرِمَهُ: إنَّ المكانَ مَضِيقُ

فَقلْتُ لهُ: أَهلاً وسهلاً ومَرحباً ... فهذا صَبُوحٌ راهِنٌ وصَدِيقُ

وقُمتُ إلى البَرْكِ الهَواجِدِ فاتَّقَتْ ... مَقاحِيدُ كُومٌ كالمَجَادِلِ رُوقُ

بأَدْماءَ مِرْباعِ النِّتاجِ كأَنَّها ... إذَا عَرَضَتْ دُونَ العِشارِ فَنِيقِ

بِضَرْبةِ ساقٍ أَو بِنَجْلاَءَ ثَرَّةٍ ... لهَا مِن أَمامِ المَنْكَبَيْنِ فَتِيقُ

وقامَ إليها الجَازِرَانِ فأَوْفَدَا ... يُطِيرَانِ عَنها الجِلْدَ وَهْيَ تَفُوقُ

فَجُرَّ إلينا ضَرْعُها وسَنَامُها ... وأَزْهَرُ يَحْبُو لِلقيامِ عَتِيقُ

بَقِيرٌ جَلاَ بالسَّيفِ عنهُ غِشَاءَهُ ... أَخٌ بإخاءِ الصَّالِحِينَ رَفِيقُ

---

(١) . المفضليات،ص٤٥٣.٤٦٢ ومستنبح : اسم المفعول من استنبح واستنبح الكلب حمله على النباح ، وادق : المطر الشديد ، فنيق : الفنيق من الإبل الفحل ، النجلاء : الواسع الطويل ، الغبوق : ما يشرب في العشي .

فَباتَ لَنَا منها وللِضَّيْفِ مَوْهِنا شِوَاءٌ سَمِينٌ زَاهِقٌ وغَبوقُ
وبَاتَ لهُ دُونَ الصَّبَا وهْيَ قَرَّةٌ لِحَافٌ ومَصْقُولُ الكِسَاءِ رَقِيقُ

وقول المثقب العبدي:(١)

وَسارٍ تَعَنّاهُ المَبيتُ فَلَم يَدَع لَهُ طامِسُ الظَلَماءِ وَاللَيلِ مَذهَبا
رَأَى ضَوءَ نارٍ مِن بَعيدٍ فَخالَها لَقَد أَكذَبَتهُ النَفسُ بَل راءَ كَوكَبا
فَلَمّا اِستَبانَ أَنَّها آنِسِيَّةٌ وَصَدَّقَ ظَنّاً بَعدَ ما كان كَذَّبا
رَفَعتُ لَهُ بِالكَفِّ ناراً تَشُبُّها شآمِيَّةٌ نَكباءُ أَو عاصِفٌ صَبا
وَقُلتُ اِرفَعاها بِالصَعيدِ كَفى بِها مُنادٍ لِسارٍ لَيلَةً إِن تَأَوَّبا
فَلَمَّا أَتاني وَالسَماءُ تَبُلُّهُ فَلَقَّيتُهُ أَهلاً وَسَهلاً وَمَرحَبا
وَقُمتُ إِلى البَركِ الهَواجِدِ فَاِتَّقَت بِكَوماءَ لَم يَذهَب بِها النَّيُّ مَذهَبا
فَرَحَّبتُ أَعلى الجَنبِ مِنها بِطَعنَةٍ دَعَت مُستَكِنَّ الجَوفِ حَتّى تَصَبَّبا
تَسامى بَناتُ الغَلي في حُجُراتِها تَسامي عِتاقِ الخَيلِ وَرداً وَأَشهَبا

إن مقارنة سريعة بين هذين المشاهدين ، نتبين مدى التقاء وتداخل العناصر الأساسية لهذه الصورة في ملامحها العامة، وكذلك في الألفاظ المستخدمة لدى كلا الشاعرين فالتكرار النمطي هاهنا، تجلى في المعنى العام أو الصورة التي تناولها كل شاعر، فكلاهما يعرض لصورة ضيف تائه في الصحراء يعاني من البرد والمطر والجوع في شتاء قاس لا يرحم وصحراء قد أظلم ليلها، فلا هادٍ ولا مرشد له حتى قادته قدماه إلى بيت الشاعر الذي أكرمه وأطعمه .ولا يقتصر هذا الوصف والتكرار على المعنى العام للمشهد، وإنما هناك ألفاظا ومعان تكررت في كلا المشهدين، مثل: (وَقُمتُ إِلى البَركِ الهَواجِدِ فَاِتَّقَت)، و(فَقلْتُ لهُ: أَهلاً وسهلاً ومَرحباً ،فَلَقَّيتُهُ أَهلاً وَسَهلاً وَمَرحَبا)،(الليل).

(١) . . ديوانه،ص١١٧.١١٩ ونكباء : ريح انحرفت ووقعت بين ريحين كالصبا والشمال ، كوماء : الجمع كوم وكوم الشيء أي عظم وغلب استعماله في سنام البعير ، عتاق الخيل : عتق الفرس أي كرم وسبق .

الخاتمة

اختلف العلماء في تحديد الحدود الجغرافية لشبه الجزيرة العربية.

ومعرفة العرب بالأنواء جاءت من التجربة لأن المجتمع العربي مجتمع رعوي يعتمد في حياته على الرعي وتربية الحيوانات، فكان لا من معرفة مواعيد سقوط المطر ومناطق الخصب ومواسم الزراعة وكذلك لا بد من معرفة طرق الملاحة والتجارة.

وقدأطلقت العرب على الأنواء أسماء محددة، وقسمتها إلى ثمانية وعشرين نوءاً في السنة ولكل نوء ثلاثة عشر يوما، ماعدا نوء الجبهة ففيه أربعة عشر يوماً ، كما ميزت كل نوء بأسجاع انطلاقاً من تأثيره على الطبيعة والإنسان والحيوان وما يحمله من ظواهر طبيعية.

واختلف العرب في تقسيم السنة، فمنهم من قسمها إلى زمنين ومنهم من قسمها إلى أربعة أزمنة ومنهم إلى ستة أزمنة وهذه الأزمنة تسمى فصولاً كما أن هناك من أطلق على الربيع خريفاً.

كماوردت الريح في القرآن الكريم بلفظ الأنثى وكذلك في الحديث الشريف والشعر الجاهلي.

ولعل أبرز نتائج البحث ، هي :

- جاء لفظ الرياح في القرآن الكريم للخير والبشرى والمنفعة والرحمة، أما لفظ الريح فلقد استعمل للعذاب والهلاك والنقمة والتخويف.
- جعلت العرب لكل ريح اسما بحسب جهة هبوبها.
- الرياح الشمالية هي أكثر الرياح ذكراً في الشعر الجاهلي مقارنة بصور الرياح الأخرى ، فقد بلغت نسبتها ٤٠% فيما وقفت عليه من شعر .

- يرى الجاهليون أن الرياح هي المحركة للسحاب.
- جاء لفظ المطر في القرآن الكريم للدلالة على العذاب، أما لفظ الماء والغيث فدل على الخير والرحمة وكذلك جاءت في الأحاديث الشريفة.
- كانت أولى علامات استطلاع العربي للمطر هي ترقب البرق فقد باتوا ليلهم يرقبونه ، بل يدعون أصحابهم للترقب معهم.
- تعددت طقوس الاستمطار عند العرب فمنها؛ الاستمطار بالنجوم والكواكب وهذا معتقد ديني كان عند بعض القبائل العربية التي تعبد النجوم والكواكب فمن هذه المعبودات هي معبودات منزلة للمطر ومن الأنواء التي آمن بها الجاهليون لنزول المطر نوء الثريا ، ومن طقوس الاستمطار نار الاستسقاء بحيث يشعلون النار في أذناب البقر، وكذلك فإن غسل الثياب يعد من طقوس الاستمطار ، واللجوء إلى بيت الله الحرام ، والاستمطار بالرضيع.
- ومن العادات التي سادت في فصل الشتاء عند معظم القبائل العربية تقريب البيوت بعضها من بعض ، ليسهل الإطعام وتفقد الأرامل والشيوخ والأطفال والمحتاجين ،وكذلك من عاداتهم نحر الجزور.
- ومن أسباب اكتساب العربي لصفة الكرم أنه وسيلة لكسب المكانة والقوة فلا سيادة لبخيل ، وكذلك فإنه حماية للعرض والنسب.
- ومن وسائل هداية الضيف عند الجاهليين إشعال النار ونباح الكلاب والمناداة للطعام.
- ويتجلى الكرم في الشتاء بسبب قلة الزاد ، واجتماع الجياع خلف بيوت الكرام.
- ومراحل إكرام الضيف عند العرب تبدأ من تحية الضيف بوجه باسم مشرق والجلوس معه وإزالة الوحشة عنه ثم تأتي الضيافة.

- كان من عادة العرب نضح ضرع الناقة بالماء في فصل الشتاء حتى يبقى جزء من اللبن فيه إلا أن ذلك لا يكون عند حضور الضيف فلا ينضح بالماء حتى يتم حلب جميع اللبن من ضرع الناقة.
- يقدم أفضل أجزاء الناقة للضيف وهو السنام كما تعد أفضل النوق لتقديمها للضيف هي الكوماء ، وهي النوق الضخمة السمينة القوية، كما أن الكرم يتجلى حين ترتفع أثمان هذه النوق في فصل الشتاء، ولاتخلو مائدة الضيوف من الخبز.
- اقترنت المرأة بمطر الشتاء فكلاهما مصدر للحياة ورمز للتجدد ، وكلاهما رمز للخصوبة والبقاء والخلود ، فعندما ترحل إلى أرض فإنها تحييها بما تملكه من وظائف الإخصاب والولادة والخضرة.
- وفكرة الخصوبة جعلت كثيرا من الشعراء الجاهليين ينطلقون في حديثهم عن المطر والبرق من خلال المرأة.
- وتشبيه المرأة بالسحابة يحيلها إلى نوع من الوجود ، لا تنفك فيه عن الماء الذي هو مصدر للحياة.
- وقدأكثر الشعراء من تصوير ريق المرأة بالمطر ، واستعملوا معادلا موضوعيا لفكرة المطر ، كما استعملوا وصف الريق وسيلة للتعبير عن الرغبة في استقبال المطر ، بحيث تختفي المرأة ويبرز المطر ، وكذلك فإن رحيل المرآة هو رحيل المطر والخصب ، وقربها هو الحياة والبقاء وتدفق ماء الحياة.
- في الشتاء نجد المرأة التي تسهر في إعداد الطعام للضيوف ، كما نجد المرأة الجائعة والأرملة والعاذلة.
- ويكثر الغزو في فصل الشتاء بسبب قلة الطعام واشتداد الجوع.
- وصورة الناقة حاضرة في فصل الشتاء ، فهي الأداة التي صور الشاعر من خلالها صراعه ونضاله من أجل الحياة ، وقد ارتبطت بالخير والبركة والخصب والنماء.

- والإلقاح والخصوبة بين الناقة والفحل هي صورة السحاب التي تلقح من بعضها بعضا لتلد الماء الغزير.
- وارتبط الثور بمعاناة الشاعر في فصل الشتاء ، فكأن الشاعر هو الثور القوي الذي اجتاز المصاعب في الصراع مع الطبيعة ، ومواجهة الموت وعدم الاستسلام ، ويختم هذا الصراع بالانتصار.
- كما ارتبطت صورة الثور بالناقة وصراعها في الشتاء.
- هناك بعد أسطوري يشير إلى اعتقاد ديني قديم عم الحضارات الإنسانية يتعلق بالموت والحياة في معاناة الثور في الشتاء ، وهذا الثور ما هو إلا الشاعر الذي عانى في الشتاء من الجدب والقحط ، وغامر حتى أتاه ربيع مزهر كثير الرياض.
- ولا يوجد تعريف محدد لمفهوم الصورة في المعجمات العربية ، ويمكن أن نجد أقدم مفهوم للصورة عند الجاحظ ، فما أبداه الجاحظ هو نواة لما استقر عليه المصطلح النقدي. وترجح أكثر الدراسات مفهوم الصورة كما جاءت عند عبد القاهر الجرجاني.
- ولعل الصورة البلاغية التي تعتمد في بنائها على الأشكال البلاغية المختلفة من أكثر الصور شيوعا في الشعر الجاهلي.
- وقد استعمل الشعراء الجاهليين في شعر الشتاء جميع ضروب التشبيه نحو التشبيه المجمل والتشبيه المرسل والتشبيه الضمني كما أن أكثر أدوات التشبيه استعمالاً " كأن" وكاف التشبيه". كما استعملوا الاستعارة وأنواع المجاز الأخرى.

- ولأن العين هي النافذة الوحيدة للرؤية البصرية، فقد كانت الصورة البصرية هي الأكثر وروداً في شعر الشتاء الجاهلي.
- وقد لجأ الشعراء الجاهليون في رسم الصورة البصرية الشتائية إلى التجسيم كما استعملوا الألوان في ذلك.
- الصورة اللونية في الشتاء من أكثر الصور دوراناً عند الشعراء الجاهليين من خلال التصريح باللون ، ومن خلال ما يذكر من دلالة عليه ، فهم ميزوا بين الألوان بدقة متناهية ، وهذه الدقة في وصف اللون التي تثبت واقعية الصورة الشعرية دونما تكلف أو كذب معتمداً على دقة ملاحظة الشاعر في إثبات صدق تجربته الشعرية.
- برزت الصورة الضوئية عند الشعراء الجاهليين فلقد أعطوها أهمية ملموسة وخاصة عند حديثهم عن البرق ونار القرى كصور شتائية.
- والعنصر الحركي وهو أحد عناصر الصورة البصرية له دور كبير في إخراج هذه الصورة من حالة الجمود إلى حالة الحركة لتصبح صورة حية نابضة بالحياة زاخرة بالحركة والنشاط.
- كما رصدت الصورة السمعية صوت عناصر الطبيعة في فصل الشتاء ، كالمطر والرعد والريح ، وكذلك فإن الصوت كان مهما في توضيح جوانب الصورة الفنية وإخراجها من حالة السكون إلى حالة الحركة والصراخ لتصبح صورة نابضة بالحياة ومشهدا متكاملاً بعناصره جميعاً.
- استثمر الشعراء عند رسمهم لصورة الكرم في فصل الشتاء عناصر الطبيعة في رسم الصورة الشمية لمحبوباتهم.
- ونجد الصورة الذوقية تكثر عند حديث الشعراء عن المرأة فيصورون ريق المرأة وثغرها ويربطونه بالمطر ، وكذلك تتجلى هذه الصورة عند الحديث عن أثر المطر في الخمر.

- استعمل الشاعر الجاهلي معظم بحور الشعر في تصوير فصل الشتاء.
- لم يترك الشعراء الجاهليون معنى أو اسما فيما يتعلق بشعر الشتاء إلا وضعوا له الألفاظ المناسبة التي شملت كل شيء له علاقة بالشتاء ، مثل ألفاظ الطبيعة كالريح وأنواعها وأحوالها والسحب وأشكالها وألوانها والبرد والثلج والجليد والمطر وأنواعه ومواقع نزوله وغزارته وما ينتج عن ذلك من سيول ومجاريها.
- كما حفظ لنا شعر الشتاء ألفاظا اجتماعية وعادات عند العرب ، مثل اللعب بالميسر والقداح والكرم ومجالاته وأركانه.
- كان للحيوان نصيب وافر من شعر الشتاء كالثور الوحشي وصفاته وأحواله وكذلك الإبل، وأسمائها لأعمارها، ورضاعها، وحلبها، وصرها ونعوتها في أطوالها، وألوانها.
- هناك ألفاظ حدث لها انزياح في الدلالة داخل السياق نحو الشتاء، النار، المقرور، الندى، الغيث وذلك بتأثير الصورة عند توظيفها في التعبير فاكتسبت دلالات جديدة يمكن متابعتها والوصول إليها من خلال النماذج الشعرية للصورة.
- ظاهرة الاستفهام تقترن عند الشاعر الجاهلي بوصف الشتاء في مواضع كثيرة فكثيراً ما يبدأ بذكر البرق بتوجيه السؤال لنفسه أو لأصحابه أو لمحبوبته.
- وظاهرة التكرار والمقصود هنا التكرار النمطي أو المشهدي للوحات الشعرية الشتائية سواء تلك التي تصور عناصر الطبيعة أو بعض الظواهر الاجتماعية لا تقتصر على معنى كلمة واحدة في بيت شعري واحد بل يشمل المعنى العام للمشهد كاملاً إذ تتكرر الصورة بملامحها الأساسية لدى معظم الشعراء.

المصادر والمراجع

١) القرآن الكريم

٢) الإبل في الشعر الجاهلي، د. أنور أبو سويلم، دار جرير، الأردن، ط١، ٢٠١٥م، ص٢٦٣.

٣) الآثار الباقية عن القرون الخالية، أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني ، بعناية إدوارد ساخو ، ١٨٧٨.

٤) الأزمنة والأمكنة، أبو علي محمد بن الحسن المرزوقي، تحقيق محمد نايف الدليمي، عالم الكتب، بيروت، ط ١.

٥) الأزمنة والأنواء، أبي إسحاق إبراهيم بن إسماعيل الأجدابي، تحقيق الدكتور عزة حسن، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط ، المغرب، ٢٠٠٦، ط٢.

٦) الأزمنة وتلبية الجاهلية، أبو علي محمد بن المستنيربن أحمد البصري قطرب، تحقيق حنا جميل حداد، مكتبة المنار الأردن، ط١.

٧) الأصمعيات، عبد الملك بن قريب بن عبد الملك الأصمعى أبو سعيد، تحقيق: أحمد محمد شاكر – عبد السلام محمد هارون، دار المعارف – مصر ، ط٥، بدون.

٨) الأصول الفنية للشعر الجاهليّ ، سعد إسماعيل شلبي، مكتبة غريب، ١٩٨٢.

٩) الأنواء في مواسم العرب، أبو محمد بن مسلم الدينوري، تصحيح دار الكتب المصرية ١٩١٩.

١٠) الإيضاح في علوم البلاغة ، الخطيب أبو عبد الله بن زكريا بن محمد القزويني، تحقيق عبد المنعم خفاجي، دار الكتاب اللبناني – بيروت ،بدون.

١١) الإيقاع في الشعر العربي من البيت الى التفعيلة ، د. مصطفى جمال الدين ، النجف الأشرف ، بدون، ط٢.

١٢) البرصان والعرجان والعميان والحولان، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل بيروت، ط١، ١٩٩٠.
١٣) التذكرة السعدية في الأشعار العربية، محمد بن عبد الرحمن بن عبد المجيد العبيدي، تحقيق: عبد الله الجبوري، منشورات المجمع العلمي العراقي، مطابع النعمان، النجف، ١٣٩١ هـ / ١٩٧٢ م.
١٤) التفسير النفسي للأدب، د. عز الدين إسماعيل، مكتبة غريبب بدون.
١٥) الحماسة البصرية، صدر الدين علي بن أبي الفرج بن الحسن البصري ، تحقيق: عادل سليمان جمال، مكتبة الخانجي، ط١؛ ١٩٩٩.
١٦) الحيوان ، أبو عثمان عمرو الجاحظ ، تحقيق وشرح عبدالسلام هارون ، مكتبة مصطفى البابي الحلبي ، ط١ ، ١٩٥٤.
١٧) الرحلة في القصيدة الجاهلية، وهب رومية، بيروت ، لبنان، الشركة المتحدة، ط٣، ١٩٨٢م.
١٨) الشّعر الجاهليّ منهج في دراسته وتقويمه، د. محمد النويهي ، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة ، بدون.
١٩) الشعر الجاهلي: قضاياه الفنية والموضوعية، إبراهيم عبد الرحمن ، بيروت . لبنان، دار النهضة العربية، ١٩٨٠.
٢٠) الشعر في قرطبة، محمد سعيد محمد، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ٢٠٠٣
٢١) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي ، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار ، دار العلم للملايين – بيروت ، ط ٤ ، ١٩٨٧م.
٢٢) الصناعتين الكتابة والشعر ، أبو هلال العسكري،. تحقيق: محمد علي البجاوي و محمد أبو الفضل إبراهيم ،ط٢ مطبعة الباب الحلبي وشركاؤه، بدون.
٢٣) الصورة الشعرية عند أبي القاسم الشابي ، مدحت سعيد الجيار ، الدار العربية للكتاب والمؤسسة الوطنية للكتاب، ليبيا، ١٩٨٤م.

٢٤) الصورة الشعرية، سيسل داي لويس ، ترجمة أحمد الجنابي ورفاقه، بغداد . العراق ، وزارة الثقافة والاعلام، ١٩٨٥.
٢٥) الصورة الفنية في الشعر الجاهلي ، نصرت عبد الرحمن ، مكتبة الأقصى ، عمان ، ط٢، ١٩٨٢م.
٢٦) الصورة الفنية في الشعر الجاهلي في ضوء النقد الحديث، نصرت عبد الرحمن ، عمان . الأردن، مكتبة الأقصى، ١٩٧٦.
٢٧) الصورة الفنية في المثل القرآني ، محمد حسين علي الصغير: ، دار الهادي للنشر والتوزيع ، ١٩٩٢.
٢٨) الصورة الفنية في شعر الشماخ ، محمد علي ذياب، ، وزارة الثقافة، عمان الأردن، ٢٠٠٣.
٢٩) الصورة الفنية في النقد الشعري ، عبد القادر الرباعي، الرياض . السعودية، دار العلوم والطباعة والنشر، ط١، ١٩٨٤.
٣٠) الصورة الفنية معياراً نقدياً " منحى تطبيقي على شعر الأعشى الكبير " عبد الاله الصائغ ، وزارة الثقافة والاعلام " دار الشؤون الثقافية العامة " ، ط١ ، ١٩٨٧
٣١) الصورة في التراث النقدي والبلاغي، جابر عصفور، القاهرة . مصر، دار المعارف بدون .
٣٢) الصورة في شعر بشار بن برد ،عبد الفتاح صالح نافع، دار الفكر للنشر والتوزيع ، عمان ، ١٩٨٣م.
٣٣) الصورة في الشعر العربي حتى نهاية القرن الثاني الهجري ، علي البطل ، بيروت . لبنان ، دار الأندلس للنشر والتوزيع، ١٩٨٢.
٣٤) الطبيعة في الشعر الجاهلي، د. نوري حمودي القيسي، دار الإرشاد للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٠.
٣٥) العمدة في صناعة الشعر ونقده، أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني، تحقيق: د. النبوي عبدالواحد شعلان، مكتبة الخانجي، ط١، ٢٠٠٠م.

٣٦) الكامل في اللغة والأدب، أبو العباس محمد بين يزيد المبرد، مكتبة المعارف، بيروت، بدون.
٣٧) اللطائف في اللغة معجم أسماء الأشياء ، أحمد بن مصطفى الدمشقي اللبابيدي ، تحقيق : أحمد عبد التواب عوض ، دار الفضيلة ، مصر ، ١٩٩٧.
٣٨) المخصص، علي بن إسماعيل أبو الحسن ابن سيده، دار إحياء التراث العربي – بيروت – ١٤١٧هـ،١٩٩٦.
٣٩) المرشد إلى فهم أشعار العرب وضاعتها، عبد الله الطيب المجذوب، دار الفكر– الطبعة الثانية ١٩٧٠م.
٤٠) المسالك والممالك ، إبراهيم بن محمد الأصطخرى ، تحقيق محمد جابر الحيني ، القاهرة ، ١٩٦١
٤١) المطر في الشعر الجاهلي، أنور أبو سويلم، دار الجيل لبنان، بيروت، ط١، ١٩٨٧.
٤٢) المعجم المفصّل في الأدب ، محمد التونجي،دار الكتب العلمية، بيروت ، ج٢، ١٩٩٩م .
٤٣) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، د. جواد علي، جامعة بغداد، ط٢، ١٩٩٣
٤٤) المفضليات، المفضل الضبي، تحقيق وشرح أحمد شاكر وعبد السلام هارون، القاهرة، دار المعارف، ط٤.
٤٥) الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، محمد بن عمران بن موسى المرزباني ، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية ، ١٩٩٥.
٤٦) الموقف النفسي عند شعراء المعلقات، مي يوسف خليف، دار غريب – القاهرة.
٤٧) النقد الأدبي الحديث ، د . محمد غنيمي هلال، دار الثقافة، بيروت،١٩٧٣م.

٤٨) الياذة هوميروس ، ترجمة : سليمان البستاني ، مطبعة الهلال، مصر،١٩٠٤م.
٤٩) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، محمد بن أحمد المقدسي ، ليدن ، ١٩٠٦
٥٠) أدب الكاتب، محمد بن مسلم ابن قتيبة، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المطبعة الرحمانية، مصر، ١٣٣٨هـ.
٥١) أساس البلاغة، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر، الزمخشري، بيروت . لبنان ، دار صادر ، ١٩٧٩.
٥٢) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، محمد شكري الألوسي، شرح محمد بهجة الأثري، دار الكتاب العربي المصري، ١٩٨٣، ط٧.
٥٣) تاريخ العرب قبل الإسلام، أ.د محمد سهيل طقوس، الطبعة الأولى، دار النفائس، بيروت، ط ١ ٢٠٠٩
٥٤) تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، إحسان عباس ، ، دار الأمانة ، بيروت ، ١٩٧١.
٥٥) تفسير القرآن العظيم، محمد حسين شمس الدين ابن كثير، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٩هـ.
٥٦) تلخيص الحبير، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني أبو الفضل شهاب الدين، تحقيق: حسن بن عباس بن قطب، مؤسسة قرطبة، ، ١٩٩٥.
٥٧) جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام، أبو زيد محمد بن الخطاب القرشي، تحقيق: علي محمد البجاوي، نهضة مصر للطباعة والنشر، ١٩٨١.
٥٨) جواهر البلاغة، أحمد الهاشمي، دار إحياء التراث العربي ، بيروت،١٩٨٣.
٥٩) حماسة الخالديين المعروف بالأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهليين والمخضرمين، أبو بكر محمد بن هاشم الخالدي، (ت: ٣٨٠هـ) ، أبو عثمان سعيد بن هاشم الخالدي (ت: ٣٧١هـ)، تحقيق: د. محمد علي دقة ، وزارة الثقافة، الجمهورية العربية السورية، ١٩٩٥.

٦٠) دراسات في الشعر الجاهلي، يوسف خليف، ،دار غريب ، القاهرة، ١٩٨١.
٦١) دلائل الإعجاز عبد القاهر الجرجاني، تصحيح الشيخ محمد عبده والشيخ محمد محمود الشنقيطي. ط دار المعرفة ، بيروت، ١٩٧٨م.
٦٢) ديوان الأسود بن يعفر، تحقيق: د. نوري حمودي القيسي ، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد ، ١٩٧٠.
٦٣) ديوان الأعشى، ميمون بن قيس، شرح محمد حسن، مكتبة الآداب، الجماميز، بدون.
٦٤) ديوان الحارث بن حلزة، جمع وتحقيق وشرح إيميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١،١٩٩١م.
٦٥) ديوان الحماسة، حبيب بن أوس الطائي أبو تمام، تحقيق أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٨.
٦٦) ديوان الخنساء ، تحقيق: حمدو طماس ، دار المعرفة ، بيروت ، ط ٢ ، ٢٠٠٤.
٦٧) ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني، تحقيق وشرح، صلاح الدين الهادي، دار المعارف، مصر، ١٩٦٨.
٦٨) ديوان الشنفرى، تحقيق أميل يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت ،ط٢، ١٩٩٦.
٦٩) ديوان الطرماح، تحقيق عزة حسن، مطبوعات مديرية إحياء التراث، دمشق، ١٩٦٨ م.
٧٠) ديوان المتلمس الضبعي، تحقيق: حسن كامل الصيرفي، معهد المخطوطات العربية، ١٩٧٠.
٧١) ديوان النابغة الذبياني، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ١٩٧٧.

٧٢) ديوان ابن مقبل" ، تحقيق: د. عزة حسن، دار الشرق العربي ،بيروت –لبنان، ١٩٩٥ .

٧٣) ديوان امرئ القيس، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ط ٤، ١٩٨٤م.

٧٤) ديوان أمية بن أبي الصلت، تحقيق د. سجيع جميل الجبيلي، دار صادر، بيروت، لبنان، ط١ ،١٩٩٨.

٧٥) ديوان أوس بن حجر ، جمع وتحقيق محمد يوسف نجم ، دار صادر، بيروت ، ١٩٧٩.

٧٦) ديوان بشر بن أبي خازم الأسدي، تحقيق د . عزة حسن، مطبوعات مديرية إحياء التراث القديم، ١٩٦٠.

٧٧) ديوان حاتم الطائي، شرح: أبو صالح يحيى بن مدرك الطائي، تقديم: حنّا نصر الجتي، دار الكتاب العربي، ط١، ١٩٩٤.

٧٨) ديوان حسان بن ثابت، تحقيق: عبد مهنا ، دار الكتب العلمية، بيروت ، ط٢ ،١٩٩٤.

٧٩) ديوان حميد بن ثور الهلالي ، صنعة عبد العزيز الميمني ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة). ١٩٥١ م.

٨٠) ديوان حميد بن ثور الهلالي، صنعه عبد العزيز الميمني، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٥١.

٨١) ديوان دريد بن الصمة، تحقيق: د. عمر عبد الرسول، دار المعارف، ١٩٨٠.

٨٢) ديوان ذي الرمة شرح أبي نصر الباهلي رواية ثعلب، أبو نصر أحمد بن حاتم الباهلي ، تحقيق عبد القدوس أبو صالح ، مؤسسة الإيمان جدة ، ط ١ ، ١٩٨٢

٨٣) ديوان زهير بن أبي سلمى، تحقيق وشرح كرم البستاني ، دار صادر ، بيروت ١٩٦٩.

٨٤) ديوان زهير بن جناب الكلبي، د.محمد شفيق البيطار، دار صادر، ط١، ١٩٩٩م.

٨٥) ديوان طرفة بن العبد ، شرح الأعلم الشنتمري ، تحقيق درية الخطيب ولطفي الصقال، مجمع اللغة العربية ١٩٧٥.

٨٦) ديوان طرفة بن العبد، شرح الأعلم الشمنتري تحقيق درية الخطيب وأحمد الصقال، مطبوعات مجمع اللغة العربية ، دمشق ١٩٥٧.

٨٧) ديوان عبيد بن الأبرص ، شرح أشرف أحمد عدرة ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٩٩٤.

٨٨) ديوان عدي بن زيد العبادي، جمعه وحققه محمد جبار المعيبد، دار الجمهورية للنشر والطبع، بغداد، ١٩٦٥.

٨٩) ديوان علقمة الفحل بشرح الأعلم الشنتمري، تحقيق: لطفي الصقال ودرية الخطيب، دار الكتاب العربي – حلب – سوريا، ط١، ١٩٦٩م.

٩٠) ديوان عمرو بن قميئة، تحقيق: خليل إبراهيم العطية، دار صادر بيروت – لبنان، ط٢، ١٩٩٤

٩١) ديوان عمرو بن كلثوم، تحقيق: إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، ط١، ١٩٩١.

٩٢) ديوان قيس بن الخطيم، تحقيق الدكتور ناصر الدين الأسد، مكتبة دار العروبة، القاهرة، ١٩٦٢م

٩٣) ديوان كعب بن زهير ، صنعة : الإمام ابي سعيد بن الحسن بن الحسين بن عبيد الله السكري ، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية ، القاهرة ، ط ٣ ، ٢٠٠٢.

٩٤) ديوان لبيد بن ربيعة العامري، دار صادر بيروت، ١٩٦٦.

٩٥) ديوان مهلهل بن ربيعة، شرح طلال حرب، الدار العالمية، بدون.

٩٦) سرور النفس بمدارك الحواس الخمس ، أبو العباس أحمد بن يوسف التيفاشي، تحقيق: إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت–لبنان، ط١ ،١٩٨٠.

٩٧) سنن البيهقي الكبرى، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى البيهقي، تحقيق : محمد عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز، مكة، الجزء ٢، ١٩٩٤م.

٩٨) سنن أبي داؤود ، سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني أبو داود، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرون ، دار الرسالة العالمية ، ٢٠٠٩.

٩٩) شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام، بشير يموت، المكتبة الأهلية، بيروت، ط١، ١٩٣٤م.

١٠٠) شرح المعلقات السبع، الحسين بن أحمد الزوزني، الدار العالمية،

١٠١) شرح أشعار الهذليين، أَبُو سَعِيدٍ الحسن بن الحسين السُّكَّرِيّ، مكتبة دار العروبة – مطبعة دار المدني، تحقيق: أحمد عبد الستار فراج، مراجعة محمود محمد شاكر، ط١، بدون.

١٠٢) شرح تحفة الخليل في العروض والقافية: عبدالحميد الراضي ، مطبعة العاني بغداد ١٩٦٨م.

١٠٣) شرح ديوان زهير بن أبي سلمى، صنعة الإمام أبي العباس أحمد بن يحيى الشيباني (ثعلب)، مطبعة دار الكتب المصرية،١٩٤٤م.

١٠٤) شرح ديوان عنترة ، الخطيب التبريزي، تحقيق مجيد طراد، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٢.

١٠٥) شعر بني تميم في العصر الجاهلي، عبد الحميد محمود المعيني، جامعة الملك سعود ، ١٩٨٢.

١٠٦) شعر الزبرقان بن بدر وعمرو بن الأهتم، تحقيق: د. سعود محمود عبد الجابر، مؤسسة الرسالة،ط ١، ١٩٨٤.

١٠٧) شعر عمرو بن معدي كرب الزبيدي، تحقيق: مطاع الطرابيشي، مجمع اللغة العربية بدمشق، ط٢، ١٩٨٥.

١٠٨) شعر همدان وأخبارها في الجاهلية والاسلام، حسن عيسى أبو ياسين، دار العلوم للطباعة والنشر ،١٤٠٣هـ ١٩٨٣م

١٠٩) صبح الأعشى، أبو العباس أحمد القلقشندي، المطبعة الأميرية، القاهرة ،ج٢، ١٩١٣.

١١٠) صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، دار ابن كثير، دمشق ، ط١، ٢٠٠٢.

١١١) سنن ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجة الربعي القزويني، تحقيق: محمد ناصر الدين الالباني، مكتبة المعارف، الرياض، ١٩٩٧، ج٣.

١١٢) صحيح مسلم، مسلم بن حجاج، تحقيق: نظر بن محمد الفاريابي أو قتيبة، دار طيبة،٢٠٠٦.

١١٣) صفة جزيرة العرب ، الحسن بن أحمد الهمداني ، تحقيق محمد الأكوع ، ١٩٧٤ ، بيروت

١١٤) صورة الأرض ، أبو القاسم النصيبي ، منشورات دار مكتبة الهلال ، بيروت ١٩٧٩م

١١٥) طبقات فحول الشعراء، محمد بن سلام الجمحي، شرح محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، م١، بدون.

١١٦) ظواهر جغرافية في ضوء القرآن الكريم، حسن شحادة النصيرات، عمان، ط٢ بدون.

١١٧) عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات ، زكريا محمد محمود القزويني، مطبعة التقدم مصر، بدون.

١١٨) عمرو بن برّاقة الهمْداني (من مخضرمي الجاهلية والإسلام) سيرته وشعره ، د. شريف راغب علاونة ، دار المناهج ، عمّان ، ط ١ ، ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٥ م.

١١٩) فن التقطيع الشعري والقافية: د.صفاء خلوصي ، منشورات مكتبة المثنى، بغداد، ط٥، ١٩٧٧م.

١٢٠) فن الشعر ، أرسطو ، ترجمة إحسان عباس، بيروت . لبنان، دار الثقافة ، ط٣ ، د.ت، ص ٢٣٠.

١٢١) في النقد الأدبي ، د. شوقي ضيف ، دار المعارف . القاهرة ، ط٢ ،(١٩٦٦).

١٢٢) قصائد جاهلية نادرة، يحي الجبوري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٢ ،١٩٨٨.

١٢٣) قضايا الشّعر الجاهليّ ،علي العتوم، مكتبة الرسالة الحديثة عمان، الأردن ١٩٨٥.

١٢٤) قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، محمد زكي العشماوي، بيروت ، دار النهض العربية، ١٩٨٤.

١٢٥) كتاب التيجان في ملوك حمير، وهب بن منبه ،وزارة المعارف العثمانية، الهند ١٣٤٧هـ.

١٢٦) كتاب العين ، الخليل بن أحمد الفراهيدي ، تحقيق د . مهدي المخزومي و د . إبراهيم السامرائي دار مكتبة الهلال .

١٢٧) مجمع الأمثال، الإمام أبو الفضل الميداني، تحقيق، محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السنة المحمدية، ج١، ١٩٥٥.

١٢٨) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، علي بن أبي بكر الهيثمي نور الدين، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ج١٦، ١٩٩٨.

١٢٩) محيط المحيط ، بطرس البستاني ، ج٢ ، مكتبة لبنان ، بيروت،١٨٧٠.

١٣٠) مروج الذهب ومعادن الجوهر، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي، مراجعة كمال حسن مرعي، المكتبة العصرية، بيروت، ط ١، ٢٠٠٥.

١٣١) مستقبل الشعر وقضايا نقدية، عناد غزوان،. دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ١٩٩٤م.

١٣٢) مسند الإمام الشافعي، أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٠.
١٣٣) معجم ما استعجم، أبو عبيدة البكري، تحقيق مصطفى السقا، ١٩٤٥.
١٣٤) منهاج البلغاء وسراج الأُدباء ، حازم القرطاجنّي ، تحقيق محمد بن الخواجة ، تونس ، ١٩٦٦م.
١٣٥) منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، حازم القرطاجي، تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجي. دار الكتب الشرقية، تونس، ١٩٦٦م.
١٣٦) موسيقى الشعر، د . إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٢، ١٩٥٢م.
١٣٧) نثر الدر ، أبو سعد منصور بن الحسين الآبي ، تحقيق مظهر الحجي ، وزارة الثقافة السورية ١٩٩٧.
١٣٨) نقد الشعر ، قدامة بن جعفر ، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي. دار الكتب العلمية ، بيروت.
١٣٩) نقد الشعر ، قدامة بن جعفر، ط٣ ، تحقيق: كامل مصطفى، مكتبة الخانجي ، القاهرة.
١٤٠) نهاية الأرب في فنون الأدب، أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم القرشي التيمي البكري، شهاب الدين النويري، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة ، الطبعة الأولى، ج ٣.

المجلات

١) الإيقاع النفسي في الشعر العربي ، عباس عبد جاسم ، مجلة الأقلام ، عدد ٥ ، ١٩٨٥.

٢) الصورة في النقد الأوروبي ، عبد القادر الرباعي، مجلة المعرفة السورية، دمشق، عدد٢٠٤، سنة ١٩٧٩.

٣) ظاهرة التوازي في قصيدة الخنساء: موسى ربابعة، مجلة دراسات العلوم الإنسانية ، عمان ، الجامعة الأردنية ، المجلد ٢٢، العدد٥،.١٩٩٥.

٤) الملاحة وعلوم البحار عند العرب، أنور عبد العليم، مجلة سلسلة عالم المعرفة الكويتية، ١٩٧٩.

تم بحمد الله